

الثورجية

هناء زكي

الثورجية

الطبعة الأولى ٢٠١٠

رقم الإيداع ٧٧٦٦/ ٢٠١٠
ISBN 978-977-09-2792-3

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون : ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)+
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

هناء زكي

الثورجية

دار الشروق

المحتويات

إهداء إلى ثلاثة..

إلى.. رُفقاء الأيام العجاف، صُحبة زَمن الصّحوة، شُركاء الحُلْم الثَّوري. قضيت من عمري عامين في البحث والتنقيب في الذاكرة، التي أنهكها شقا السنين، لجمع قصص وحكايات عن ذكريات تجربة عِشْناها معا، أدين لها بفضل، دين أردُّه اليوم، في رسالة حب سطرت أحرفها كلمات هذ الكتاب.

أُهدى هذا الكتاب إلى..

- زوجي العزيز محمد الغمري.
- أعضاء جمعية الدراسات العربية. والمتهمين في قضية التنظيم الناصري.
- كل شاب لم يذق حلاوة حب الوطن.

وقفة العيد

أمام محطة أتوبيس بورسعيد في «القللي»، تقابلت وزوجي محمد الغمري مع شلة بورسعيد، جيراننا في المحافظة يعني بورسعيدية، وزملاؤنا بكلية الحقوق وفي جمعية الدراسات العربية وهم: ياسر عبد الجواد، أحمد رجب وأخوه سيد، ياسر حسن وأخته نسرين وسيد مزاحي. كان آخر يوم في شهر رمضان عام ١٩٨٧، ومحطة الأتوبيس مكدسة بزحام يوم الحشر، وقفنا أمام شباك التذاكر في طابور لا نهاية له، وحين جاء الدور علينا لم نجد سوى تذكرة لمقعد واحد فقط! والباقي على الواقف، كان لنا أن نسافر ليقضي كل منا العيد مع أهله فتوكلنا على الله وركبنا الأتوبيس، نتبادل الجلوس على الكرسي الوحيد. وكي نتحمل مشقة الوقوف ثلاث ساعات مع الصيام والحر قلبنا الأتوبيس لحالة تهريج، في البداية كان بعض الركاب متذمرين من صوتنا العالي، وآخرون ينظرون إلينا بنص عين، وبعد فترة انضموا إلينا الواحد تلو الآخر، واحد بنكتة وآخر بفزورة، وبعد أن كنا نتبادل الجلوس على مقعد وحيد، أصبح كل الركاب يتبادلون مقاعدهم مع كل الواقفين، لكنهم اتوصوا بي حبة زيادة لأني كنت حامل في شهري الثالث.

مر علينا أول أيام عيد الفطر في سعادة لا توصف، اتمشينا في شارع البحر وأكلنا الذرة المشوي والآيس كريم، وضحكنا كمية ضحك غير معقولة، ويظهر نسينا أن نتبعه بالقول المأثور: «اللهم اجعله خير»!

فبين ليلة وضحاها انقلب حالنا من مرح وضحك إلى نكد وحزن. ففي الصباح حين اشترى غمري الجرائد طالعتنا بمانشيت عنوانه «القبض علي القيادي الناصري محمد منيب بتهمة تشكيل تنظيم ناصري مسلح». ولم تمض ليلة أخرى، وتبعه خبر إلقاء القبض على

بعض القيادات الناصرية ومنهم: حمدين صباحي، أمين إسكندر، كمال أبو عيطة، وأحمد ثابت.

في المساء تقابلت شلة بورسعيد عند تمثال «ديليسبس» لمناقشة تلك الأخبار المفزعة، وأدلى كل منا برأي.. من قال إنها هجمة شرسة على الناصريين مثل حملة اعتقالات «مايو» ١٩٧١. ومن توقع أن الدور سيجيء علينا، وأجمعت الشلة على أن القادم لا يُبشر بالخير، واقترح أحدهم اتخاذ الاحتياطات اللازمة بعدم المبيت في منازلنا تحسبًا لما قد يحدث. غير أن ياسرعبد الجواد قام منتفضًا مقررًا العودة إلى القاهرة، حاولنا إثناءه عن عزمه وتأجيل قراره، ولكنه تركنا ضاحكًا:

- اللي يحصل يحصل.

عُدت إلى منزل حماتي وأنا في حيرة شديدة، وشيء ما جثم على صدري كتم معه الإحساس بالاطمئنان.

ولم تمهلنا الأنباء الكارثة قليلًا، فعند منتصف الليل طرق «علي عبد الحميد» و«ياسر حسن» باب منزل حماتي، فخرج لهم غمري وغاب فترة، ثم عاد يكتسي وجهه بملامح كئيبة. وأخبرني آخر المستجدات.. أن محمود عبد الحميد اتصل من الإسماعيلية وأخبر أخيه علي بأن قوة من الأمن هجمت على منزليهما في الإسماعيلية والقاهرة. ولهذا قرر علي وياسر حسن الاختفاء مؤقتًا لحين الوقوف على حقيقة الأمر، فجهز لهما غمري مكانًا لمبيت الليلة. وفي الصباح اختفيا تماما! وفي الصباح أيضًا علمنا أن ياسر عبد الجواد أُعتقل بمجرد وصوله القاهرة.

تناقشت مع غمري فيما سنفعله، فقررنا مواجهة مصيرنا المجهول بالعودة إلى القاهرة. مساءً كنا نركب الأتوبيس في حالة تختلف تمامًا عن حالنا لحظة المجيء. جملة قصيرة نطق بها غمري:

- ارمي حمولك على الله.

بعدها ساد بيننا صمت مصحوبًا بألم من ينتظر وقوع البلاء.

* * *

ساعات السفر طويلة ثقيلة، ألقيت ببصري نحو الصحراء وعقلي يبحث وسط ظلامها عن خيط نور، أو إجابة شافية عن أسباب ما يحدث؟

هل ما قمنا به في جمعية الدراسات العربية السبب؟ صحيح أن الجمعية تأسست عام ١٩٨٢ كأي أسرة طلابية في كلية الحقوق جامعة القاهرة، يُمَارس خلالها الطلاب العديد من الأنشطة الثقافية والترفيهية والسياسية، وصحيح أنها ساهمت في خلق حالة غير مسبوقة في تاريخ الحركة الطلابية في مصر. أدت إلى حدوث حراك سياسي واجتماعي تأثرت به كل القوى والتيارات السياسية داخل الجامعة وخارجها.

لكن.. هل هذا هو سبب ما يحدث؟ أم أن هناك أسبابًا أخرى لا أعلمها بعد؟

وعُدت بذاكرتي سنوات إلى الوراء، أبحث عن إجابات لتلك الأسئلة...

البداية

ع الجسر فُت الصبح تحت الضباب
بين اللي لسه بينغرس واللي طاب
ما اهتز قلبي لنبت طالع جديد
قد اللي ماشي. وتحت باطه الكتاب

عجبي
صلاح چاهين

الرأي والحوار

دخلت الجامعة عام ١٩٨٢، أول من قابلتهما وصاحبتهما «عين» و«سين» بنتين آخر روقان! كان برنامجنا اليومي السير في طرقات الجامعة، نقضيها ضحك وفرفشة، نفطر في آداب ونشرب الشاي في تجارة، حتى جاء يوم خرجنا فيه من الجامعة للنزهة بالأهرامات، حين وصلنا هناك فوجئت بمن ينتظرنا، شباب رايق يجلس على إحدى السيارات، يدخنون سجائر ذات رائحة غريبة، عرفت بعدها أنها حشيش! وهات يا دلع! ضرب الربع الباقي في نافوخي، تركتهم غاضبة وأنا أنظر إليهم من «فوق لتحت»!

وقضيت عامي الأول في كلية الحقوق، من المدرج إلى البيت والعكس صحيح، في مواظبة تامة على حضور المحاضرات. اكتشفت خلال تلك الفترة عالمًا من الشباب، يكاد لا يرى شيئًا في الحياة سوى لون خشب المدرجات والكتاب الذي يحملونه، حذوت حذوهم طوال عامي الأول، ورغم نجاحي وحصولي على تقدير جيد. إلا أنني كنت لا أزال أبحث عن شيء مفقود مني، وأفتش عن طريق لا أعلم بالضبط ما هو!

* * *

في عامي التالي تعرفت على «طارق وجدي» و«ضياء علي»، وجدتهما شابين مختلفين في طريقة تفكيرهما ومنهجهما في الحياة، وازدادت علاقتنا اقترابًا بحبنا للقراءة، فاشتركنا في المكتبة العامة بالجامعة، وبدأنا نعقد حلقات نقاش حول الكتب التي نقرؤها.

في أحد الأيام اقترح طارق وضياء تشكيل أسرة طلابية، تعمل على نشر الثقافة وتوعية الطلبة بما يدور حولنا في العالم، رحبت بالفكرة، وبدأنا في تجهيز الأوراق

المطلوبة، لكننا اختلفنا حول تحديد اسم الأسرة، هما رأيا اسم «الرأي والحوار»، معبرًا عن الاحتياج الحقيقي للشباب في إقامة حوار وتقبل الرأي مع الرأي الآخر، وأنا أرى اسم «الضمير الحي» هو تعبير عن الأزمة الحقيقية، والحل بالدعوة لصحوة الضمير. وأجرينا تصويتًا وانتصر رأيهما بالأغلبية، وانصعت لهما.

* * *

بعد مرور بضعة أشهر، تعرفت على «أحمد رجب»، ورغم أن المقصود هنا يتشابه في نفس الاسم والمهنة وإلى حد كبير في الشكل مع الكاتب الكبير أحمد رجب أستاذنا بجريدة الأخبار، إلا أنه يختلف معه عمرًا وخبرة، وقد تسبب هذا التشابه في أحد المواقف إلى أبواب المحاكم، وكي لا نصل إلى طرق تلك الأبواب، أوضح أن المقصود هنا هو صديقي أحمد رجب، الشاب الواعد في عالم الصحافة والفكر. والمسألة فقط تشابه أسماء.

كان أحمد وقتها عضوًا مؤسسًا في «جمعية الدراسات العربية» التي تشترك مع أسرة «الرأي والحوار» في أن كليهما تحت رئاسة رائد واحد هو الدكتور يحيى الجمل المفكر والفقيه القانوني الكبير. وعرفني أحمد على أعضاء الجمعية، ودار بيننا نقاش وجدال مطول عرفت منه مبادئ وأفكار الجمعية، التي شكلتها مجموعة شباب كلهم سواحلية من مدينتي بورسعيد والإسماعيلية، جمعهم فكر واحد من خلال عضويتهم في منظمة الشباب في المرحلة الثانوية، تعلموا فيها شعار: «الحرية والاشتراكية والوحدة»، فآمنوا بأن الحرية هي طريق التحرر من الاستعمار والتبعية، وأن الوحدة العربية هي السبيل الوحيد لحل أزمة الدول العربية، ومن حديث الرسول الكريم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام: «الناس شركاء في ثلاث: الماء والكلأ والنار». استمدوا مفهومهم للاشتراكية كمنهج لإزالة الفوارق الطبقية بين فئات الشعب، وتحقيق العدالة الاجتماعية. ومع جمعية الدراسات شعرت بأنني وجدت ضالتي التي كنت أبحث عنها، لهذا وافقت أحمد على اقتراحه بدمج نشاطي الأسرة والجمعية. ولكني واجهت معارضة شديدة من ضياء وطارق، ومحاولتهما إقناعي بالابتعاد عن تلك الجمعية التي يعتنق أعضاؤها الفكر الناصري وكل نشاطهم يتجه ناحية السياسة التي تُفضي إلى التهلُكة، لكن في تلك المرة لم أنصع إليهما.

حلوان

بدأت علاقتي بأعضاء جمعية الدراسات تتوطد، كان يرأسها: محمود عبد الحميد، ياسر عبد الجواد، محمد الغمري، أحمد رجب، وياسر حسن. كانوا من الذكاء بأن بدأوا أنشطة الجمعية بنشاط يعمل على التقارب بين الأعضاء على المستوى الإنساني. تمثل في تنفيذ برنامج رحلات، أوكلوا مهمة الإشراف عليه للغمري. فكروا في البدء برحلة إلى حلوان، وحيث كوني حلوانية المولد والسكن، كان من المفترض أن ألتقي أنا وغمري للترتيب للرحلة.

كان هذا اللقاء هو الاحتكاك الأول لي مع غمري، وكاد أن يصبح الأخير، لولا أن القدر شاء أشياء أخرى!

بدأ الموقف حين قادني أحمد رجب إليه، كان يجلس على سور المبنى الزجاجي في الكلية يقرأ جريدة، وقفت أنا وأحمد نحدثه حول توزيع المهام والتنسيق للرحلة، ولم يعر غمري لحديثنا اهتمامًا، ثم أزاح عينيه عن الجريدة، ونظر لى نظرة خاطفة وهو يهز رأسه، ثم أطبق بنظره مرة أخرى في الجريدة وكأننا غير موجودين!!

وصفت موقفه «بالجليطة» -كلمة شبابية قديمة تعني قلة الذوق- إلا أن أحمد حاول باستماتة أن يقنعني بأنه مجرد شخص خجول قليل الكلام، ولا يقصد أن يتعامل بتلك الطريقة، وطيب خاطري بكلمات رقيقة، وأعقبها مداعبًا واصفًا إياي بأني طيبة وهبلة وهانسى. وكان صادقا لأنني بالفعل نسيت، وأكملنا التجهيز للرحلة.

* * *

أيامنا.. ما من مدرسة أو كلية في جمهورية مصر العربية لم تنظم رحلة إلى حلوان، ولم تخل حدائقها يوما من خيام الكشافة والجوالة. وفي رحلتنا شاهدنا وعرفنا معلومات مهمة، قد لا يعلمها جيل اليوم عن حلوان[1]. أجرنا «العَجل» ولفينا حلوان كلها، زرنا «الكابريتاج» وهو مبنى أنيق يضم قسماً للعلاج بالمياه الكبريتية، وغرفًا للاستراحة وإقامة المرضى، وجميعها محاطة بحدائق جميلة.

ثم اتجهنا إلى متحف الشمع[2]. ومنه إلى عين حلوان، كل هذا ونحن نركب العجل دون كلل أو تعب، ثم توجهنا إلى «الحديقة اليابانية»[3]، ضربنا الـ«أربعين حرامي» على قفاهم، وجلسنا نستريح ونتناول وجبة الكشري التي أعددتها لهم كمفاجأة.

الآن أصاب حلوان ما أصاب المحافظات المصرية من تلوث وفوضى وعشوائية.. واحزناه على حلوان!

لم تتوقف أنشطة الجمعية على تلك الرحلة وفقط، بل نظمنا العديد من الرحلات إلى عدة أماكن منها: الأهرام، الإسماعيلية، بورسعيد.

---

(١) تعد حلوان من أقدم مدن مصر في العهد الفرعوني، فيها أول سد مائي في التاريخ، تم إنشاؤه بوادي جراوي جنوب التبين، لكنها اندثرت عبر العصور، إلى أن أحياها عبد العزيز بن مروان والي مصر فاتخذها عاصمة مؤقتة، وأنشأ الدور والقصور وغرس فيها البساتين، وفيها ولد ابنه أمير المؤمنين الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز. لكن حلوان الأموية اندثرت، وأعاد بناءها الخديو إسماعيل كمدينة للاستشفاء والاستجمام، مستغلا مياه عيونها الكبريتية، حيث توجد تلك المياه في منطقتي «عين حلوان» و«كابريتاج حلوان».

(٢) متحف الشمع أنشأه الفنان المصري فؤاد عبد الملك عام ١٩٣٤، يعد متحفا تاريخيا تعليميا، لأنه يحكي تاريخ مصر في شكل مجسم، من خلال تماثيل ولوحات، كان هذا المتحف الرابع على مستوى العالم! إضافة إلى متاحف فرنسا وإنجلترا وأستراليا. ويضم ١١٦ تمثالا و٢٦ منظرا، تحكي تاريخ مصر، بدءا من الأسرة ١٨ الفرعونية حتى ثورة ٢٣ يوليو. تماثيل هذا المتحف مصنوعة من مادة الشمع، التي تعطي انطباعا أقرب إلى ملامح الإنسان الطبيعية، كما أن المادة الشمعية معالجة كيميائيا، بحيث لا تتأثر بدرجة الحرارة، كما يدخل في صناعة هذه التماثيل خامات أخرى مثل الحديد والزجاج.

(٣) الحديقة اليابانية أنشأها ذو الفقار باشا عام ١٩١٧ بنظام فريد من نوعه، حيث تضم مجموعة من تماثيل بوذا الشهيرة يطلق عليها أطفال حلوان، «عصابة الأربعين حرامي»، حيث تقول الحكاية التي يحفظها الصغار إن عصابة شهيرة، كانت في طريقها لسرقة مستشفى حلوان، وأثناء اختبائهم في الحديقة، استعدادا للانقضاض على المستشفى، سخطهم الله في صورة تماثيل حتى يكونوا عبرة لكل من تسول له نفسه ويتجرأ على سرقة المستشفى!!

كانت رحلات رائعة على كل المستويات التثقيفية والترفيهية، وازداد أعضاء الجمعية عددا وتقاربا، وأصبحت علاقاتهم تتسم بروح رائعة من الأخوة والصداقة، فضلا عن السمات الشخصية التي جمعت بينهم، مثل الجدعنة والشهامة والكرم.

إسرائيلية عجوز!

موقف ما.. حدث ونحن في رحلة إلى منطقة «سقارة»، كان النبتة الأولى لاتفاقنا على شيء دون ترتيب مسبق. اكتشفنا فيه أننا أصبحنا على درجة كبيرة من قراءة أفكار كل منا للآخر في نفس اللحظة، والأهم من كل هذا، أن هذا الموقف كان بمثابة قرار أخلاقي ضمني، اتحدت عليه شخصياتنا أيضًا دون نقاش مسبق، والموقف رغم بساطته إلا أنه يجسد كل ما قصدته سابقًا.

فقد لاحظنا، ونحن نلعب ونلهو في سقارة، وجود أتوبيس سياحي يقل بعض السائحين؛ شككنا في كونهم إسرائيليين، وبدأنا نحوم حول الأتوبيس، حتى تأكدنا من جنسية راكبيه، شعرنا جميعا بحالة من الاستفزاز والغضب، وهمَّ كُل منا بفعل ما. كان أسرعنا هو ياسر عبد الجواد الذي التقط طوبة من الأرض ليقذفهم بها، وعندما رفع بيده لأعلى وهم بأن يلقيها عليهم، رأى أمامه سيدة عجوز تصعد إلى الأتوبيس في صعوبة. وتردد ياسر في قذف الطوبة للحظات، شعرنا فيها جميعا بالتردد، وجال في عقولنا.. الاختيار بين الإقدام على رمي الحجارة، وإعلان غضبنا من وجودهم على أرضنا، وبين كون المُعَرض للإصابة سيدة عجوز! حتى ولو كانت إسرائيلية!

رمى ياسر الطوبة بقوة على الأرض، أمام السيدة العجوز، لمجرد أن تراها فقط ودون أن تصيبها!

واكتفينا جميعا بنظرات عيونهم التي تعلقت على الحجارة المقذوفة أرضًا، والتي أعلنت لهم عن مكنون ما في صدورنا!

المبنى الزجاجي

كانت ساحة كلية الحقوق ١٩٨٢ مختلفة تماما عنها اليوم، كانت عبارة عن أربعة مبانٍ تتوسطها ساحة واسعة مربعة الشكل، وكانت المباني تنقسم إلى: المبنى الرئيسي، وفيه إدارة الكلية، ومبنى فيه مدرجات السنة الأولى والرابعة والمسرح والمكتبة، ومبنى فيه السكاشن، والمبنى الرابع عبارة عن مبنى زجاجي من دور واحد، يسمى مبنى الأمم المتحدة يمارس فيه الطلبة أنشطتهم ومعارضهم.

أقامت جمعية الدراسات أول معارضها داخل المبنى الزجاجي، لكنه كان كمن يقدم عرض أزياء داخل دولاب ملابسه!

فكان المبنى الزجاجي يمثل حاجزا، يفصل بين الطلاب العاديين وبين من يعرضون أنشطتهم، بحيث من الصعوبة أن يلاحظ الطلبة وهم في طريقهم إلى المدرجات، أن ثمة نشاطًا داخل هذا المبنى، مما جعل الأنشطة المقامة داخله حبيسة ومقتصرة على منظمي المعرض، وعدد قليل من الطلبة الذين يلاحظونه بالصدفة!

لهذا قررت الجمعية كسر الحاجز، ونظمت معرضها التالي عن القضيتين الفلسطينية واللبنانية خارج المبنى الزجاجي. فقمنا بصنع سور من الحبال والعصي الخشبية الصغيرة، أحيطت بالمبنى الزجاجي وعرضنا اللوحات في الخارج. فوجئ الطلبة بهذا المنظر الجديد وجذب انتباههم، وبدأوا يتوافدون على المعرض، وشعروا بنوع من الحماسة والإثارة لم يكن موجودا من قبل.

وأضاف أعضاء الجمعية حسًا جميلا للمعرض، بأن جاءوا بكاسيت وأداروا أغنيات الثورة لعبد الحليم حافظ، وأغنيات فيروز الوطنية، التي انجذب الطلاب لصوتها وهي تشدو:

لأجلك يا مدينة الصلاة أصلي

لأجلك يا بهية المساكن

يا زهرة المدائن

يا قدس... يا قدس

عيوننا إليك ترحل كل يوم

تدور في أروقة المعابد

تعانق الكنائس القديمة

وتمسح الحزن عن المساجد

يا ليلة الإسراء.. يا درب من مروا إلى السماء

الطفل في المغارة وأمه مريم وجهان يبكيان..يبكيان..

لأجل من تشردوا

لأجل أطفال بلا منازل

لأجل من دافعوا واستشهدوا في المداخل

واستشهد السلام في وطن السلام

وسقط العدل على المداخل..

حين هوت مدينة القدس

تراجع الحب وفي قلوب الدنيا استوطنت الحرب

استمر المعرض أيامًا، وكل يوم يمضي ينضم أعضاء جدد للجمعية، ودبت في الكلية روح جديدة، أقلقت أمن الجامعة والعميد.

عميد الكلية

ظهرت بوادر القلق بعد أن قام مكتب عميد الكلية باستدعاء أعضاء الجمعية، واحتاروا فيم يكون الأمر الذي يستدعيهم فيه؟! ذهب محمود عبد الحميد وغمري للقاء العميد وهما في حالة ارتياب، لكنهما حين دخلا مكتبه، استقبلهما العميد الدكتور نجيب حسني في مودة شديدة، بادئا حديثه بسؤال:

– هو أنتم فلسطينيين؟

وأجابا بالنفي، وبدت نظرات تعجّبهما من السؤال الغريب.

فأردف العميد قائلا:

– جه في ذهني إنكو فلسطينيين عشان اهتمامكو بالقضية الفلسطينية، والمعرض اللي انتو عاملينه.

لم يترك محمود الفرصة، فانطلق لسانه خطيبًا، يشرح للعميد بأن كوننا مصريين لا يمنع من حِسنا القومي وعروبتنا، وأن فلسطين هي جزء لا يتجزأ من الأمة العربية، وقضيتها هي قضيتنا.

وفي نبرة ممزوجة ما بين الجدية والاستيعاب، قال العميد:

– أنا مش ضد أي نشاط للطلبة، لكن إنتم طلبة حقوق، وعارفين يعني إيه قانون ونظام. معنى كده إن المعارض لا يمكن أن تقام إلا في مكانها المعتمد، وهو داخل مبنى

الأنشطة، فمن فضلكم اتبعوا النظام، ومفيش داعي للشوشرة على زمايلكم بالميكروفون والأغاني اللي عاملنها دي بره.

هز الاثنان رأسيهما، ثم سلما على عميد الكلية. وخرجا إلى المعرض، الذي استمر أسبوعًا كاملا خارج المبنى الزجاجي!!

مذبحة صبرا وشاتيلا

بدأنا في الجمعية الإعداد لمعرض عن مذابح «صبرا وشاتيلا»[1]، لم نكن نملك أي معلومات أو صور عن المذبحة سوى من خلال المصادر الرسمية، وبعض الجرائد الحزبية وقتها، مثل جريدة الشعب التي كانت تصدر عن حزب العمل، وجريدة الأهالي التي تصدر عن حزب التجمع. وجريدة الوفد الأسبوعية. أقامت الجمعية معرضها بالإمكانات المتاحة، وأديرت حلقات نقاش مع الطلبة حول الأعمال الوحشية للعدو الصهيوني في فلسطين ولبنان.

وبعد أن انضم إلى الجمعية زياد بهاء الدين، تطوع بجلب صور للمذبحة من دار «الفتى العربي» أو الهلال الأحمر الفلسطيني، عن طريق والده الكاتب الكبير الراحل أحمد بهاء الدين، وبالفعل جاءنا بكنز ثمين حوالي ١٨٠ صورة عن تفاصيل المذبحة، توجهنا إلى عميد الكلية الدكتور نجيب حسني للحصول على موافقته، فأشَّر على عرض ٣ لوحات مكتوبة فقط! ورفض رفضا قاطعا عرض الصور!!

---

(١) في الأول من سبتمبر عام ١٩٨٢ اجتاحت القوات الإسرائيلية العاصمة اللبنانية بيروت، في أول محاولة إسرائيلية لدخول عاصمة عربية، منذ إنشاء الدولة الصهيونية سنة ١٩٤٨. دخل الجيش الإسرائيلي بيروت الغربية، ومنذ اليوم الأول أحكمت القوات الغازية الطوق على مخيمي صبرا وشاتيلا، ومنعت الدخول أو الخروج منهما، ولم تسمح لا للصحفيين المحليين ولا لمراسلي الصحافة العالمية بدخول المخيمات لمدة ثلاثة أيام، وهي المدة التي نفذت فيها المذابح الجماعية داخل المخيمين، وسط تعتيم شامل. وفي الثامن عشر من سبتمبر، فكت القوات الإسرائيلية الطوق عن المخيمين، ليُكشف عن مذبحة تقشعر لها الأبدان، وتشكل منعطفًا خطيرًا في تاريخ الحضارة الإنسانية. فقد أسفرت عن قتل نحو ٣٥٠٠ من الرجال والأطفال والنساء والشيوخ المدنيين العُزل من السلاح.

تظلمنا إلى رائد الجمعية الدكتور يحيى الجمل، فتوجه على الفور إلى عميد الكلية، وحكى له أنه كان في باريس، وشاهدهم هناك يعرضون صورًا أبشع مما لدينا، فكيف لنا نحن أصحاب القضية لا نعرضها؟! وأخيرًا وافق العميد على عرض ٨٣ لوحة!

بدأ المعرض الذي ضم مجموعة من الصور تعرض لأول مرة عن أهوال المذبحة البشعة لأطفال ونساء يسبحن في دمائهن، في مشاهد تنوح لها القلوب، التفت حشود الطلبة حول المعرض، الذي تحول إلى معرض جنائزي من نحيب للطلبة وبكاء للطالبات، وهم يشاهدون رأى العين وحشية إسرائيل تجاه أفراد مدنيين أبرياء، ودارت مناقشات ساخنة بين الطلبة حول قضية الصراع العربي الإسرائيلي.

* * *

ازداد عدد الأعضاء المنضمين إلى الجمعية بعد هذا المعرض إلى المئات، وانضم أصدقاء عديدون إلى الجمعية من باقي الكليات ومن جامعات أخرى، بعد أن فتحت الجمعية قنوات اتصال معهم. ومنهم أسرة «الإنسان» في جامعة المنصورة، كان يرأسها «أيمن نور» فرَّج الله عنه سجنه وكربه[1]. وزارنا أيمن مع وفد من أسرتهم أكثر من مرة. وبدا أيمن كما الفلاح الفصيح الذي ظهرت لديه سمات الزعامة مبكرًا، فكان يحضر لقاءاتنا بالبدلة الرسمية كاملة، يختار ألفاظه بعناية، وينفذ خططنا التي وضعناها سويا بدقة شديدة، ومنها ترتيبنا لإقامة معارض عن اللائحة الطلابية، كل في كليته، وعند ساعة الصفر المتفق عليها، تندلع المظاهرات في نفس اللحظة بجامعتي القاهرة والمنصورة.

* * *

اختتم معرض المذبحة بإقامة ندوة، حضرها آلاف الطلبة من جامعات: القاهرة، الأزهر، عين شمس. أدارها الدكتور يحيى الجمل، وتحدث فيها الدكتور صلاح عامر أستاذ القانون الدولي محللا الوضع بطريقة قانونية هادئة، مما أثار حفيظة الطلبة الذين

---

(١) تم الإفراج عن أيمن نور قبل الانتهاء من طباعة هذا الكتاب، وتحديدا في شهر فبراير بقرار الإفراج الصحي من النائب العام.

كانوا في ذروة الانفعال والغضب، مما رأوه في صور المعرض، فاحتدوا بعصبية في حوارهم، وهتف بعضهم ضد الأحاديث المنمقة وزيف وعود السياسيين. فغضب الدكتور صلاح عامر، وخرج منسحبًا من الندوة. واستمر الدكتور يحيى الجمل يحاور الطلبة، مستوعبًا حماسة الشباب وثورتهم.

اغتيال الدكتور

لا أذكر أي دكتور في ذاك الوقت أثر في تشكيل وجداني، كما أثر الدكتور رفعت المحجوب، فهو صاحب عقل مفكر ومحلل، ولسان ناقد لاذع مصحوب بخفة ظل ساخرة، كان من أكثر أساتذة الكلية حماسًا للموقف الطلابي، فكان يقضي نصف المحاضرة ينتقد الحزب الحاكم، وسياسة الانفتاح التي كرسها الرئيس السابق أنور السادات، كان يصفها بسياسة «انفتاح السفن أب»! التي جلبت على الاقتصاد المصري الخراب، وساندت القطط السمان على نهب الملايين، وأنهكت سواد الشعب المصري بالفقر والبطالة، كان المدرج يرتج بتصفيق الطلاب الحاد للدكتور[١].

ورغم إعجابي بحسه النقدي اللاذع وشجاعته في قول الحق، إلا أنه تسبب لي في حالة إحباط بعد ذلك بعامين، حين تم تعيينه رئيسًا لمجلس الشعب ووافق على التعيين عام ١٩٨٤.

اختلفت معه بلا شك، لكني حزنت وبصدق حين سمعت خبر اغتياله[٢] عام

(١) ولد الدكتور رفعت المحجوب في ٢٣ إبريل عام ١٩٢٦ بقرية الزرقا التابعة لمحافظة دمياط، وتخرج في كلية الحقوق جامعة القاهرة عام ١٩٤٨، أكمل دراساته العليا حتى حصل على الدكتوراه في الاقتصاد عام ١٩٥٣. وتدرج في الوظائف الأكاديمية، حتى أصبح عميدا لكلية الاقتصاد والعلوم السياسية. تدرج في العمل السياسي ليتولى أمانة الدعوة والفكر بالاتحاد الاشتراكي العربي، ثم أمينا أول له ثم أمينا للجنته المركزية.. إن إيمانه بالقومية العربية والعدالة الاجتماعية وشخصيته القوية جعلت منه رجلا يحسب له ألف حساب.

(٢) عند فندق سميراميس، كان على موكب المحجوب، أن يهدئ من سرعته حتى ينحرف في اتجاه الكورنيش في طريقه إلى الميريديان.. في لحظات خاطفة، ظهر فجأة أربعة شباب، لا تزيد أعمارهم على ٢٥ سنة،

١٩٩٠. تلك المأساة هزت قناعتي وجعلتني أومن بأن عمليات الاغتيال ليست إرهابا كما يطلقون عليها، إنما هي درجة أحقر من ذلك، حيث تعتلي مرتبة الخِسة والغدر.

قيلت عن اغتياله أسباب عديدة، منها أنه نُسب إليه وصف القطط السمان، في إشارة واضحة منه للفساد الذي استشرى، ومنها أنه تخطى مرحلة التعبيرات البلاغية إلى مرحلة المواقف البرلمانية والسياسية. فقبل اغتياله بنحو عامين وبالتحديد في فبراير ١٩٨٨ نشبت مواجهة بينه وبين وزير السياحة في ذلك الوقت فؤاد سلطان، الذي كان أول من نادى بالخصخصة تحت قبة البرلمان، بسبب هدم وبيع أرض فندق سان ستيفانو في الإسكندرية.. وقال وهو رئيس لمجلس الشعب: «اليوم حنسمح ببيع الفنادق، بكره نسمح ببيع المصانع والشركات والمستشفيات!!».. وقد كان!!

ومنها أنه لم يكن المقصود بالاغتيال، إنما كان المقصود شخصية سيادية أخرى. وهو ما أقره أعضاء الجماعة الإسلامية الذين قبض عليهم لتورطهم في اغتياله.. بأن هدفهم كان وزير الداخلية عبد الحليم موسى انتقاما لمقتل أحد زعمائهم وهو «الدكتور علاء محيي الدين» بواسطة رجال الأمن. لكن الصدفة ساقت مرور موكب الدكتور رفعت المحجوب بدلًا منه، رحمة الله عليه.

يركبون دراجتين بخاريتين، ويحملون أسلحة آلية، سارعوا بحصار السيارتين، ثم ترجلوا وراحوا يطلقون النار على من فيهما، بلا رحمة.. ومن بين ٤٠٠ طلقة خرجت من أسلحتهم، استقرت ثمانون طلقة في جسد الدكتور رفعت المحجوب وحارسه الشخصي، الجالس إلى جواره المقدم عمرو سعد الشربيني، وسائقه كمال عبد المطلب، وموظف بمجلس الشعب هو عبد العال علي رمضان.

نفذت العملية بدرجة عالية من الاحتراف، استقل الجناة الموتوسيكلين، وهربوا في الاتجاه المعاكس لحركة المرور، إلا واحدًا منهم لم يتمكن من اللحاق بهم، فأجبر سائق تاكسي على الركوب معه.. وعند إشارة فندق رمسيس هيلتون نزل شاهرا سلاحه، فحاول بعض المواطنين الإمساك به، إلا أنه استمر يطلق النار، واستغل زحام منطقة المول التجاري للفندق، وتسلل منها إلى خبايا المنطقة العشوائية القريبة واختفى.

سلاح الفن

الفن ليس حسا ورؤى جمالية تُمتع المتلقي له وفقط، بل هو سلاح من أخطر أنواع الأسلحة؛ لأنه يعمل في منطقة العقل، لتغيير مفاهيم وتنويرها، أو لتغييب عقول وتسفيهها.. هذا هو مفهوم الفن لدى أعضاء جمعية الدراسات، وهو ما دفعنا إلى تنظيم لقاءات فنية، والحرص على مشاهدة كل عمل فني ذي هدف راق.

ورغم أن أي عمل فني يحمل رسالة وقضية ضد الآخر يكون له تأثير ما، إلا أن تأثيره يكون أشد وأقوى إذا ما طرحه الآخر بمنطق نقد الذات. وهو ما حدث في فيلم (Hanna k) عام ١٩٨٣ الذى تبنى فيه الغرب القضية الفلسطينية ولأول مرة بتعاطف إنساني وقانوني، بإدانة الاحتلال والمستوطنات الإسرائيلية. وبالطبع حرصنا على مشاهدة هذا الفيلم، الذي ذاعت شهرته بعد حضورنا وهتافنا بعد نهاية العرض، ونحن نشدو بأغنية الشيخ إمام:

يا فلسطينية والبندقاني رماكو بالصهيونية

تقتل حمامكو في حداكو

يا فلسطينية وأنا بدي أسافر حداكو

ناري في إديه.. وإديه تنزل معاكو

على رأس الحية.. وتموت شريعة هولاكو

يا فلسطينية والغربة طالت كفاية

والصحرا أنّت م اللاجئين والضحايا

والأرض حنّت للفلاحين والسقاية
والثورة غاية والنصر أول خطاكو
يا فلسطينية والثورة هي الأكيدة
بالبندقية نفرض حياتنا الجديدة
والسكة مهما طالت وبانت بعيدة
مدّ الخطاوي هُوَّ اللي يسعف معاكو
يا فلسطينية فيتنام عليكو البشارة
بالنصرة طالعة من تحت ميت ألف غارة
والشمعة والعة والأمريكان بالخسارة
راجعين حيارى عقبال ما يحصل معاكو

* * *

في العام التالي قدم الفنان دريد لحام مسرحية «كأسك يا وطن»، التي ذاع صيتها في أرجاء الوطن العربي، لما تحمله من رسالة مشحونة بالمشاعر الوطنية النبيلة. وأصبح الفنان دريد لحام يمثل قيمة فكرية وفنية كبيرة للشباب العربي، ولهذا حين علمنا بخبر وصوله القاهرة لعرض فيلم «الحدود» في مهرجان القاهرة السينمائي، تجمع أعضاء الجمعية لحضور الفيلم، الذي نال إعجابنا جميعا لطرحه ألم وأمل الشعب العربي في تحقيق الوحدة العربية. وبمجرد انتهاء العرض قام ياسر عبد الجواد وهتف:

– كسر كسر الحدود.. لأجل ما فلسطين تعود.

توالت هتافاتنا وتحولت دار العرض إلى احتفالية، أذهلت بطل الفيلم الفنان دريد لحام وجميع الحضور، وانتهز أعضاء الجمعية الفرصة ودعوه لحضور ندوة بالكلية.

ولبى الفنان دريد لحام الدعوة، وأقمنا الندوة في قاعة المسرح، الذي احتشد بأكثر من خمسة آلاف طالب، ملأوا المسرح عن آخره واصطفوا على أدراج سلالم أدوار المبنى الأربعة.

هذا اليوم أعاد تسليط الضوء على مسرح كلية الحقوق، وانطلق الشباب الفنانون يبدعون على خشبته أعمالاً رائعة.

المحامي الفنان

خالد طلعت من يومه محتار بين ثلاث: يبقى محامي ولّا سياسي ولّا فنان. وما صنع تلك اللخبطة في حياته، هو عشقه وانشغاله بالثلاث في الوقت ذاته، منذ أن شب عن الطوق وحتى يومنا هذا. ففي المرحلة الثانوية تعلم السياسة على أيدي مجموعة من الناصريين، منهم: حسين عبد الغني، جمال فهمي، عبد الحليم قنديل، دينا الخواجة، ضياء رشوان. كان هؤلاء يديرون «رابطة أبناء الجيزة» التي قدمت للشباب خدمات تعليمية وفصول تقوية مجانية، بجانب إلقائهم محاضرات تتعلق بالفكر الناصري وفلسفة الثورة والميثاق.

وبدأ خالد يمارس الفن منذ اليوم الأول لدخوله كلية الحقوق. وعلى خشبة مسرحها تعرف على أعضاء الجمعية. وشجعته الجمعية على خوض انتخابات اتحاد الطلبة عام ١٩٨٤، وبالفعل نجح خالد وحصل على منصب أمين اللجنة الفنية. بعد أن خضنا حربًا ضروسًا. ففي كل عام كنا نتقدم لانتخابات اتحاد الطلبة، يقوم الأمن من أولها بشطب القائمة التي نتقدم بها، وعقبال ما نقدم شكوى وتظلم وينظر فيهما، تكون الانتخابات خلصت!

لهذا كان فوزنا بأمانة اللجنة الفنية يستحق احتفالا مناسبا، فأعددنا حفلا جميلا أفرح قلوبنا وأسعد خالد. لكن ما لم يسعده ونكد عليه حياته، احتفال آخر لمجموعة ناصريين من خارج الجامعة. فلقد دعا عبد الصمد الشرقاوي وهو ناصري قديم، كلا من خالد وياسر حسن لحفلة صغيرة في حديقة الأورمان، حضرها أصدقاء عبد الصمد، أكلوا الجاتوه وشربوا الساقع. وبعد أن انتهت الحفلة عاد كل منهم إلى بيته سالما.

لم تمض فترة طويلة، حتى فوجئ خالد بقوات الأمن تقتحم منزله بالجيزة وتلقي القبض عليه. ووجهت نيابة أمن الدولة له تهمة الانضمام إلى تنظيم ناصري سري والتخابر مع ليبيا، بقيادة المتهم عبد الصمد الشرقاوي، وكان دليل الاتهام المقدم ضد خالد فيلم فيديو، فوجئ خالد حين عرضوه عليه بأنه فيلم لحفل حديقة الأورمان!!

اعتقل خالد لمدة شهرين ونصف في سجن استئناف باب الخلق، التقى هناك بكل المتهمين في التنظيم ومنهم ياسر حسن، د. رفعت سيد أحمد، عبد العزيز موافي. الذين قضوا فترة اعتقال عصيبة، خفف من وطأتها زيارة أعضاء الجمعية لهم يوميا، والتحدث إليهم من خلف شبابيك الزنزانة، كما رفع من معنوياتهم إرسال الكلية ممثلين عنها، وهما الدكتور أحمد البرعي والأستاذ حسن الخشاب مدير رعاية الشباب.

حتى صدر قرار إحالة التنظيم إلى المحاكمة، بأسماء كل المتهمين ما عدا أسماء: ياسر وخالد وموافي. عاد الثلاثة إلى الجامعة وسط فرحة زملائهم، لكن تلك المرة رفض خالد رفضًا باتًا، قبول أي دعوة للاحتفاء أو الاحتفال به!

كتيبة مسرح حقوق

أنجب مسرح حقوق كثيرًا من نجوم الفن والسينما اليوم.. فبعد فوز خالد طلعت بمقعد أمين اللجنة الفنية، اشتعل مسرح حقوق بالنشاط، وشمر فنانونا عن سواعدهم، واشتركوا في مسابقة الجامعة بمسرحية «العادلون» وأبطالها هم: خالد طلعت، خالد الصاوي، خالد صالح، أشعار: أحمد عبد الله، ونجحت المسرحية نجاحًا باهرًا.

كان مسرح كلية التجارة هو المنافس الحقيقي لنا، حيث دخل المسابقة بمسرحية «رسول من قرية نميرة» ومن أبطالها: هاني رمزي، محمد شومان، إخراج: صلاح عبد الله، تلحين وعزف: علاء بسيوني. ورغم أن مسرحيتنا كانت أفضل من مسرحيتهم، إلا أن اللجنة قررت فوز مسرحية تجارة بالمركز الأول وحقوق بالمركز الثاني، وذلك لأن أبطال مسرحيتنا أضافوا مشهد المنصة واغتيال السادات في المسرحية!

وتوالى إنتاج كتيبة مسرح حقوق، بمسرحيات رائعة مثل «الخطاب» و«الرجل الذي فكر لنفسه»، و«المخططين» أخرجوها بأقل تكلفة ممكنة، فكانت أخواتهم تساعدنهم بحياكة الملابس وأمهاتهم ترسل لهم الأكل من البيت، بل ومن علب السمن الفارغة صنعوا إضاءة للمسرح!

ومن كتيبة مسرح حقوق رغم كونهم من كليات أخرى، ظهر خالد يوسف، الذي كان طالبا في كلية الهندسة جامعة حلوان، واستطاع أن ينجح في الوصول إلى رئاسة اتحاد الطلبة في كليته. وكذلك محمد هنيدي، الذي كان طالبا بالكلية مدة سنتين، ثم رسب وفُصل من الكلية، والتحق بمعهد الفنون المسرحية. ومحمد سعد، ولكن له قصة أخرى طريفة.

في كل عام كانت الجمعية تنظم حفلا فنيًا غنائيًا، تشدو فيه بأحلى الأغاني، مثل «ونتظاهر أنا وأنت ويعلا الصوت» تأليف خالد الصاوي، و«لا تسأليني» غناء المبدع ماهر عبيد، الذي حاز على لقب مطرب الجامعة لصوته وغنائه الرائع. وظهرت المواهب في الغناء والتلحين، منهم: مريم، مها البدري، إيمان صلاح، ممدوح مداح، معز الديباوي، حسن يوسف. وغيرهم كثيرون.

الكاتب والشحات

بدأت الجماعات المتحدثة باسم الدين تعاود الظهور مرة أخرى، يساندها عميد الكلية وقتها الدكتور نعمان جمعة، الذي يبدو أنه أراد الاستقواء بهم أمام التيار الناصري، فبدأت عناصر تلك الجماعات تثير في أوساط الطلبة أفكارها عن تحريم الفن والتمثيل وكل من يعمل في المسرح!! حتى إنهم قاموا بتهشيم كراسي المسرح، وأغلقوه بقفل حديدي كبير، وكتبوا عليه: مغلق للتجديد والإصلاح. ولكن تلك الحيلة لم تنطلِ على شباب الجمعية، فقاموا بفتح باب المسرح «بطفاشة» وبدأوا بروفات مسرحية «الكاتب والشحات».

قدمت تلك المسرحية على مسرح الكلية مرتين: الأولى عام ١٩٨٤ والثانية عام ١٩٨٩، في الأولى كانت البطولة لخالد صالح وهشام منصور، وفي الثانية كانت البطولة لمحمد سعد، طارق عبد العزيز، وإخراج هشام منصور. وقد أصر الطلبة على تنفيذ هذا العرض بأي إمكانات متاحة، متحدين سطوة الجماعات، فكانوا يجمعون القرش على الجنيه، ويصممون الملابس التي ساعدتهم هدى عبد الوهاب على حياكتها، وأعمال الديكور التي قام إيهاب رفعت بعمل نجارتها بنفسه، وتطوع بعض أعضاء الجمعية بالتمثيل في أدوار المجموعات، وبات الشباب في البروفات أياما وأسابيع، يسدون جوعهم بأرغفة العيش والفول والطعمية، وكلل تعبهم نجاح باهر للمسرحية، وقررت رعاية الشباب تقديم جوائز وشهادات تقدير لطلبة الكلية المشاركين في العرض. وهنا اكتشفوا سرًا كبيرًا!

حين بحثت رعاية الشباب عن أسماء الطلبة وعناوينهم في الكشوف، توقفوا عند اسمين لم يجدوا لهما أي أثر، وهما محمد سعد وإيهاب رفعت، وبعد البحث والتنقيب، اكتشفوا أن كلا من سعد وإيهاب ليسا من طلبة كلية الحقوق، فالأول طالب بأحد المعاهد، والثاني طالب بآداب عين شمس!

الصعيدي

مع عودة نشاط الجماعات المتحدثة باسم الدين، لم يكن نشاطهم ظاهرًا داخل الحرم الجامعي فقط؛ بل كان أكثر وضوحًا في المدينة الجامعية، التي كان ينزل بها أغلب أعضاء الجمعية، لكونهم مغتربين من مدن بورسعيد والإسماعيلية والصعيد، وبدا الصراع بين الطرفين جليًا. الجماعات تحاول فرض سيطرتها وسطوتها، وأعضاء الجمعية يثبتون ويرسخون أقدامهم كقوة وطنية تكتسب يوما بعد يوم ثقة الطلاب.

في البداية حاولوا استخدام أسلوب الترهيب، بأن يمروا على حجرات طلبة المدينة الجامعية، التي قام أغلبهم بكسوة حوائطها المهشمة بورق جرائد وصور لمجلات، ويصروا على انتزاع تلك الصور وتقطيعها. ما إن هموا بفعل ذلك مع أعضاء الجمعية، حتى أوقفهم «سيد عبد الحافظ» وهو من أبناء الصعيد، مولدا وجسدا وعقلا، مولدا: مولود في المنيا، وجسدا: طول بعرض برأس ضخم، وعقلا: الصرامة والعناد. فقال لهم:

– اللي هيمد إيده على الصور هدبحه!! انتو عارفين دماغ الصعايده!!

لم أفراد الجماعة الدور، وبحثوا عن مدخل آخر يحققون من خلاله مآربهم. فبدأ شيخهم «عبد المعطي»، يطرق أبواب حجراتهم بعنف شديد، يدعوهم للاستيقاظ لصلاة الفجر. اعتاد أعضاء الجمعية أن يؤمهم شخص منهم، صاحب صوت رخيم في قراءة القرآن، لكن الجماعات رفضت أن يؤم الصلاة سوى شيخهم عبد المعطي، وافق أعضاء الجمعية ووقفوا خلفه أول يوم للصلاة، فكاد صوته النشاز يصُم آذانهم. مساء أجمعوا على قرار تغيير هذا الإمام وأبلغوا الجماعات بقرارهم، إلا أنهم رفضوا أي جدال بهذا الشأن، وتمسكوا بإمامهم في تحدي من يريد فرض سيطرته بالإكراه.

طفح عقل الصعيدي عنادا وقرر أن يقطع دابرهم، فتفتق ذهنه عن فكرة لئيمة، وكتب ورقة علقها على باب حجرتهم منعت تلك الجماعات أن تقترب منهم نهائيا. كتب فيها:

- احنا عند الست سهير زكي في كازينو الليل!

ونتظاهر

أنا وأنت ويعلا الصوت

إزاي شبابنا يقوم وياخد دوره
من غير صراخ يئذيه ويجرح زوره
يا هلترى أحسن له يقعد ساكت
أو ينترك ولو خرج عن طوره؟!

عجبي

صلاح چاهين

ثورة الطلبة

في عام ١٩٨٤ تولى الدكتور فتحي سرور عمادة كلية الحقوق، فبعث في طلب لقاء أعضاء جمعية الدراسات العربية، واختير وفد يمثل الجمعية، قابلهم الدكتور فتحي سرور بابتسامته المعهودة، وبكلمة قصيرة حول دوره المنوط به في قيادة الكلية، وأحلامه للطلبة في الرقي بالنظام العام وبالمناهج وقاعات المحاضرات، وكيف أنه شخصية متفهمة لأحلام الشباب ودمهم الحامي والمخلص لقضايا وطنهم، ثم وجه الدكتور سرور إصابة مباشرة في حديثه موضحًا أن هذا لن يتحقق إلا بمساندة الجميع وبالحفاظ على الأمن والسلم داخل حرم الكلية. وفي رفق ومودة طلب منهم الدكتور سرور أن يبلغوه فقط! بموعد أي مظاهرة ينوون القيام بها، حتى يتسنى له الترتيب الأمني اللازم!

* * *

بدأت الجمعية في الإعداد لمعرض حول لائحة ١٩٧٩ [1] ثم الخروج بمظاهرة للمطالبة بإلغائها. وطرحت الفكرة على أعضاء «نادي الفكر الناصري»[2] الذي كان

(١) نصت لائحة ٧٩ الطلابية على منع تكوين اتحاد طلاب الجمهورية، وعلى تعيين رواد من الأساتذة للجان الطلابية، وإعطاء دور كبير للحرس الجامعي للتدخل في الشئون الطلابية. فاعتبرها الطلبة لائحة قيد على حريتهم في التعبير عن آرائهم وعلى ممارستهم للأنشطة الطلابية.

(٢) يعود تاريخ نادي الفكر الناصري إلى فترة السبعينيات، حيث كان يعد أحد أنشط الكيانات الطلابية داخل الجامعات المصرية. ومن أبرز قيادات النادي على مدار سنوات من تاريخه والذين أثروا الحياة السياسية والاجتماعية، سمير عزب، سيد غريب، حمدين صباحي، عبد الله السناوي، أحمد الصاوي، كمال أبو عيطة، محمد السعيد إدريس، سامح عاشور، نجلاء بدير، محمد حماد، تهاني الجبالي، إبراهيم الصياد، تهاني رياض، سهام نجم، آمنة زكي، أمل محمود، محمد منيب، وفاء المصري وغيرهم كثيرون.

يرأسه في تلك الفترة عمرو الشوبكي. لم تلق الفكرة استحسان أعضاء النادي، حيث اعتبروا أن موضوع اللائحة ليس على بال الطلبة، فضلا عن أن فشل المظاهرة أكبر من احتمال نجاحها، خاصة بعد فترة ركود طويلة عاشها الطلاب داخل الجامعة.

ولكن الجمعية شرعت في تنظيم معرضها، وما حدث بعد إقامته فاق كل التوقعات. فحشود الطلبة أكدت أن موضوع اللائحة، يهم كل الطلبة ويُعد مطلبًا ملحًا لهم.

على هامش المعرض نظمت الجمعية ندوة حاضر فيها الدكتور فتحي سرور، في بدايتها اكتظ المدرج عن آخره بطلبة وأساتذة من جميع الكليات، ومنهم طلبة كلية الآداب ومعهم الدكتور أحمد شمس، حين رأى الدكتور فتحي سرور ذلك طلب إخلاء المدرج من الطلبة غير الحقوقيين. هاج الطلبة معلنين أن إلغاء اللائحة مطلب كل طلبة الجامعة، ومدافعين عن حق الدكتور شمس في حضور الندوة. كان غمري وأحمد عبد المعطي يقفان في الصفوف الأخيرة من القاعة وسمعا همهمات وتوتر بين الطلبة ازدادت حدتها بعد إصرار الدكتور سرور على موقفه. فكادت أن تفشل الندوة، فهتفا هتافًا يُجمع الطلبة على موقف واحد:

- آداب وحقوق وكل الجامعة.. حركة طلابية واحدة..

ردد الطلاب الهتاف، ثم انطلقوا كالبركان من خارج المدرج في مظاهرة ضمت آلاف الطلبة، جابوا كليات الجامعة وهم يهتفون:

- فتحي سرور يا فتحي سرور اللايحة ضد الدستور..

- حسن حمدي يا حسن بيه.. الكتاب بعشرة جنيه..

بعد صدور لائحة ٧٩ توقف النشاط السياسي داخل الجامعة، وبالتالى توقف النادي أيضا عن مزاولة أنشطته وخمدت حركته لفترة طويلة.

ولكن في بداية الثمانينيات عاد النادي، لمزاولة نشاطه داخل جامعة القاهرة، لكن في حيطة وحذر شديدين، لتلمس الوضع الأمني. غير أنه نشبت خلافات فيما بينهم، أدت إلى انقسام النادي فريقين أحدهما بقيادة جمال عبد الناصر عويس وأسامة طلعت في كلية التجارة، والثاني بقيادة عمرو الشوبكي في سياسة واقتصاد. النادي الأول اتسم بمحدودية انتشاره وقلة عضويته، أما النادي الثاني فقد قام بتنشيطه عمرو الشوبكي مع بعض الطلاب الذين أصبح أغلبهم من الصحفيين البارزين فيما بعد، ومنهم: إبراهيم عيسى، إبراهيم منصور، أحمد مراد، محمد مصطفى، صلاح عزازي، ياسر رزق، حاتم رزق، حمادة الحسيني، هيثم عبد الفتاح، إيهاب الزلاقي، وغيرهم.

- مشاكلنا كتيرة كتيرة.. وادي أول المسيرة..

- عاوزين لايحة حرة.. دي العيشة بقيت مرة..

- عاوزين لايحة طلابية.. طلابية مية المية..

واستمرت المظاهرات أسبوعًا كاملًا، وفعل الترتيب السابق مع باقي الجامعات فعلته فانطلقت المظاهرات في جامعات: الإسكندرية، عين شمس، حلوان، المنصورة.

وخرجت مانشتات الجرائد في اليوم التالي «رفض عميد الحقوق ورئيس الجامعة الحوار فبدأت المسيرة»، ملقين بمسئولية اندلاع المظاهرات على عاتق الدكتور سرور، مما دفع الدكتور إلى الوقوف أمام الكلية موجها حديثه إلى أعضاء الجمعية يسألهم في طيبته المعهودة:

- بقى أنا يا أولاد السبب في المظاهرات؟ أنا؟!

* * *

كانت الجمعية حريصة على تنسيق جهودها مع التكتلات الوطنية داخل الجامعة. فقد فتحت حوارا متصلًا مع أسرة «الوطن» لتشكيل «لجنة طلابية واحدة». تكونت أسرة الوطن من مجموعة طلبة ماركسيين برئاسة الراحل هشام مبارك، وضمت في عضويتها العديد من طلبة الحقوق ومن كليات أخرى ومنهم: عزة كامل، فادية الغزالي حرب، عزة شلبي، الراحل محمد حاكم، حجاج نايل، ماجدة أباظة، الراحلة سناء المصري، محمد عبد المنعم. حدث خلاف بين الجمعية والماركسيين، لإصرار الماركسيين على اسم «اللجنة الوطنية للطلبة»، الذي يمثل لهم مرجعية تاريخية نسبة إلى «اللجنة الوطنية للعمال».وبعد مناقشات ومناهدات توصلا إلى اسم «اللجنة الوطنية للدفاع عن حقوق الطلاب»، مهمتها التنسيق والتشبيك بين كل الجامعات المصرية من أجل الدفاع عن حقوق الطلاب.

واقتربت الامتحانات من الأبواب والمظاهرات لا تزال على أشُدها. عندئذ وقف محمود عبد الحميد وسط المتظاهرين يخطب، كعادته متحمسًا والعروق تنفر من جبهته ورقبته:

- قادرون على الاستمرار.. نعم قادرون.. قادرون على التحدي.. نعم قادرون.. قادرون على النجاح.. نعم قادرون.. لهذا سنوقف المظاهرات على أن نعاود بعد الامتحانات.

رائد الجمعية

الدكتور «يحيى الجمل» رجل قانوني من الطراز الأول، بدأ حياته المهنية بدأب شديد، تمرس في الحقل السياسي منذ كان عضوا في الاتحاد الاشتراكي والتنظيم الطليعي فترة الزعيم جمال عبد الناصر، واستمر في ممارسة العمل العام من خلال تبنيه للعمل الطلابي في الجامعة ورئاسته لجمعية الدراسات العربية. ولكن في ذلك الوقت حدث أمر أصاب أعضاء جمعية الدراسات بحالة غضب عارمة، بعد انضمام الدكتور الجمل إلى الحزب الوطني، فثاروا بفورة وبجرأة يحسدون عليها وأصدروا بيانا وزع في كل مدرجات الكلية:

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾

صدق الله العظيم

لهذه الأسباب افترقت السبل:

لأننا في زمن أصبحت فيه الخيانة وجهة نظر، والعمالة رؤية سياسية، ولأننا في زمن انتعشت فيه تجارة الجثث واللبن المسمم والدجاج الفاسد، ولأننا في عصر صارت فيه الوطنية عمالة والثورة خيانة، ومن يتمسك بحرية الوطن وكرامة المواطن مجنونًا.

ولأننا مجانين في عالم العقلاء، لذا لم يصبنا الهلع عندما هرع الدكتور يحيى الجمل إلى الحزب الوطني الديمقراطي، فالتاريخ قد علمنا - نحن أبناء هذا الوطن الأبي - حقيقة بسيطة، أن الوطنية ليست مجرد شعار، ولكنها فكر وحركة، حالة مستمرة لا تنتهي إلا بموت الإنسان، وعندها إما أن يكتب بحروف مضيئة في سجلات التاريخ أو يلقى في مزبلته.

ولأننا نعلم أن المناضل مشروع خائن حتى يموت، فإننا لم نحزن عندما انضوى أستاذنا الجليل تحت راية الحزب الوطني. ولكن السؤال الآن.. لماذا انضم من هو ضد «كامب ديڤيد» إلى حزب «كامب ديڤيد»؟!

أستاذنا الجليل، نحن أبناء جمعية الدراسات العربية قد اخترناك رائدا؛ لأننا كنا معا في خندق واحد.. طلاب وطنيون يريدون الخلاص لأمتهم العربية من براثن التخلف والاستعمار والتبعية، ساعون إلى تحقيق حلم الوحدة العربية على طريق الحرية والاشتراكية والوحدة، ولأنك مفكر قومي ناضل وكافح من أجل هذه القضية.

قد نتفق معك أستاذنا الجليل في مقولتك: «إن الخلاف في الرأي لا يفسد للود قضية»، ولكن ألا تتفق معنا في أن الردة عن المبادئ والتملص منها يفسد للود كل قضية؟

إنك باختيارك صفوف الحزب الوطني، قد خرجت من خندق مبادئنا، ووقفت بين صفوف أعداء الشعب، لذا وجب علينا أن نقولها لك، نحن ضدك، بل نحن ضد كل مُدعي الوطنية والناصرية، الذين يريدون الانضمام للحزب الوطني الديمقراطي.

إلى جماهير الطلاب.. إلى كل الوطنيين..

حرصا منا على نقائنا الوطني، واستمرارا في طريق نضالنا المرسوم، من أجل الحرية والاشتراكية والوحدة، واستمساكا بمبادئنا التي آمنا بها وإلى الأبد..

قررنا نحن أبناء جمعية الدراسات العربية، أن يفترق طريقنا عن الذي سلكه الدكتور يحيى الجمل، ونقدم على هذه الخطوة واضعين نصب أعيننا، مغبة هذا الأمر، وعواقبه؛ ومنها حل الجمعية، ولكننا لا نسعى لشرعية نكسبها من إدارة الجامعة، لأن شرعيتنا نستمدها من إخواننا الطلاب، لذا لن نعبأ بتحديات الإدارة وسنظل نعمل بالطلاب ولهم، وجدنا رائدًا معنا أو لم نجد.

وعاش كفاح الطلاب على طريق الحرية والاشتراكية والوحدة.

جمعية الدراسات العربية

النظّارة أهم

كان لأعضاء الجمعية وفقا لهيئتهم البنيوية أدوار محددة في المظاهرات، فمنهم من كان قصير القامة؛ فهذا دوره أن يُحمل على الأكتاف ليهتف. ومنهم من كان عريض المنكبين؛ فكان دوره أن يحمل القصير على أكتافه.

ووفقا لهذا التقسيم كان «حشمت عبد الحميد» يبدو كالبودي جارد، تنفر عضلاته من ذراعيه كما تنفر أيضا عضلات من عقله، فهو يُقدم على الفعل أولا، ثم بعد ذلك يفكر لماذا فعل ما فعل، ولك أن تدرك حجم الكارثة لو تدخل حشمت بيده في مشاجرة ما قبل أن يفكر! لهذا كان أعضاء الجمعية يتعاملون معه برفق شديد، لكنهم في الوقت ذاته، يعتمدون عليه بقسوة في حمل هتيفة المظاهرات أصحاب الوزن الثقيل!

وممن كانوا (طول بعرض) أيضا غمري، لكنه كان ضعيف النظر، يضع نظارة طبية سميكة يحافظ عليها كأغلى ما يملك، فبدونها لا يرى.

وفي إحدى المظاهرات، كان غمري يحمل على أكتافه شخصًا ما يهتف، وأنا أسير وراءهما أردد الهتافات، واشتد حماس الطلبة وخرجت المظاهرة من أبواب الجامعة، فتدخل الأمن المتربص أمام البوابة الرئيسية بسرعة لفض المتظاهرين، وكان أول من خرج من باب الجامعة مصطفى ياسين، هجم عليه أحد عساكر الأمن وطرحه أرضا يضربه بالعصا، وقع بصر حشمت على ياسين وهو مطروح أرضا، فنفرت العضلات بين ذراعيه ومن عقله، وجرى نحو العسكري مصوبا قبضة يده نحوه، وأدرك غمري النتيجة المتوقعة، وفي سرعة رهيبة قذف بالشخص الذي يحمله على أكتافه أرضًا، وجرى

في اتجاهها، ثم فجأة توقف كمن تذكر شيئا أهم، وعاد إليّ حيث أقف، ووقف برهة خلع فيها نظارته، وأعطاها لي قائلا:

- خلي بالك منها.

انطلق غمري يحمي مصطفى ياسين من العسكري، ويحمي العسكري من حشمت!

وقفت بعيدا قلبي يتقطع على منظرهم، وهم في معركة حامية الوطيس! ولكني لم أجرؤ على تقديم العون أو حتى الاقتراب منهم، لا لشيء سوى أن أحافظ على النظارة!!

بدلة وكرافتة

كنا نجوب أرجاء الجامعة وكلياتها في إحدى المظاهرات، في حشد هائل يضم أكثر من عشرة آلاف طالب، ونهتف:

- ثور.. ثور يا شباب على ظلم الظالمين..

كان أعضاء الجمعية منتشرين هنا وهناك، ومحمود عبد الحميد لأنه من قصار القامة محمولا على أكتاف غمري، ورغم قصر قامته، إلا أن عظامه المكتنزة تمتلئ لحما، يعني «مدكوك»!

وغالبا ما نرى محمود في كل المناسبات، سواء أكانت رحلة أو ندوة أو حتى مظاهرة وهو في كامل هيئته الرسمية، بدلة كاملة وكرافتة، تنفر العروق بين حاجبيه وحنجرته، يهتف بأعلى صوته، حتى يُبح وتفقد حنجرته كل قوتها، وفي حماسة منقطعة النظير، ينسى كل من حوله، يصيح هاتفا ضد الظلم والمظلومين، يسب العميل والخائن، يضرب بقبضة يديه في الهواء، ويرتفع جسده هبوطا ونزولا مع كل هتاف.

وسار ركب المظاهرة يجوب أرجاء الجامعة مسافة طويلة، من كلية الحقوق مرورًا بكلية الآداب يهتفون.

- ارمي خوفك يا آداب.. ولا تعملي للائحة حساب.

وحين وصلوا إلى كلية التجارة، هتفوا:

- يا رفاقة في تجارة.. الغوا لائحة الإدارة.

وعند كلية الآثار هتفوا..

- يا آثار يا آثار.. يللا نلغي اللايحة العار.

- علِّي صوتك يا شباب.. والغي لايحة الإرهاب.

وحماسة محمود لا تهدأ، وحركته فوق أكتاف غمري لا تتوقف لحظة.

وفجأة توقف غمري، فتوقفت المظاهرة، اعتقادًا من الحشد أن ثمة تغييرًا في المسار، ثوانٍ والعيون تنظر إلى محمود وغمري.. ماذا سيفعلان، ونزل غمري بركبتيه إلى الأرض.. وأنزل محمود من على أكتافه، ثم صرخ في وجهه:

- حرام عليك ملخت دراعي.

وضحك الجميع ثم استكملوا المسيرة.

عضّة معطي

في مظاهرة قامت بها جمعية الدراسات العربية بمناسبة احتفالية «يوم الطالب العالمي» ٢١ فبراير، ولهذا التاريخ ذكرى يجب ألا ينساها كل طلاب مصر[1].

قررت الجمعية عدم خروج المظاهرة من أبواب الجامعة، واقتصارها على المرور

(١) في عام ١٩٤٦ أصدرت «اللجنة الوطنية للطلبة والعمال» التي كانت تضم الطلبة المنتمين إلى الحزب الوطني القديم والوفد والأحرار الدستوريين والهيئة السعدية والكتلة الوفدية والإخوان المسلمين ومصر الفتاة وبعض المستقلين بيانا أعلنت فيه قرارها بأن يكون يوم الخميس ٢١ فبراير «يوم الجلاء»، ودعت إلى إضراب شامل، فتعطلت الأعمال العامة والمواصلات، وأغلقت المحلات التجارية والمصانع ودور العلم في جميع أنحاء البلاد. كما شارك طلاب الأزهر في هذه الحملة، فخرجوا بمظاهرة كبرى، اتجهت إلى ميدان الأوبرا، حيث عقد مؤتمر شعبي، اتخذت فيه قرارات بمقاطعة المفاوضات، وأساليب المساومة، والتمسك بالجلاء عن وادي النيل وإلغاء معاهدة ١٩٣٦. ثم زحفت المظاهرة إلى ميدان قصر النيل، حيث الثكنات البريطانية، واتجه قسم منها إلى ساحة عابدين، وكانت المظاهرات تسير في نظام تام دون جنوح نحو التخريب. وإذ ببعض السيارات العسكرية البريطانية المسلحة، تخترق الميدان وسط الجماهير فجأة لتدهس بعضهم تحت عجلاتها.

وفي الإسكندرية حدث صدام بين الجنود والمتظاهرين، سقط فيه ٢٨ من المتظاهرين قتلى وجُرح ٤٣٢ متظاهرا، وقتل جنديان بريطانيان، وجرح أربعة آخرون. في هذا اليوم كانت واقعة فتح كوبري عباس الشهيرة، حيث قامت قوات الاحتلال الإنجليزي بفتح كوبري عباس، الذي يمر على نهر النيل، وذلك أثناء سير جموع الطلاب من فوقه، مما أدى إلى وقوع عدد كبير من الطلاب في النيل وغرق الكثير منهم.

على أثر ذلك، أعلنت اللجنة الوطنية للعمال والطلبة يوم ٤ مارس١٩٤٦ يومًا للحداد الوطني العام على شهداء ٢١ فبراير، وتضامنًا مع الحركة الوطنية المصرية؛ وقع في نفس اليوم (٤ مارس) إضراب عام، في السودان وسوريا ولبنان وشرق الأردن.

كان لمذبحة ٢١ فبراير أثرها في الحركة الطلابية العالمية، فقررت اعتبار يوم ٢١ فبراير يوم التضامن العالمي، تكريماً لنضال الحركة الطلابية في مصر التي يشير إليها المؤرخ الفرنسي والتر لاكير بالقول: «لم يلعب الطلاب دورا في الحركة الوطنية مثل الدور الذي لعبه الطلاب في مصر».

بجميع الكليات، من أجل هدف محدد وهو التعريف بأهمية هذا اليوم التاريخي، واتخاذه كيوم فخر واعتزاز لجموع الطلبة، يستشرفون من خلال ذكراه ما يجب أن يقدموه لبلدهم في يومهم ومستقبلهم.

وبعد البدء في المظاهرة حدث موقف كوميدي، أعتقد أنه أصبح أيضًا يومًا تاريخيًا لمعطي! فقد جاءت مجموعة من الماركسيين منهم محمد زكريا ومحمد عبد المنعم وحجاج نايل، وأصروا على خروج المظاهرة من الجامعة للالتحام بالجماهير!

وقف عزت ربيع ومحمود قنديل وأحمد عبد المعطي يتناقشون معهم في عدم ضرورة خروج المظاهرة، وبدأ محمود قنديل يضحك ضحكته الشهيرة التي تبدأ بصوت خافت، ثم تعلو تدريجيا، مصحوبة بكركرة، منتهية بصوت كفرملة السيارة. ومع محاولة عزت بأن يجعل قنديل يتوقف عن الضحك؛ اعتقد زكريا أن قنديل يسخر منهم بضحكته، فتصلب في موقفه وازداد عنادًا، مما جعل معطي يخرج عن هدوئه قائلا لهما:

- اللي مش عاجبه ينسحب!

فما كان من زكريا إلا أن هجم على معطي وطرحه أرضا وجز بأسنانه في كتلة لحم بجسد معطي، في عضة رهيبة، أصابت معطي بالذهول. فأخذ ينطق بكلمات بصوت خفيض. قائلا:

- حوشوا العبيط ده عني.

وقف قنديل يضحك بكركرة، وعزت يضرب كفًا على كف، وهما يشاهدان معطي ملقى أرضا وزكريا من فوقه، دون أن يتحركا، انتظارا أن تنتهي الدعابة، إلا أن الانتظار طال ومضت فترة طويلة، تحول بعدها صوت معطي الخفيض، إلى صرخة مدوية:

- حوشوا المجنون ده عني! ده بيعض بجد، والله بيعض بجد.

وجروا يحملون جسد زكريا بعيدا عن معطي، الذي وقف في صعوبة متألما، وهو يمسك بموضع العضة، التي لا زالت آثارها في جسده حتى اليوم، رغم مرور ربع قرن عليها!

مين بركة؟

كانت المظاهرات تتألف من نسيج متعدد الاتجاهات، فمنهم المتحمسون المؤمنون بالقضية التي خرجت المظاهرة لأجلها، ومنهم العابرون بالصدفة فاستوقفتهم هتافات زملائهم، فوقفوا يشاهدون من بعيد، ومن ثم يمضون إلى حال سبيلهم، وآخرون عقولهم مغيبة تماما عما يحدث حولهم، إلا أن في داخلهم من الحماسة والوطنية التي تجرفهم للسير وسط خضم المظاهرة يرددون الهتافات في قوة وصمود. ومن هؤلاء كانت «علا عبد الرحمن» التي عادت لتوها من إحدى دول الخليج، حيث كان والدها معارًا هناك، وبالكاد بدأت تستقر في كليتها والمواظبة على حضور المحاضرات، حتى استوقفتها إحدى مظاهرات الجمعية، وجذبها الحماس الشديد الذي كان يهتف به ناصر أمين وهو محمول على أكتاف أحمد عبد المعطي.

في ذاك الوقت كانت الصحف تشن هجوما على إحدى قضايا الفساد الكبرى، المتهم بها رجل أعمال يمتلك مصنعًا للمياه المعدنية. وسارت علا خلفهم تردد الهتافات:

– بدل ما تدافعوا عن بركة.. دافعوا عن طلاب الحركة.

وفجأة وقفت علا تشد معطي من قميصه، وتجذب ناصر من قدمه وهي تصرخ:

– ناصر..ناصر.. استنى.

وجزع ناصر، واعتقد أن في الأمور أمورًا، ونزل عن أكتاف معطي، وتوقفت المظاهرة، وأعطى ناصر أذنه لعلا، لتلقي له بالنبأ المهم. ووجهت إليه علا فمها لتهمس له، في غموض وسرية، تزيد من حالة الترقب العام لما سيقال:

- ناصر.. مين بركة؟ و مين هم طلاب الحركة؟!

كتم معطي ضحكة مدوية، وكظم ناصر نفسه من شدة الغيظ، وجز على أسنانه وهو يعود للصعود على أكتاف معطي وهو يقول لعلا:

- بعدين يا علا بعدين.. هبقى أقولك مين بركة!! ومين هم طلاب الحركة!!

بين نارين

في هدوء شديد قالت غادة مجدي لمحمد يسري:

– وفيها إيه لما أراسل شاب من إسرائيل؟

قالتها غادة بنفس الطريقة التي تلقي بها جميع كلماتها، في نبرة هادئة مبتسمة رقيقة. فغادة بنت جاردن سيتي، تربت في أسرة مُحَافِظة إلى حد كبير، ولكنها في الوقت ذاته منفتحة على عالم الموضة والرحلات وخلافه، مما تشتهر به هذه النوعية من العائلات، التي وإن كانت لا تتميز بالثراء المادي إلا أنها تمتد بجذور أصيلة بالحسب والنسب.

وما إن سمع محمد كلمات غادة، حتى كاد أن يلطُم خدوده ويشق جيوبه! إلا أنه تمالك أعصابه بكل ما يملك، وصمت عن الحديث حتى تستكمل غادة وجهة نظرها:

– أنا طول عمري غاوية مراسلة، ومن ضمن الأصدقاء اللي اخترت أراسلهم واحد من إسرائيل، كان نفسي أعرف الشباب هناك بيفكروا ازاي؟ وممكن يعملوا إيه عشان السلام، وازاي يساعدوا الشعب الفلسطيني في قضيته، لكن كل أسئلتي لم يرد عليها أبدا، بل كان يرد عليها بأسئلة غريبة، زي إيه رأيك في أزمة التموين عندكو في مصر؟ وإيه أخبار الشوارع والمرور؟ بصراحة ابتديت أشك إنه مش مضبوط، فقررت قطع مراسلته تماما».

هنا أخرج محمد يسري الزفير الذي حبسه في صدره، وقبل أن يرد عليها بكلمة كانت المظاهرة قد اندلعت، والهتافات انطلقت من أفواه الطلبة، للتقابل مع قذائف القنابل المسيلة للدموع، وغادة تجري وسط شباب الجمعية تهتف.

والتقطت الصحف صور المظاهرة، وتصدرت صورة غادة صدر الصفحة الأولى، وهي تصرخ وتهتف.. انخفض صوتها وتحول إلى همس وهي تقف أمام والدها وهو يسألها عن الصورة وعما كانت تفعله في المظاهرة. وحاول الأب بحكمة نُصح ابنته بالابتعاد عن هؤلاء الطلبة المشاغبين، ليس من أجل مستقبلها فقط بل أيضا من أجل منصبه الوظيفي الحساس للغاية.

ورغم حديثه الجاف معها، إلا أنها قرأت ما بين سطور كلماته وصمتت.

حين رأيتها تسير في إحدى المظاهرات مجددًا، سألتها عن وضعها مع أبيها إن علم؟ وأكيد سيعلم بُحكم منصبه. إلا أنها هزت رأسها وهي تضحك:

- بابي خايف عليَّ، بس مستجدعني.

وأمسكت بيدي نسير جنبا إلى جنب نهتف في المظاهرة:

- مش هنخاف مش هنطاطي.. احنا كرهنا الصوت الواطي.

علم إسرائيل بخمسة جنيه

أثناء تحضيرنا للقيام بإحدى المظاهرات، كُلفت بمهمة قد تبدو سهلة للغاية في مظهرها لكن ما إن بدأت في تنفيذها حتى وجدتها مهمة جد عسيرة! وتتلخص المهمة في أن أقوم بشراء «بفتة» وهي نوع من القماش يباع في ذاك الوقت بسعر رخيص، ثم تفصيل هذا القماش كعلم إسرائيل. استطعت تدبير جنيهين، فتوجهت إلى محل «بنزايون» وكان محل قطاع عام طبعا قبل الخصخصة، وكان يعد من أهم وأرخص أماكن شراء الأقمشة، خاصة بالنسبة للطبقة محدودة الدخل، نظرا لبضاعته التي يبيعها بأثمان في متناول الجميع.

وطلبت من البائع ثلاثة أمتار من البفتة، مترين لون أزرق ومتر أبيض، ضحك البائع ضحكة عالية، ثم توقف أمام نظرة الاستغراب والخجل التي بدت على وجهي، وترفق بي وأخبرني أنه لا توجد بفتة ملونة لا أزرق ولا غيره، مفيش غير لون واحد، وهو أقرب إلى البيج، وتحيرت ماذا أفعل، وبادرني البائع وعرض عليّ نوعًا من القماش «لينوه»، ومنه جميع الألوان، ولكن ثمن ثلاثة الأمتار خمسة جنيهات، فصعقت حين سمعت المبلغ.

عدت إلى زملائي في جمعية الدراسات في اليوم التالي أستشيرهم، فرد عليّ ياسر مبتسما:

– يا ستي انتي أبوكي مسافر إعارة من سنين، يعني برجوازية، اتصرفي بقى واشتري القماش.

ورطتني كلمات ياسر أمام الزملاء، فعدت لأشتري القماش، وليس معي سوى جنيهين يعني يتبقى ثلاثة جنيهات، ومصروفي نفد من أول أسبوع في الشهر. بت ليلتي منكدة، أفكر كيف أتدبر المبلغ.

في الصباح الباكر توجهت إلى البوسطة ومعي دفتر توفير، كانت أمي قد فتحته لي كي تعلمني الادخار، ووضعت لي فيه عشرين جنيها. سحبت الجنيهات الثلاثة، وذهبت لاستكمال مهمتي فاشتريت القماش وأنا لا أعلم كيف سأخيطه، فلا علم لي بالخياطة من قريب أو بعيد، فتطوعت هدى عبد الوهاب بهذه المهمة.

وفي اليوم المحدد للمظاهرة أحضرت العلم، وبعد اندلاع المظاهرة بساعات، تجمهر الطلبة وسط صحن الكلية في شكل دائري، وأخرجوا علم إسرائيل، وأشعلوا فيه النيران، وهم يهتفون ضد ما تقوم به الدولة الصهيونية من مجازر للشعبين اللبناني والفلسطيني.

ووقفت أنظر إلى العلم وهو يحترق، وتحترق معه خمسة الجنيهات!!

ساري العلم

مشاعر غضب اجتاحت أعضاء الجمعية، حين سمعوا بخبر اشتراك إسرائيل في المعرض الصناعي الزراعي. وانطلق الغضب كقذيفة نحو أرض المعارض في مدينة نصر، التفوا أمام الجناح الإسرائيلي في المعرض يهتفون ويندِّدون بالتطبيع مع العدو الإسرائيلي، أحاطت بهم قوات الأمن من كل جانب ومنعتهم من الاقتراب، انضم للمظاهرة العديد من القوى الوطنية المعارضة من: حزب العمل وحزب التجمع والطليعة الوفدية، وسارت المظاهرة تجوب أركان المعرض، حتى وصلت للجهة المقابلة لشارع صلاح سالم، هناك رأى الشباب ماكيت لمترو وضعته هيئة السكة الحديد على فرشة كبيرة من الرمال والزلط، وكأنهم قد وقعوا على كنز؛ فجروا نحو الزلط يلتقطون الحجارة، وبدءوا في ضرب الساري المعلق عليه العلم الإسرائيلي، لكنه كان مثبتًا في كتلة خرسانية بالأرض، فقفز ياسر حسن على الساري وبدأ يتسلقه، هنا هجمت قوات الأمن على المتظاهرين فولوا مدبرين في سرعة رهيبة. وبعد أن جروا مسافة آمنة، التفت شباب الجمعية خلفهم يتفقدون بعضهم، فاكتشفوا أن ياسر لا يزال معلقا على الساري محاصرا بعشرات من العساكر، فعادت المظاهرة بكل قوتها تجاه الساري لحماية ياسر، ومن شدة اندفاعهم خلعوا الكتلة الخرسانية المثبت بها ساري العلم، نزل ياسر مسرعا، وسقط العلم على الأرض، وتلقفته أيادي المتظاهرين تقطعة إربا.. إربا!!

وهم يهتفون:

– مش هنفرط مش هنبيع.. لا تبعية ولا تطبيع..

* * *

جنود الأمن المركزي يصدق عليهم قولا وعملا، «أغلب من الغُلب»! في نفس المظاهرة حين هجم الأمن بهراواته ليفض المتظاهرين، جرى معطي وبجواره شخص ما، عرف فيما بعد أنه من الإسكندرية، لاحظا أن جندي أمن مركزي يجري خلفهما، فزادا من سرعتهما والجندي في أثرهما، حاد معطي إلى اتجاه جانبي، فشاهد الجندي مستمرًا في الجري خلف الإسكندراني حتى سبقه، فأصبح الإسكندراني في الخلف والجندي أمامه مستمرا في جريه! وقف معطي يضحك ساخرا من اعتقاده أن الجندي كان يتعقبهما!

أما الإسكندراني فكان يحمل قلبا شريرا، أراد الانتقام من الجندي، فأمسك بجذع شجرة وضرب بها الجندي على دماغه، شهق معطي متوقعا أن يقع الجندي من طوله، إلا أنه فوجئ به يمسح رأسه بيده ويستكمل الجري. نفر الغيظ من وجه الإسكندراني فأمسك بطوبة من على الأرض وخبط الجندي في رأسه بقوة.. وجم معطي وتوقع أن تنفجر الدماء من رأس الجندي ويغمى عليه، لم تسل الدماء من رأس الجندى، فقط تحسسها بيده وهو ينظر للإسكندراني بقرف، ثم أطلق قدميه تسابق الريح. وانقلبت حالة معطي من وجوم إلى هيستريا ضحك على الإسكندراني، الذي جلس على الرصيف، مذهولا لا يكاد يصدق ما حدث!! ولم يجد معطي تفسيرا لرد فعل الجندي، سوى أنه لم يأخذ أمرًا بضربهم!

أليسوا بالفعل، أغلب من الغُلب؟!

عبد الجواد والجهاد

في إحدى أمسيات الشتاء الباردة عام ١٩٨٥، كان موعد لقاء بين غمري وأبي للتقدم لطلب يدي، حضر غمري في موعده يرافقه ياسر عبد الجواد وهما يرتديان بدلتين أنيقتين، جلس الاثنان أمام أبي.. وبدأ ياسر الحديث واسترسل واسترسل، وغمري صامت في خجله المعتاد، حتى كاد أبي يظن أن طالب يدي هو ياسر، فوجه لهما سؤاله مبتسما:

- هو مين طالب إيد بنتي؟!

ضحكا.. ورفع أبي الحرج عن غمري، بخفة دمه وحنكته الأبوية. منهيًا اللقاء بالقول المأثور في تلك المناسبات: «سيبنا شويه نفكر».أحب أبي غمري، وظل يعامله كابنه حتى آخر يوم في حياته.

خرج غمري يتنفس الصعداء، كأنه في امتحان مادة «التنفيذ الجبري» أصعب مادة قانونية في سنة رابعة حقوق. وقرر التوجه إلى بيت ناصر صديقه في ذاك الوقت، ليقص له ما جرى، وأصر ياسر على العودة إلى شقتهم بالمنيل.

* * *

وصل ياسر إلى شقة المنيل، وأخذ دشا ساخنا، وقبل أن يستمتع بكوب الشاي الدافئ، سمع طرقا عنيفا، فتح ياسر الباب، فوجد فوجًا عرمرمًا من الجنود أمامه، والضابط كبيرهم يسد الباب بيده موجها إليه سؤال:

- إنت ياسر؟

ياسر مبتسما:

- أيوه.. أنا ياسر..

الضابط:

- طب اتفضل معانا.

ذهب ياسر معهم في هدوء، تاركا ورقة لغمري يخبره فيها بما حدث.

* * *

صباح اليوم التالي عاد غمري إلى الشقة ليجد الورقة التي تركها له ياسر، فانطلق إلى الجامعة ليخبر أعضاء الجمعية، الذين ما إن سمعوا بالخبر حتى أصابتهم حمية الدفاع عن رفيق الدرب، فوقف شباب الجمعية وسط الكلية يخطبون في جماهير الطلبة، ويندودون بما يفعله الأمن مع أعضاء الجمعية بحملات الاعتقالات التعسفية. تحمس الجميع وتعاطفوا مع ياسر، وقفز أحمد رجب على كتف أحدهم وأخذ يهتف، والطلبة يرددون الهتافات:

- ياسر يا عبد الجواد.. إنت دعتنا للجهاد..

وجابت المظاهرة أرجاء الكلية، يهتفون ويندودون بكل أشكال الظلم والاستبداد.

ثم بدت حركة غريبة تسري بين أعضاء الجمعية. عزت ربيع يهمس لمنتصر يسري الذي يهمس لأخيه محمد، ثم يهمس لحشمت، وتدور دائرة الهمس، وانخفضت نبرة هتاف رجب حتى صمت!

ووقف حافظ يخطب في الطلبة:

- إخواني..(كلمة دائما ما كان الزعيم جمال عبد الناصر يبدأ بها حديثه) إخواني الطلبة مسيرتنا لن تتوقف.. نضالنا مستمر.. ولكننا اليوم نكتفي بما أعلناه صراحة ودون خوف.. مطالبنا قلناها بالصوت العالي.. ولكننا اليوم سنكتفي.. وفي الغد نستكمل المسيرة.

وانفض الحشد، وأنا في حالة استغراب مما حدث، واقتربت من غمري أستفهم، فهمس لي قائلا:

- ياسر عبد الجواد جه الجامعة، تعالي ورايا.

واجتمعنا في حديقة الجامعة، معنا ياسر وبدأ يقص لنا ما حدث:

- بعد ما أخدوني لمباحث أمن الدولة، سابوني مرمي في أوضة ريحتها قذرة ساعات من غير ما حد يسأل أو يحقق معايا، ولا أعرف إيه الموضوع، لحد الفجر وأنا ميت من الجوع فصرخت وناديت على العسكري، وطلبت منه أن ينادي على الشخص المسئول، وجاء الضابط وسألته لماذا لا يتم التحقيق معي، فأخبرني إنه لسه شويه، فقلت له بغلاسة، مدام لسه شويه أنا جعان وعاوز سجاير، ابتسم الضابط وعنف العسكري وأمره أن يأتي لي بساندويتش فول وسجاير وكوباية شاي، شفتوا روقان أكتر من كده؟!

ومع أذان الظهر بدأوا التحقيق. أول ما سألوني: اسمك إيه؟ قلت لهم: ياسر عبد الجواد.. اصفر وجه الضابط واحمر واخضر. وكرر كلامي: اسمك ايه؟ ياسر عبد الجواد؟ طب معلش استنى شويه.

خرج الضابط وغاب لفترة، وبدا قلقي يزداد، ثم عاد واصطحبني إلى مكتب فخم وأنيق، ووجدتني أمام السيد أحمد رشدي بنفسه، كان رجلا مهذبا فقال لي:

- معلش يا أستاذ ياسر، الغلطة دي عندنا احنا، ماكناش نقصد نقبض عليك، لكن جت معاك كده.

- لا.. أبدًا.. حصل خير، بس ممكن أفهم إيه اللي حصل؟

- أصل المطلوب القبض عليه اسمه برضه ياسر بس ياسر حسن!!

كنافة إيهاب

من الشخصيات التي كانت تتسم بقدر هائل من البراءة والعفوية إيهاب رفعت. كنت تراه في كل مكان وفي نفس الوقت، وكأنه بعشرات الأيادي وعشرات الأرجل، فهو يقف ينصب لوحات المعرض على القوائم الخشبية، وهو هناك يتسلل فوق سور مشتل الكلية يقطف الأزهار، ليزين بها طرقات المعرض أحيانا، أو ليهديها لمن يُحب أحيانا أخرى!! وهو أيضا المندس وسط طوابير انتخابات اتحاد الطلبة، يكتشف خيانة طلبة الجماعات الإسلامية للجمعية، بتبديلهم لقائمة الانتخابات التي تم الاتفاق عليها معهم، أو قيامه باستفزاز أعضاء أسرة «صلاح الدين» ذات الصلة بتيار الإخوان المسلمين، والتي كان يرأسها عصام سلطان، بمحاولة استقطاب ناخبيهم، عيني عينك وأمام لجان الانتخابات!!

* * *

في نهاية المظاهرة التي قامت بسبب اعتقال ياسر عبد الجواد، والتي اكتشفنا في نهايتها أن المطلوب اعتقاله هو ياسر حسن، كُلِّفَ إيهاب من أعضاء الجمعية بأن يتوجه إلى شقتهم بالمنيل، كي يستعلم عن الحالة الأمنية هناك، وإذا ما كان الأمن لا يزال مترصدًا لأي قادم لشقتهم.

خرج إيهاب من الجامعة، وسار على قدميه حتى وصل شارع المنيل، وهو يتلفت خلفه كل دقيقة، في حذر وحيطة، ألا يُلفت إليه الانتباه!

وأمام باب العمارة التي تقع بها شقة أعضاء الجمعية المغتربين، وقف مترددا يتوجس

من الصعود إليها، فجاءته فكرة ذكية، وهي أن يستعلم الأمر من محل أسفل العمارة يبيع الكنافة وقف أمام المحل، وقال لصاحبه الذي هو أيضا مالك العمارة:

- نص كيلو كنافة لو سمحت.

وتوجه صاحب المحل إلى الكنافة، وأخذ يزن نصف الكيلو، بوضعه على الميزان، وبحث إيهاب في جيوبه عن ثمن الكنافة، فوجدها خاوية تماما. وفي عزة نفس اقترب من صاحب المحل هامسًا:

- على فكرة أنا مش عاوز كنافة.

صاحب المحل في استغراب:

- ما تعلي صوتك، إنت بتتكلم كده ليه؟!

- بقول لحضرتك مش عاوز كنافة.

صاحب المحل وقد فرغ صبره:

- أمال عاوز إيه؟

- أنا بموه بس! أنا عاوز أسالك هما بعد ما قبضوا على الساكن اللي فوق، لسه فيه حد منهم واقف يراقب المكان هنا؟

ولم يتركه صاحب المحل يكمل كلماته، وصاح به:

- امشي انجر، وحسكم عينكم تيجوا تقربوا من هنا تاني.. قال تمويه قال!

زنزانة باب الخلق

بعد البحث والتنقيب تبين أن سبب القبض على ياسر حسن هو اتهامه بالاشتراك في تنظيم ناصري سري والتخابر مع دولة أجنبية، أطلق عليه وقتها تنظيم «عبد الصمد»، ويرجع سبب اتهام ياسر بتلك التهمة إلى أنه كان مكلفا من قبل أعضاء الجمعية بفتح حوار مع الشخصيات العامة من القوميين عموما والناصريين خصوصًا، من ضمن تلك الشخصيات كان عبد الصمد الشرقاوي أحد القيادات الناصرية، فالتقى به مرات عديدة في بعض الأماكن العامة. صورت جميعها من قبل الأمن فوتوغرافيا وڤيديو!!

علمنا أنه محبوس في زنزانة بسجن استئناف القاهرة في باب الخلق، وذهبنا كوفد من أعضاء الجمعية لزيارته، وبالطبع منعنا ـ نحن الطلبة المشردين ـ من دخول السجن، فقررنا رؤيته بأي شكل كي نرفع من روحه المعنوية، وسألنا عن مكان الزنازين وعلمنا أن لها شبابيك من خلف المبنى فتوجهنا إلى المبنى الخلفي، وبأعلى صوت لنا نادينا في توالي.. نسرين أخت ياسر، تليها عزة صلاح بصوتها المسرسع، يليها عزت ربيع، يليه حشمت، أما أمل كامل وأمل حسن فوقفتا في خجل، تناديان بصوت خفيض أحسن حد يشوفهم!

ضج نزلاء الزنازين من صوت صراخنا، حتى خرجت رأس رجل من الدور الثالث وبصوت جهوري صرخ..

- اللي اسمه ياسر حسن يرد على اللي تحت، صدعتوا دماغنا!

ورغم أن القشعريرة سرت في أجسادنا، من شكل رأسه وصوته المخيف، إلا أننا

سعدنا به وفرحت قلوبنا عندما رأينا رأسًا تطل من شباك بالدور الرابع، وصوت ياسر ينادي علينا:

- أيوه أنا هنا..

وبدأ كل منا يسلم عليه، ويداعبه بنكات معروفة عن العيش والحلاوة، وآخر يعده بصينية شطاطس من أم ناصر، ضحك ياسر وفرح لوجودنا حوله.

أُحيل المتهمون في تنظيم عبد الصمد إلى المحاكمة دون ياسر. وخرج ياسر بريئا كما ولدته أمه!

وحُكم على أعضاء تنظيم عبد الصمد السري وأصدقائه بسنوات طويلة. قامت خلالها زوجته بتطليق نفسها منه، وهو حبيس جدران السجن!

* * *

وبعد مضي سنوات سمعت مرة أخرى عن اسم عبد الصمد بعد انتهاء فترة سجنه، ولكن في تلك المرة رأيته في التلفاز، في لقاء إعلامي حول تنظيم آخر يترأسه، ولكنه تنظيم علني تحت اسم جمعية أهلية تدافع عن حقوق الرجال ضد المرأة!!

خطف الطائرة المصرية

حادثة خطف الطائرة المصرية عام ١٩٨٥ [١] من قِبَل القوات الأمريكية، كانت سببا في

(١) اختطف أربعة فلسطينيين تابعين لجبهة التحرير العربية بزعامة محمد أبو العباس، الباخرة الإيطالية أكيلي لاورو من البحر المتوسط، بغرض التوجه بها إلى ميناء أشدود الإسرائيلي، لتنفيذ عملية فدائية، وذلك في الرابع من شهر أكتوبر ١٩٨٥.
ولكن مصر نجحت في إنهاء عملية اختطاف الباخرة أكيلي، التي رست في ميناء بورسعيد، بعد حدوث صدامات عليها، وقيام أحد الخاطفين بقتل راكب أمريكي على متنها، وأجهضت العملية، وسلم الخاطفون أنفسهم إلى السلطات المصرية، التي قررت تسليمهم إلى منظمة التحرير الفلسطينية في تونس، وحملتهم طائرة دبلوماسية مصرية إلى هناك، كان يتعين هبوط الطائرة في تونس، إلا أن السلطات هناك رفضت هبوطها، فظلت الطائرة تحلق في الجو بحثا عن مطار قريب للهبوط، واتجهت إلى اليونان ورفضت السلطات هناك أيضا هبوطها، في هذه الأثناء قامت طائرات أمريكية بقطع مسار الطائرة، وإجبارها على الهبوط في مطار تابع لإحدى قواعد حلف الناتو بجزيرة صقلية، بعدما وافقت السلطات الإيطالية على طلبهم إذنا بالهبوط، وفور هبوط الطائرة المصرية، حاصرتها قوات أمريكية دلتا، بهدف اعتقال أبو العباس ورفاقه، ونقلهم إلى طائرة أمريكية موجودة على أرض المطار.
رفض كراكسي رفضا قاطعا اقتحام الطائرة المصرية، أو اعتقال أي شخص على متنها، وأبلغ الأمريكيين أن موافقته على هبوط الطائرة، لم تقترن بأي تعهدات أو التزامات بشأن مصير ركاب الطائرة، اتصل كراكسي بالحكومة المصرية، وأبلغها بأن الطائرة تتمتع بحماية دبلوماسية، وأن أي اعتداء عليها أو أي استخدام للعنف سيعد عدوانا على مصر، ووافق على نزول الخاطفين الأربعة من الطائرة، ووضعهم تحت تصرف السلطات القضائية الإيطالية فقط، أما بالنسبة لأبي العباس ومساعده الذي لم نعرف حتى الآن هويته، فقد طلبت مصر إعادتهما إليها على متن الطائرة، حاصرت قوات دلتا الطائرة بهدف اعتقال كل من كانوا على متنها ونقلهم للولايات المتحدة وبدأت أزمة خطيرة.
ثم صدرت الأوامر للقوات الإيطالية بالقاعدة، بحصار القوات الأمريكية، وإنذارها بمغادرة المكان، وعدم المساس بالطائرة المصرية، فقام الجانب الأمريكي بتدعيم قواته بقوة أكبر حاصرت القوات الإيطالية، فصدرت الأوامر باستدعاء الكارابينيري- أي قوات الشرطة العسكرية الإيطالية، وتم إعلان حالة الطوارئ، ورفع درجة الجاهزية للقوات، كما لو كانت حالة حرب، عندئذ اضطر القائد العسكري الأمريكي لقوة دلتا، لاتخاذ قرار

اندلاع المظاهرات في الجامعة. وانطلق شباب الجمعية في المظاهرة، التي خرجت عن نطاق السيطرة لمشاعر الغضب العارمة التي أصابت الجميع بجُرح في الكرامة، وتعامل الأمن مع تلك المظاهرة بشيء كنت لأول مرة أراه في حياتي! وهو قنابل مسيلة للدموع!

فحين خرجنا بالمظاهرة التي جابت أنحاء الجامعة، ومن ثم انتهت أمام مبنى الاحتفالات الكبرى كأغلب المظاهرات، إلا أن بعض الطلبة في تلك المرة صمموا على استكمال المظاهرة والخروج بها من الحرم الجامعي، والسير إلى كوبري الجامعة، ثم الوقوف أمام العمارة التي بها السفارة الإسرائيلية، والتنديد بالهتافات ضد العدو الصهيوني، وبالفعل اشتعلت حماسة الطلبة وانطلقوا نحو البوابة الحديدية للجامعة وقاموا بفتحها عنوة، أثناء ذلك كانت مدرعات الأمن تحيط بمبنى الجامعة من كل جانب، وفي البداية قاموا بتحذير الطلبة من الخروج من بوابة الجامعة، لم يسمع الطلبة التحذير وانطلقوا إلى الخارج يهتفون:

- يا حرية فينك. فينك؟ حرس الجامعة بيني وبينك.

بدأ الأمن يطلق القنابل المسيلة للدموع لتفريق المظاهرة، وكنت ولأول مرة أرى تلك القنابل، وهي صغيرة الحجم، بنية اللون كالكرة الصغيرة، تقع على الأرض فتبقى

الانسحاب من المطار، لتجنب مخاطر مواجهة عسكرية إيطالية أمريكية، وانتقلت الأزمة عندئذ إلى أزمة سياسية بين البلدين.. ومن ثم تم تكليف القوات الإيطالية بمطار روما، والشرطة العسكرية بعمل درع بشري حول الطائرة المصرية، ثم قام شخص بتمثيل دور أبي العباس، وهبط من الطائرة، وتم نقله إلى سيارة ضمن موكب تشريفة ضم ١٢ سيارة، وكلف شخص بأن يمثل دور عميل، وإبلاغ الجانب الأمريكي بأن الإيطاليين، سينقلون أبا العباس إلى الأكاديمية المصرية بروما، التي كان يرأسها آنذاك فاروق حسني وزير الثقافة، فتتبع الأمريكان الموكب لمحاولة اصطياد أبي العباس، حتى اكتشفوا عدم وجوده بالموكب.

توجه الأمريكيون بعد ذلك إلى السلطات القضائية، لمحاولة إقناعها بتسليم أبي العباس ومساعده بدعوى قتل أمريكي كان على متن السفينة، ورفضت السلطة القضائية هذا الطلب لعدم وجود أدلة ضد أبي العباس ومساعده، إلى جانب تمتعهما بحصانة دبلوماسية مصرية وعدم رغبة إيطاليا في إثارة أزمة مع مصر، بينما كان رجال المخابرات الأمريكية ينقبون في كل مكان في روما، يعتقدون أن المصريين خبأوا أبا العباس فيه. بينما أبو العباس كان لا يزال على متن الطائرة، في نفس الوقت كانت هناك طائرة تابعة للخطوط الجوية اليوغوسلافية، رابضة في مطار روما، تم نقل أبي العباس إليها، بناء على اتفاق بين مصر وإيطاليا ويوغوسلافيا.

وغادرت الطائرة المصرية باتجاه القاهرة، والطائرة اليوغوسلافية إلى بلجراد، وعندما وصلت القوة الأمريكية إلى مطار روما، بانتظار صدور قرار التحفظ، كان المطار خاويا!

ساكنة لثوانٍ بعدها يخرج منها دخان كثيف رائحته نفاذة، تخترق الأنف وتسيل الدموع بغزارة حتى تكاد لا ترى من حولك. وأذكر حين وقعت أمامي إحدى تلك القنابل، وقفت أمامها مشدوهة أتأملها في صمت!! إلا أنني فوجئت بفتاة تجري نحو القنبلة بسرعة مذهلة، وترمي فوقها منديل قماش مبلل بالماء، ثم تمسك بها وتقذفها نحو الخارج، ثم التفتت إليّ وقالت:

- اعملي كده لو واحدة اترمت عليك، وحطي على أنفك منديل مبلل بالماء، وإوعي تدعكي عينك بإيدك، وخرجت تعدو إلى الخارج.. أمسكت بالمناديل الورقية ومعي بنات الجمعية، نبللها بالماء ونوزعها على الطلبة.

وحين خرج شلال الطلبة من بوابة الجامعة، قام الأمن بتوجيههم ناحية شارع الجامعة المؤدي إلى ميدان الجيزة، لإبعادهم عن الوصول إلى عمارة السفارة الإسرائيلية. سرت العدوى في مدرسة السعيدية الثانوية المجاورة للجامعة، وخرج طلبة المدرسة يشاركون طلبة الجامعة. وأمسك الأمن العصيان المكهربة وانطلقوا خلفهم..والطلبة يهتفون:

- يا دي العار يا دي العار.. مصري بيضرب مصري بنار!

* * *

وقع بصري على فتاة تنزلق أرضا، وتهوي على رأسها عصي الأمن، والدماء تنفجر منها كالنافورة، فاندفعت نحو عسكري الأمن، ضربته بيدي في صدره وأنا أصرخ به:

- حرام عليك سيبها..هتموت في إيدك.. حرام عليك.

ولا أدري لماذا توقف عسكري الأمن عن ضرب الفتاة، ولا أدري أيضا لماذا لم يضربني معها، ولم أدر حتى الآن لماذا تركنا ومضى إلى حال سبيله، وكأننا غير موجودات. أفقت من حالة الاندهاش وأمسكت بيد الفتاة وأسندتها حتى قامت من على الأرض، ونظرت في وجهها فرأيتها نفس الفتاة التي أنقذتني من القنبلة المسيلة للدموع، نظرت حولي فوجدت باب كلية الزراعة عن يساري فجرجرتها حتى دخلنا، وسألت عن المعمل، وهناك وجدنا بعض الطلبة يرتدون البالطو الأبيض فناديت عليهم: الحقوها..

جرى أحدهم نحوها وأمسك بجبهتها الملطخة بالدماء ووضع السبرتو والقطن فوق

الجرح وربطه بشدة، وأصيبت بالإغماء، وبعد إفاقتها جلبوا لها عصيرا وماء، وبعد أن اطمأننت عليها تركتها، وعدت إلى الطلبة والمظاهرة، وقبل أن أتركها سألتها عن اسمها فقالت:

- سناء المصري.

* * *

بعد أكثر من خمسة عشر عاما على تلك الواقعة، لم أسمع خلالها عن سناء سوى أمرين، الأول: أنها أصيبت بصدمة «صداقية» إن جاز التعبير، أي أصيبت بصدمة في أصدقائها رفقاء ماركس ولينين، وحاملي مبادئهم في قلوبهم، وعلى شفاههم يتغنون بجيفارا. وصدمة سناء أنهم بعد تخرجهم في الجامعة، شق كل منهم طريقه في الحياة، واصطدم بعضهم بعراقيل الحصول على وظيفة، وأنهكتهم البطالة وشظف العيش، وهي نفس الفترة التي غزت مصر «منظمات حقوق الإنسان» فجرى خلفها بعضهم، وتقاتلوا فيما بينهم في الحصول على رئاسة تلك المنظمات، وتحولت حياتهم بعد البطالة إلى رغد من العيش، ومال يصرف بلا حساب من حساب التمويل الأجنبي. وقررت سناء أن تواجههم بأنفسهم، فكتبت عنهم كتاب «تمويل وتطبيع»، فضحت فيه شخوصًا باعت وطنيتها ومبادءها. لكن مواجهتهم بتلك الطريقة أوغرت القلوب بجرح عميق وازدادت الهوة بين أصدقاء الأمس اتساعا، فأغلقوا الأبواب في وجهها.

الأمر الثاني: حين سمعت عن موت سناء، وهي في عز شبابها بانتكاسة أزمة ربو، كما قال طبيبها.

بأيها ماتت سناء؟ هل قتلها مرض الربو اللعين؟ أم قتلها الهم والحزن على فراق الأصدقاء وضياع الحلم؟!

اغتيال خاطر

حادثة روعت قلوب أُمهات وأطفال وشيوخ مصر، وهى اغتيال المواطن المصري المجند سليمان خاطر. لكن كيف مات سليمان؟

كان سليمان ابن الشرقية مجندا على حدود طابا، عنده أمر عسكري ووطني بحراسة حدود مصر، ذات يوم توقف أتوبيس سياحي أمامه، ونزل منه سبعة سياح إسرائيليين، حدثهم بالعربية وبالإنجليزية: «ممنوع المرور»، لم يتوقفوا بل أصروا على العبور والصعود فوق الجبل الذي يقوم على حراسته، أطلق عليهم سليمان النار، فقُدم إلى المحاكمة.

ويحكي سليمان خاطر في محضر التحقيقات معه، ما حدث يوم ٥ أكتوبر ١٩٨٥ فقال:

– كنت على نقطة مرتفعة من الأرض، وأنا ماسك الخدمة ومعي السلاح، شفت مجموعة من الأجانب ستات وعيال وتقريبا راجل، وكانوا طالعين لابسين مايوهات، منها بكيني ومنها عار فقلت لهم: «ستوب نو باسينج» بالإنجليزية، ما وقفوش خالص وعدوا الكشك، وأنا راجل واقف في خدمتي، وأؤدي واجبي وفيه أجهزة ومعدات ما يصحش حد يشوفها، والجبل من أصله ممنوع أي حد يطلع عليه سواء مصري أو أجنبي. دي منطقة ممنوعة، وممنوع أي حد يتواجد فيها، وده أمر وإلا يبقى خلاص نسيب الحدود فاضية، وكل اللي تورينا جسمها نعديها!

«وذلك في إشارة منه إلى حادثة كانت قريبة العهد حين استطاعت امرأة صهيونية أن تتحايل بالعري على أحد الجنود في سيناء، وتحصل منه على تردد أجهزة الإشارة الخاصة بالأمن المركزي هناك بعد أن أدخلها الشاليه المخصص للوحدة».

سأله المحقق سؤالين:

- لماذا يا سليمان تصر على تعمير سلاحك؟

وفى بساطة قال:

- لأن اللي يحب سلاحه، يحب وطنه، ودي حاجة معروفة، واللي يهمل سلاحه يهمل وطنه.

- وبماذا تبرر حفظ رقم سلاحك؟

الإجابة من أوراق التحقيق. قال سليمان:

- لأني بحبه زي كلمة مصر تمام.

* * *

طوال فترة المُحاكمة، أقامت جمعية الدراسات العربية معرضا للصور، وأديرت حلقات نقاش حول قضية سليمان، وموقفه البطولي كجندي يحمي أرض مصر الغالية.

وصفته بعض الصحف بالمجنون، وقادت صحف المعارضة حملة من أجل تحويله إلى محكمة الجنايات بدلا من المحكمة العسكرية..مؤتمرات وندوات وبيانات والتماسات ولا من مجيب! وصدر الحكم على سليمان خاطر بالسجن!!

ثم نُقل خاطر إلى المستشفى بحجة علاجه من البلهارسيا، وفي اليوم التاسع وجد خاطر مقتولا! قالوا إنه انتحر! وطالب أهله بتشريح الجثة وتم رفض الطلب!

قام وفد من الجمعية بزيارة منزل سليمان خاطر في الشرقية، التقوا بوالدته.. امرأة شديدة الحزن.. شديدة الكبرياء.. شديدة الفخر بابنها الشهيد البطل. قال لنا أخوه:

- لقد ربيت أخي جيدا وأعرف مدى إيمانه وتدينه، لا يمكن أن يشنق نفسه، لقد قتلوه في السجن.

وخرجت الجمعية في مظاهرة تنعي سليمان خاطر، وانطلقت حناجر الطلبة من جميع كليات جامعة القاهرة بلا استثناء، تصرخ في هتافات:

- الصهيوني ده غدار.. سيبوا الشعب ياخد التار

- المعقول المعقول.. سليمان خاطر مات مقتول

- سليمان خاطر قالها في سينا.. قال مطالبنا وقال أمانينا

- سليمان خاطر يا شرقاوي.. دمك فينا هيفضل راوي

- سليمان خاطر قالها قوية.. الرصاص حل قضية

- اللي خانك أنتي يا مصر.. حيشنق نفسه في يوم النصر

وكانت أجمل الهتافات..

- سليمان خاطر مش مجنون.. مات علشان ما قدرش يخون.

مهمة صحفية!

كان معرض القاهرة الدولي للكتاب يقام في ساحة الأوبرا، كنا حريصين على الذهاب إليه، يشتري كل واحد كتاب أو اثنين ثم نتبادلهم بعضنا مع بعض، في عام ١٩٨٦ نقل المعرض إلى أرض المعارض في مدينة نصر. وأعلنت إسرائيل عن جناحها به، غضب الكثير وهاج كُتاب وأحزاب، إلا أنه وكالعادة.. فليصرخ من يريد الصراخ وستفعل الحكومة في النهاية ما تريد.

كنت قد بدأت العمل الصحفي في إحدى الجرائد العربية، فكرت في كتابة موضوع عن اشتراك إسرائيل في المعرض، شجعني غمري واصطحبني لنؤدي المهمة سويا.

ركبنا أتوبيسًا من الجيزة ونزلنا في ميدان العباسية، وقبل أن نستقل أتوبيسًا آخر يتجه إلى أرض المعارض، اقترحت على غمري تناول طعام الإفطار، فمعدتي تصرخ من الجوع، كانت النقود معنا بالكاد تكفي، فتوجهنا إلى محل فول وطعمية في الميدان، صد نفسي منظر العمال وعدم نظافة المحل، فعدلنا إلى بقال واشترينا جبنًا وعيش فينو، وجلسنا في حديقة الميدان نأكل.

لحظات ودبت في المكان حركة غريبة، إذ بدأت الحديقة تتكدس بالناس، والشوارع تمتلئ بالبشر، والأتوبيسات مائلة على جنبها من كثرة راكبيها، سأل غمري المارة عن سر هذه الحشود.. لا أحد يعلم!

أهملنا الأمر وهممنا بالتوجه إلى أرض المعارض، لكن الموضوع أصبح أكثر تعقيدًا. إذ جميع خطوط الأتوبيسات توقفت عن العمل، وتحول ميدان العباسية إلى شيء أشبه

بيوم الحشر، تكاد أكتاف البشر تتلامس من شدة الزحام، وشل المكان كله عن الحركة. وأنا وغمري تائهان وسطهم لا نعلم ماذا حدث!

حتى ظهر أمامنا شخص نعرفه، بعد السلام والتحيات علم منا وجهتنا، فصرخ في وجهنا محذرا من الذهاب إلى هناك، وأخبرنا بما حدث:

- ناس مسلحين طلعوا على جناح المعرض الإسرائيلي، ضربوا عليهم نار وحرقوا الجناح وقتلوا أربعة إسرائيليين.

ثم أخرج من جيبه ورقة وناولنا إياها:

- شوفوا ده بيان رموه في المعرض قبل ما يهربوا، بيعلنوا فيه مسئوليتهم عن الحادث ويحذروا إسرائيل أن ترحل برعاياها عن كل شبر من الأرض العربية، وذُيل البيان باسم «تنظيم ثورة مصر».

انتفاضة الأمن المركزي

في فبراير ١٩٨٦ تمردت فرق من قوات الأمن المركزي المكلفة بحفظ النظام ومواجهة الانتفاضات والحركات الجماهيرية، وامتد هذا التمرد إلى عدة محافظات في نفس الوقت[1].

---

(١) انتشرت قوات الأمن في كل شوارع مصر، وكان شيئًا غير مألوف أن نرى دبابة أو مدرعة عسكرية تسير في شوارع المحروسة. قيل إن ما حدث وقتها كان بسبب قيام حركة تمرد بين جنود الأمن المركزي في معسكر الجيزة، نتيجة توزيع منشورات تحتوي أنباء كاذبة عن مد الخدمة للمجندين سنة إضافية.
وفي رواية أخرى نسبت المنشورات إلى أباطرة المخدرات، الذين قاموا بهذه الفعلة انتقاما من اللواء أحمد رشدي وزير الداخلية، الذي تمكنت ضرباته الإجهاضية من إحباط محاولات عديدة لتهريب المخدرات، حتى تقلصت كمية المخدرات المهربة إلى عشرين بالمائة فقط مما كانت عليه، للدرجة التي تبادل فيها العامة وقتئذ، قول الوزير: «الجدع فيهم يبيع مخدرات في الباطنية، وأنا أطربقها على دماغهم». والذين تبنوا هذا الطرح مرجعهم في ذلك ما حدث عقب الأحداث من إقالة الوزير وتعيين اللواء زكى بدر بدلًا منه.
وفي رواية ثالثة ترمي على جهات أجنبية تعمدها إحداث حالة من عدم الاستقرار الأمني في البلاد، لاستهداف بعض الشخصيات التي كانت تزور البلاد في هذا الوقت، ولتخريب استعدادات مصر لاستضافة كأس الأمم الإفريقية لكرة القدم.
استمرت حالة التمرد مدة أسبوع، أعلن فيها حظر التجوال، وانتشر فيها الجيش في العاصمة، وتمكنت قواته من ردع الانتفاضة، واعتقل وقتل العديد من أفراد الأمن المركزي وقامت طائرات الهليكوبتر، بضرب معسكرات الأمن المركزي بالجيزة بالصواريخ، بعد أن قامت قوات الأمن المركزي بإحراق عدد من الفنادق والمحال التجارية، ووصلت الخسائر إلى عشرات الملايين من الجنيهات. قام الجيش بتأمين العاصمة، وكانت طائرات الهليكوبتر تحلق فوق الرؤوس، منتظرة أوامر الضرب في المليان، إذا سولت لهم أنفسهم التوجه إلى مصر الجديدة.
«وكأنما كان فيلم البريء بطولة الفنان العبقري الفذ الراحل أحمد زكى وإخراج عاطف الطيب نبوءة بتمرد أفراد الأمن المركزي».

صباح هذا اليوم فوجئت بأبي يوقظني من النوم، ويخبرني بأن ناصر أمين يقف على الباب، واستشعرت بأن أمرًا خطيرًا قد حدث، في ثوانٍ كنت أرتدي ملابسي وخرجت لناصر. قال لى وهو متوتر:

– فيه حاجة بتحصل، يظهر الثورة قامت في وسط البلد.

استمعت لما يقوله وأنا في ذهول، واستطرد ناصر:

– يللا بسرعة تعالي لازم نروح الجامعة.

سرت مع ناصر إلى محطة مترو حلوان، فوجدناه توقف عن السير واصطف الركاب بالمئات على المحطة، ووقف رجال أمن يأمرون الناس بالعودة إلى منازلهم وإعلانهم بأن اليوم إجازة رسمية. لم ندر ما نفعل، فلا سيارة ولا حتى عجلة يمكنها أن تخترق متاريس الأمن التي وضعت كحاجز عند «ركن الملك فاروق سابقا، وركن حلوان حاليا» وبعد ساعات من المحاولات الفاشلة أعادني ناصر إلى المنزل، لأبقى أمام التليفزيون أستقي منه أي أخبار جديدة.

* * *

كانت الطائرات تحوم فوق الجامعة، يعلق بها ميكروفونات تُعلن عن توقف الدراسة، وتطلب من الطلبة العودة إلى منازلهم، وفرض حظر التجوال في الشوارع.

كان بعض شباب الجمعية داخل الجامعة، وسمعوا بمظاهرة خلف الجامعة في منطقة «بين السرايات»، فانضموا لها وسارت المظاهرة إلى الكوبري الخشب ومن ثم إلى إمبابة والحشد يتكدس حول المظاهرة التي أصبحت تعد بالآلاف، من جميع طبقات الشعب الذين خرجوا يهتفون ضد الغلاء وسوء المعيشة:

– هما بياكلوا حمام وفراخ.. وإحنا الفول دوخنا وداخ..

– هما بيلبسوا آخر موضة.. وإحنا بنسكن عشرة في أوضه..

–يا أهالينا يا أهالينا.. الصهاينة دول أعادينا..

– أهالينا.. أهالينا..

أقام الأمن ساترًا من صناديق الزبالة الحديدية بعرض الشارع كي يمنع مرور المظاهرة، وبدأ يطلق الرصاص الحي على الساتر لإخافة المتظاهرين وفضهم. كانت المظاهرة قد وصلت إلى شارع ترعة السواحل، وبدأت بعض العناصر من البلطجية والمجرمين يندسون وسطها، وهجموا على نقطة شرطة المنيرة الشرقية وأشعلوا بها النيران.

هنا أعلن شباب الجمعية رفضهم لما يحدث، وقرروا الانسحاب من المظاهرة التي تخطت الحدود، بأعمال شغب وتخريب إجرامي.

* * *

استمرت الإجازة الإجبارية مدة أسبوع، وانتهى حظر التجوال بعد استتباب الأمر، وأُعلن خبر إقالة اللواء أحمد رشدي وعزل العديد من القيادات، واتخذت بعض قرارات تحسين أحوال الجنود، ونقل معسكراتهم خارج الكتلة السكنية، كما اتخذت قرارات ضمنية بشأن نوعية الجنود الذين يتم تعيينهم بالأمن المركزي مستقبلًا.

* * *

بعد اثنين وعشرين عاما على تلك الانتفاضة، وفي عام ٢٠٠٧ تداولت أجهزة المحمول فيلم فيديو، يدور بين ضابط بصوته فقط وصورة لجندي أمن مركزي يقف أمامه، ودار هذا الحوار..

الضابط:

– حرب أكتوبر سنة ثلاثة وسبعين بين مصر وإسرائيل قامت سنة كام؟

الجندي مرتبك وتتشابك أصابعه ويقول:

– مش عارف.

الضابط يطلق ضحكة ساخرة:

– يا بني آدم بقولك حرب ثلاثة وسبعين بين مصر وإسرائيل كانت سنة كام؟

ويزداد توتر الجندي:

- مش عارف سيادتك.

الضابط ينطق بلفظ غير مهذب:

- طب بلاش ده.. سؤال تاني.. الحرب اللي مصر كسبت فيها إسرائيل سنة ثلاثة وسبعين كانت بين مين ومين؟

العسكري في توتر شديد.. صوت ضابط آخر صارخا في وجهه:

- لو مش عارف.. انطق وقول مش عارف.

الجندي مرتبكا:

- والمصحف ما أعرف.

الضابط في ضحكة ساخرة:

- يا نهار اسود، اسمح لي أقولك إنت أذكى بني آدم في العالم! إنت يا بني آدم نموذج لجندي الأمن المركزي!!

منظر جندي الأمن المركزي في حالة يرثى لها.

وينتهي فيلم الفيديو!!

مولد حب في ثورة

يـا مـا صادفت صحاب وما صَحِبْتهمش
وكاسات خـمور وشراب وما شربتهمْش
أنـدم على الفـرص اللـي أنا سِبتهم
والَّا على الفرص اللـي ما سبتهمش

عجبي
صلاح چاهين

بنات الجمعية

صبغت الجمعية البنات المشتركات بها، بلون خاص يتعلق بالشكل الخارجي والداخلي يتسم بالصرامة والجدية. في الوقت الذي كانت فيه الجامعة تمتلئ بالبنات الحلوة المدلعة على كل شكل ولون، لهذا بدأ شباب الجمعية يتخذون جملة «بنات الجمعية» كنوع من الإفيه على أي بنت مش مدلعة، فمثلا لو أراد أحد من شباب الجمعية أن يخطب يسأله الآخرون عن خطيبته التي اختارها: هي بنات جمعية؟ ولا!!

والغريب أن هذا المظهر لبنات الجمعية، أصبح مصدر إرهاب لكل بنت «روشة» تحاول التقرب من الجمعية، فلا يستمر هذا الاقتراب أكثر من أيام، إلا وتنطلق هاربة من الجو المشحون بالعمل الشاق والجدية الكئيبة. ويضحك الشباب وهم ينظرون إلى بنات الجمعية مداعبين:

- طفشتوهم.. حرام عليكم طب سيبوا لنا واحدة بس!!

انقسمت بنات الجمعية لشلل. شلة إمبابة: عزة سليمان، هالة عبد القادر، نيفال محمد، أمنية فتحي. وشلة السيدة زينب: هدى عبد الوهاب، أمل كامل، أمل حسن. وشلة حلوان: أنا وعزة صلاح. وشلة شبرا: أميرة، إيناس. وشلة الهرم: منى مرقص، كريمة، منى... «يا رب ما أكونش نسيت حد»!

وتلك الشللية لا تعني الانقسام لا سمح الله، ولكنها كانت مهمة في توزيع مهام عمل الجمعية، بمعنى.. أن يوم إقامة معرض، تتولى مسئولية التواجد داخل المعرض

واستقبال اللوحات لنصبها على القوائم الخشبية بنات إمبابة، لكونهن أقرب إلى الجامعة مكانًا، فيصلن في الصباح الباكر، يا دوب أمن الجامعة بيفتح الأبواب.

وبنات السيدة زينب كن شاطرات في الحياكة، فأي مهمة تتعلق بالحياكة كن يقمن بها مثل اليفط والأعلام وغيرها. أما شلة الهرم فكن يتميزن بالكرم، تلاقيهم رايحين جايين بالشاي والقهوة يناولنها لمسئولي تنظيم المعرض وإدارة الحلقات النقاشية. أما بنات شبرا ولأنهن من كلية الإعلام ولا يفوتهن حضور محاضرة. فكن يحضرن المعرض مع نهايته، فيقفن ضمن الحلقات النقاشية ويثرن زوبعة من الجدال، الذي يشعل حماسة الطلبة، بعد أن تكون حماستهم قد وهنت من وقفة طول النهار. أما شلة حلوان فكانت الجوكر الذي يتداخل بالعمل مع كل الشلل.

مولد حب في ثورة

بعد الانتهاء من إحدى المظاهرات وتفرق الحشد، فوجئت بغمري يعطيني ورقة مكتوب فيها قصيدة شعر غاية في الروعة، كان عنوان القصيدة «مولد حب في ثورة».

بعدها بعدة أشهر تمت خطبتي أنا وغمري، أقمنا حفل الخطوبة في كازينو «العصفور» بالحديقة اليابانية. وكان أروع حفل شهدته في حياتي، ليس لأنني كنت العروس فحسب ولكن لأسباب أخرى.. وهي أن أبي رحمة الله عليه قبل أن يحجز قاعة الفرح سألني.. كم عدد المدعوين من عندك أنتي وغمري؟ أجبته بأنهم حوالي ثلاثين من زملائنا في الكلية. أضاف أبي عدد الأقارب من الطرفين، وقام بحجز عدد من المقاعد والوجبات تكفي مائة مدعو.

في ليلة الحفل وغمري يمسك بيدي ندخل إلى القاعة وسط الزفة، صعقت مما رأيت.. رأيت طلبة جمعية الدراسات وأصدقاءهم، وطلبة من كليات الآداب والتجارة وأصدقاءهم، حتى وصل عددهم حوالي المائتين!!

ورغم غمز أبي ولومه لي لهذا الموقف المحرج، لعدم كفاية الطعام والمقاعد، إلا أن المفاجآت التي حدثت بعد ذلك، أسعدت قلوب الجميع بما فيهم أبي.

قام فريق مسرح الجامعة بعمل زفة رائعة، وقام خالد طلعت بتقليد للعريس والحضور! في فقرة كوميدية مضحكة، وأطربنا ماهر عبيد، وممدوح مداح ومعز الديباوي بباقة من الأغاني الجميلة، وملئت القاعة بالمرح والفرح. وصدق المثل الشعبي القائل «بصلة المحبة خروف»، فقد كفى طعام البوفيه الجميع وفاض.

* * *

ولكن الموقف المضحك الحقيقي حدث بعد هذا بعامين، حين داهم الأمن منزلنا أنا وغمري بعد زواجنا بعدة أشهر، وقاموا بحملة تفتيش في كل أركان المنزل، وأثناء بعثرتهم لكل الأوراق والكتب في المكتبة، عثروا على ورقة مكتوب فيها «مولد حب في ثورة» استوقفتهم كلمة (ثورة) واحتفظوا بها كحرز ودليل إثبات!! في القضية التي تمت محاكمة أعضاء جمعية الدراسات فيها فيما بعد.

شطاطس انشراح

في منزل ناصر أمين بمساكن صلاح سالم بحلوان، وفي حجرته الخاصة فوق السطوح، اجتمع أحمد سيد أو سيجوارت كما نطلق عليه نسبة إلى منطقته السكنية، وعمرو رضا وعصام حنفي وحمدي كامل وحشمت عبد الحميد وعزت ربيع، كي يقوموا بكتابة لوحات لأحد المعارض، وحين تخطت الساعة الثانية عشرة مساء، توقف مترو حلوان عن العمل فاضطروا للمبيت عند ناصر، وكانت المرة الأولى لعمرو رضا أن يبيت معهم.

قامت أُم ناصر «ماما انشراح» كما كانوا يطلقون عليها، «رحمة الله عليها»، بإعداد صينية البطاطس المشهورة بها وقدمت العشاء لزملاء ابنها، ما إن وضعت الصينية أمامهم حتى هجم عمرو نحو الصينية، وظل يقذف في فمه بالبطاطس ويبتلعها ابتلاعا في جوع وشره، والجميع ينظر إليه ويتأمله في سكون مريب، لم يستوقفه سكونهم، حتى بدأت معدته تهدأ قليلا من شدة الجوع. صمت برهة، ثم أطلق صرخة مدوية، أيقظت سكان العمارات المجاورة، وظل عمرو يقفز على الأرض، ويمسك زجاجة الماء ويتجرع منها ويصرخ:

- نار.. نار.. يا ابن انشراح.. نار.

وسيجوارت وعصام وحمدي وحشمت، منهم من هو ملقى على قفاه ومنهم من يمسك بقلبه، في حالة متصلة من الضحك لحد البكاء.. وعمرو ينظر لهم في غيظ ويصرخ:

- كنتم عارفين يا أولاد الهرمة.. الشطاطس شطة نار.

الكشري وكوبري الجامعة

كانت أجمل نزهاتنا وخاصة بعد انتهاء يوم مشحون بمعرض أو مظاهرة هي الخروج من الجامعة، نسير على أقدامنا فوق كوبري الجامعة حتى نصل إلى شارع القصر العيني، وهناك في محل الكشري الشهير نجلس لنلتهم أطباق الكشري اللذيذة.

لم ينس عمرو رضا ما حدث له ذاك اليوم، وأضمر في قلبه رد المقلب لناصر أمين، وجلسنا جميعا على مناضد متجاورة في محل الكشري، واستكان عمرو بجوار ناصر في هدوء وعلامات البراءة على وجهه، وما إن تَوَانَ ناصر لثوانٍ عن النظر في طبقه، حتى سكب عمرو كل ما في زجاجة «الشطة» عن آخرها في طبق ناصر.

وأردف عمرو يزعق فينا:

- تيجوا نعمل سباق.. اللي يخلص طبقه الأول مش هيدفع حسابه.

وفي سلامة وحسن نية، أطبق ناصر على الكشري يلتهمه في سرعة رهيبة، كي يكسب السباق ويُعفى من دفع الحساب، (كان وقتها طبق الكشري بالكمالة بخمسين قرشا)!!

بعدها.. وقف كل من كان في المحل، على صرخة مدوية لناصر أمين!!

مقهى ربيع

في بدروم لمبنى كلية العلوم نصب عم ربيع عدة الشاي والقهوة، وبدأ الطلاب يتعرفون على المكان وتدب الرجل فيه، وسّع الله على عم ربيع وبدأ في عمل الساندويتشات، فيأتي الطلبة صباحا يتناولون الفطور والشاي عند عم ربيع، ومن ثم ينطلقون إلى محاضراتهم، وأصبح مقهى عم ربيع مقرًا للقاء أعضاء الجمعية، والمكان الذي نسأل فيه عن أحدنا إذا تغيب عن الظهور فترة، فكان كل فرد يترك خبرًا عند عم ربيع عن مكانه، حيث لم يكن اختراع الموبايلات قد ظهر بعد، فأصبح عم ربيع هو وسيلة الاتصال والتواصل بيننا، كان يحفظنا بالاسم ومن لا يعجبه أو لا يدخل دماغه، مهما حاولت أن تلقنه اسمه ينساه، أو هكذا كان يدعي، ولذا حين كنت تسأله عن شخص مش داخل دماغه يرد سائلا:

- قصدك مين؟ آه أبو شنب وشعر طويل ده؟! لأ ما جاش النهارده.

نبتسم لفهمنا مغزى كلامه، وأحيانا كان يغضب منا لطول القعدة عنده للمذاكرة ومراجعة المنهج قبل الامتحانات، فيثور في غضب مفتعل:

- هو أنتو مش هتروحوا النهارده ولا إيه؟!

كان رجلا شهمًا من أولاد البلد، كان يسمع كل حوارنا عن المظاهرات ومحاولات تهريب لوحات المعارض وكأنه لا يسمع شيئًا، وأحيانا كانت تأخذه الحماسة من حديثنا، فيتدخل ويقص علينا قصصا عن بطولات أحد أقاربه في حرب ٥٦ أو ٧٣، وينهي حديثه:

- والله بترجعونا يا أولاد للأيام الحلوة.

وولت الأيام الحلوة. وتخرجنا جميعا في الجامعة. ومضت سنون. وشعرت بالاشتياق لساندويتش الجبن الرومي لعم ربيع فقررت أن أزوره، وتوجهت إلى الجامعة ونزلت إلى البدروم فوجدته مغلقا بمفتاح وقفل حديدي كبير، وسألت أحدهم عن عم ربيع. فأجابني بأسى شديد:

- البقية في حياتك.

* * *

شعرت بحزن عميق لرحيل الرجل الطيب، ومعه الزمن الطيب! لكن ما أشعرني بحزن أشد قسوة هو سبب وجود هذا القفل الكبير على باب البدروم، فبعد وفاة عم ربيع جاء شخص آخر آخذًا مكانه بنصبة الشاي والقهوة، وبعد فترة اكتشف أمن الجامعة(١) أن هذا الشخص استغل المكان في بيع المخدرات للطلبة فقبض عليه، وتم إغلاق المكان نهائيا!

(١) وهذا دور مهم لأمن الجامعة لا ينكر الطلبة ضرورته القصوى، لاستتباب الأمن والأمان بالجامعة، غير أن اعتراضهم بسبب التدخل الأمني وتقييد حق الطلبة في ممارسة أنشطتهم وحرية التعبير عن آرائهم.

تيجي نتجوز؟

العام الدراسي ١٩٨٦ كان مشحونًا بالأنشطة والعمل المتلاحق: مظاهرات. معارض. أعضاء جدد. جرفتنا الحماسة وغاب عنا ما كنا نفعله في السنوات السابقة فيما يتعلق بالمذاكرة، كنا قبل الامتحانات بشهر نتوقف عن أي نشاط بالجامعة، نتفرغ للمذاكرة ونتابع بعضنا بعضًا بحرص شديد، ويا ويل من يتقاعس عن المذاكرة. وكان غمري يمثل المرجعية في أي كتاب لا نفهمه، فيتطوع بجلسات شرح جماعية في الحديقة الرئيسية للكلية، طوال فترة الامتحانات. كان تكاتف الجميع يعطي حماسة ويشحذ روح المنافسة.

لكن في تلك السنة لم ندرك كيف سُرق الوقت منا، بدأت الامتحانات دون أي استعداد لها. وجاءت النتيجة المتوقعة، رسوب معظمنا وبالطبع كنت منهم.. وكانت صدمة قاسية.

زارنا غمري واستأذن أبي في الخروج للترفيه عني، ذهبنا إلى «كابريتاج حلوان». وجلسنا نتحدث ونناقش أسباب الرسوب، والتخطيط للعام الدراسي القادم، فجأة قال:

- تيجي نتجوز؟

ورغم دموعي وحزني إلا أنني ضحكت من قلبي على جنونه، فلم يكن قد وجد وظيفة بعد، ولم يكن قد استلم شقته التي حجزها في بورسعيد، بوضوح ومن الآخر لم نكن نملك أي مقومات للزواج.

إلا أن غمري وفي بساطة شديدة قال:

- أمي تشتري لنا حجرة النوم، وبالألف جنيه اللي محوشهم أشتري لك الفستان الأبيض، ومنزل والدك الثاني نتجوز فيه لغاية ما نستلم شقتنا.

* * *

عرض غمري الأمر على أبي، وفوجئت به بكل بساطة يوافق، رغم تحفظه الشديد، وتمسكه بمبدأ التعليم أولًا ثم الزواج، وسلم لغمري مفتاح منزلنا في التبين كي يقوم بتجهيزه، وبدأت الحاجة «فاطمة» أم غمري في تجهيز الأثاث من دمياط، واتفقت على حجرة النوم والسفرة، واشترى أبي الأنتريه، وجهزت أمي كل الأدوات اللازمة للمطبخ، وأنا في حالة من عدم التصديق لتلك السرعة المجنونة التي يسير بها الجميع، فظهور النتيجة كان في شهر سبتمبر. استغرقنا شهر أكتوبر ونوفمبر وديسمبر في الإعداد والتجهيز، وتزوجنا في شهر يناير!! أي خلال ثلاثة أشهر فقط!

وكأني كنت مسيرة، لماذا وإلى أين؟ هذا ما عرفته فيما بعد!

العاصفة

نظـرت في الملكوت كتير وانشغـلت
وبكـل كِلمة (ليـه) و(عشانيه) سـألت

أسـأل سـؤال.. الـرد يـرجع سـؤال
واخـرج وحـيرتـي أشـد مما دخـلت

عجبي

صلاح چاهين

ليلة القبض على غمري

هل ما قمنا به في الجمعية له علاقة بحملة الاعتقالات التي بدأت؟ ومن ستشمل؟ وإلى ماذا ستنتهي؟ أسئلة لم أصل إلى إجابات لها. رغم وصولنا من بورسعيد. ودخولنا منزلنا في التبين. خلع غمري ملابسه وارتدى البيجامة واستلقى على السرير وقبل أن يخلع نظارته لينام قال لي:

- أنا هنام ولما ييجوا صحيني.

نام غمري وملأت الحجرة أصوات «شخيره»! أضأت الأباجورة وجلست أقرأ كتابًا. وقرب الفجر بدأ يحدث ما توقعه غمري. سمعت أصوات سيارات.. وأقدامًا تدب في حديقة المنزل الأمامية، نهضت من سريري، ومن خلف الشيش نظرت، وصعقت لما رأيت.

رجال يرتدون ملابس القوات الخاصة، يمسكون رشاشات وأشياء غريبة لا أعلم ما هي؟ عددهم بالعشرات يلتفون حول المنزل من كل اتجاه، وسيارات مصفحة يمتلئ بها الشارع عن آخره، وأصوات همس تأتيني من الأسفل، سرت على أطراف أصابعي لإيقاظ غمري في هدوء.

- محمد.. قوم شوف فيه إيه تحت.

فتح غمري عينيه وقام متثاقلا على صوت جرس الباب، نزلنا إلى الأسفل، وهم غمري بفتح الباب أمسكت بيديه ومنعته:

- إنت بتعمل إيه.. هتفتح لمين؟!

جاءني صوت رزين من الخارج:

- افتحي يا مدام.

أمسك غمري بالباب يفتحه ومنعته مرة أخرى:

- مش لما تعرف مين دول الأول، مش يمكن حرامية؟!

وجاءني صوت الرزين:

- يا أستاذ محمد افتح.

وهدأني محمد قائلا:

- اهدي شوية لما أشوف في إيه؟

فتح غمري الباب، وفي غمضة عين كانت الصالة ممتلئة بعشرات من الرجال والرشاشات والمدافع، والرجل الرزين يقف أمامي أنا وغمري مبتسما:

- حضرتك الأستاذ محمد الغمري؟

- أيوه أنا محمد.

- لو سمحت عاوزين نفتش البيت.

غمري بهدوء غريب:

- بس تفتكر إن كل دول هيدخلوا هنا إزاي؟!

هز الرزين رأسه مشيرا لبعضهم بالانتظار في الخارج، ودخل حوالي عشرين منهم فقط.

غمري:

- كده معقول.. اتفضلوا.

كان قد فاض بي:

- يتفضل فين؟ حضرتك أصلا مين؟ ومين دول؟ ولو معاك أمر تفتيش ممكن نشوفه؟

وأجابني بابتسامة مهذبة للغاية:

- يا مدام طبعا معايا أمر..اتفضلي ارتاحي.

وأشار بنظره إلى قواته، صعد منهم من صعد إلى غرف النوم، وآخرون انتشروا في كل أرجاء المنزل، وأنا أكاد أجن من غمري قبل هذا الرزين.

- إنت هتسيب اللي فوق دول لوحدهم؟!

ربت غمري على كتفي:

- روحي يا ماما اعملي للضيوف عصير.

ثم ضغط على كتفي بيده:

- يللا روحي.

دخلت المطبخ وأنا أكظم غيظي، صببت لهم العصير، وقدمته في البداية إلى الرزين الذي نظر إلى العصير في توجس رافضا تناوله، وفهم غمري توجسه فأمسك بكوب من الأكواب وجرعه مرة واحدة، ووضع الكوب في الصينية وهو ينظر إليه:

- متقلقش حضرتك، ده واجب الضيافة مش أكتر.

ابتسم الرزين وأمسك بكوب العصير وشربه. نزل الرجال من أعلى والتفوا حول الرزين، رافعين أيديهم بالتمام.. ثم هجموا جميعا على أكواب العصير يشربونها.

نظر الرزين إلى غمري:

- ممكن تيجي معانا شوية؟

غمري:

- ممكن أغير هدومي.

الرزين:

- طبعا ممكن.

أمسك غمري بيدي وصعدنا إلى أعلى وهو يقول لي:

- حضري لي فوطة وبيجامة ومعجون الأسنان.

ارتدى غمري الچينز والقميص في ثوانٍ، كنت قد جهزت له ما طلب، ووقف يحتضنني ويربت عليّ:

- ما تقلقيش.. خلي بالك من عتريس ومن نفسك.. إن شاء الله هعرف الموضوع إيه، وارجع لك على طول.

شعرت بغصة في عيني تحول دون دموعي، وغصة في حلقي ينكتم بها صراخي.

ونزلنا إلى أسفل، ووجدت الرجل الرزين يتفحص مجموعة من الكتب والأوراق لملمها رجاله من المكتبة، منهم كتاب لهيكل كنت اشتريته حديثا ولم أقرأه بعد، خطفته من يده:

- على فكرة ده بيتباع في السوق، لو عاوزه ادفع تمنه.

ترك الرزين الكتاب في يدي وهو يجز على أسنانه، محاولا استكمال دور الابتسام والرزانة، لمحته يفرد ورقة في يده مكتوب عليها: «مولد حب في ثورة».

ويهمس لنفسه:

- ثورة!!

وثار جنوني..

- ودي هتاخدها تعمل بيها إيه؟!

طوى الرزين الورقة بسرعة وناولها مع مجموعة الكتب الأخرى لأحد الرجال، وخرج في سرعة البرق قائلا:

- لا.. دي بقى لازم آخدها.

خرجوا جميعا يصطحبون غمري، وبدأ أسطول سياراتهم في التحرك، سار الموكب حتى اختفى عن ناظري.

* * *

قبل أن أتحرك من مكاني وجدت سيارة أبي تتوقف وينزل منها هو وأمي، وهما في حالة جزع شديد، بعد أن اتصل بهما جيراني وأخبروهما بما حدث، وسألاني عن غمري، وحاولت أن أهدئ من روعهما..

- خير.. مفيش حاجة.

صاح أبي..

- مفيش حاجة إزاي، إيه اللي حصل؟!

وشعرت بأن الحدث أكبر مما أتخيل، رغم كوني لم أتخيل شيئا أصلا!!

- أهم أخدوه يا بابا.. أخدوه ما اعرفش ليه؟!

وانهرت في البكاء، وانهارت أمي تحتضنني، وأبي أيضا بكى.

كان قد مضى على زواجي أربعة أشهر فقط، وقتها علمت ما قد جهلته من أسباب القدر التي ساقت الجميع إلى الإسراع في زواجي، فلو لم نكن قد تزوجنا وقتها.. لم نكن لنتزوج قط!!

حديقة النقابة

كنا في أوائل شهر يونيو والجو شديد الحرارة، ولم تنته العطلة الرسمية لعيد الفطر، ولا أعرف ماذا أفعل، أو لأي مكان أتوجه، انتظرت مرور أسبوع بفارغ الصبر، وفي أول يوم عمل توجهت إلى نقابة المحامين. وهناك وجدت هدى عبد الوهاب تجلس مع بعض سيدات لا أعرفهن. رأيتها تربت على كتف إحداهن. وحين وقع بصرها عليَّ، دخلت في وصلة ضحك هستيري..

- هما قبضوا على غمري كمان؟!

وسألتها..

- مين تاني اتقبض عليه؟

أشارت هدى على السيدات التي تجلس معهن..

- حافظ.. ودي والدته، وياسر.. ودي أخته، أما أنا فبرضوا جولي، يسألوا عن ناصر، لأنهم راحوا البيت عنده مالقهوش، فقالوا مفيش غير بيت خطيبته.

- تعالي نتصل بالباقيين نعرف مين تاني.

توجهت مع هدى إلى سنترال النقابة، واتصلنا بكل زملائنا في الجمعية، علمنا من أهاليهم أن عملية الاعتقال تمت تقريبا للجميع، فمن كان في منزله تم القبض عليه، ومن لم يكن أخبره أهله بما حدث، فقرر الهروب والاختباء حتى يعلموا ماذا يريدون منهم.

ووقفنا على الحقائق الآتية: من تم القبض عليهم من أعضاء الجمعية: ياسر عبد الجواد، محمد الغمري، حافظ أبو سعدة.

من هربوا: محمود عبد الحميد، أحمد عبد المعطي، أحمد رجب، مصطفى ياسين، ناصر أمين، ياسر حسن.

من هذا اليوم تحولت حديقة نقابة المحامين إلى مقر لنا، نجتمع فيها يوميًا مع المحامين والأهالي، نتابع حملة البحث عمن اعتقلوا، وكلت النقابة بعض المحامين وتطوع بعضهم الآخر ومنهم: لمياء صبري مبدي، سيد شعبان، علم الدين زنط، أحمد عبد الحفيظ. داروا يبحثون عنهم في كل سجن وقسم شرطة، وكل فروع مباحث أمن الدولة.. لا أحد يعلم عنهم شيئًا!

هربوا ازاي؟

كيف هرب من هرب؟ لكل واحد منهم نقطة بداية، بعدها انطلقوا إلى غيابات المجهول..

الحكاية الأولى

حين عاد محمود عبد الحميد إلى منزله في الإسماعيلية، أخبرته أخته أن الضابط فلان الفلاني سأل عليه، تذكر محمود أن هذا الشخص كان زميلًا له في المدرسة الثانوية، وأصبح الآن ضابطا في مباحث أمن الإسماعيلية، فتوجه إليه في مكتبه يستعلم عن الأمر. قابله صديق الثانوي بطريقة رسمية للغاية، وضعت بينهما حاجزا ومسافة كبيرة، وسأله الضابط عن أخيه علي عبد الحميد، وكيف يمكن الاتصال به؟ فوعده محمود بأنه سيجلب له أرقام تليفونات أخيه علي وتركه عائدًا إلى منزله مرة أخرى، وهو يستشعر بأن في الأمر أمورًا.

في بيت الأهل قبل محمود أمه وأخواته مودعا، وخرج دون أن يأخذ معه أي حقائب في يده حتى لا يرتاب أحد في نيته. وحين نزل للشارع رأى مخبرًا يقف أمام العمارة.

فافتعل محمود موقفا.. بأن نادى على أخته، فظهرت له من البلكون، فقال لها..

- اسألي الحاجة عاوزه بكام عيش؟

ردت عليه أخته بعد أن فهمت قصده..

- هات بتلاته جنيه.

سار محمود مبتعدا، دون أن يتعقبه المخبر، الذي ظل في انتظار عودة محمود بعد شرائه العيش، لكن محمود لم يشتر العيش ولم يعد!

الحكاية الثانية

عاد أحمد رجب من بورسعيد وتوجه إلى مكتب علي عبد الحميد في الكيت كات، وما إن دخل من باب العمارة حتى وجد شخصًا يمسكه من كتفه:

- تعال معانا.

اصطحبه الشخص في البوكس إلى مبنى المباحث، وهناك سألوه عن سبب زيارته لمكتب علي عبد الحميد وما هي علاقته به؟ وأجابهم أحمد أنه صحفي يقوم بتغطية صحفية عن المرشحين في الدورة الانتخابية لمجلس الشعب، ومنهم علي عبد الحميد، وأظهر لهم كارنيه الجريدة التي يعمل بها، فطلب منه المحقق أن ينتظره خارج الحجرة، خرج أحمد وجلس على كرسي، ومضى على انتظاره ساعات، لم يناد عليه أحد ولم يسأله أحد لماذا يجلس عنده! لكنه سأل نفسه ما الذي يبقيه في مكانه؟ وأجاب عن سؤاله بأن قام من كرسيه، ولبس الحذاء الذي كان قد خلعه من قدمه ليرتاح، وخرج من باب المبنى، دون رجعة.

الحكاية الثالثة

سمع محمد شعبان عن عمليات اعتقال للعديد من أصدقائه، فقرر البقاء في منزله، فإن أرادوا اعتقاله فمرحبا بهم، وإن لم يكن، فهو يعتبر نفسه في إجازة. إلا أن الإجازة طال أمدها، وبقي شعبان في بيته حوالي شهر كامل، لا عمل له سوى مشاهدة التليفزيون ومتابعة أخبار الاعتقالات في جرائد المعارضة، متوقعا أن يعتقل في أي لحظة لكن توقعه خاب، ولم يزره أحدهم أو يسأل عنه حتى مخبر، وتعجب شعبان فقرر عدم الانتظار لأكثر من ذلك، فلملم ملابسه في حقيبة، وسافر إلى بلد أحد أصدقائه، يستمتع بجو الريف النقي.

الحكاية الرابعة

محمد عامر شخصية هادئة ورزينة، تدعو كل من يتوجه إليه بحديث ما إلى الثقة المطلقة في كل ما يتفوه به، وكانت سماته الشخصية تلك، هي ما جعلت الفنان والموظف في أكاديمية الفنون يدخل في زمرة الهاربين لا المعتقلين، في سيناريو قصير للغاية حدث كالتالي:

خرج محمد عامر من شقته مساء يوم، أغلق الباب خلفه، ونزل على أدراج سلم العمارة فسمع أصوات أقدام ثقيلة تدب على السلالم، ثم رأى تلالا من الرشاشات تحملها أجساد ضخمة ووجوه شرسة، يصعدون جميعا في ترتيب ونظام، حتى تلاقوا معه على السلالم وتوقف الضابط أمام محمد عامر وسأله:

- لو سمحت محمد عامر ساكن هنا؟

ابتلع عامر ريقه وأجاب في هدوء شديد:

- أيوه ساكن هنا.

الضابط:

- لو سمحت فين شقته؟

هنا ظهرت فضائل سمات شخصية عامر في رزانته التي تجعل كل من يسمعه يثق في حديثه، ورد على الضابط:

- شقته في الدور اللي جاي.

شكره الضابط واستكمل صعوده على السلالم، ومن ورائه جنوده. ونزل عامر السلالم في روية، حتى خرج من باب العمارة، واستقل تاكسي، ليهرب على غير هُدى، منضما إلى قافلة الهاربين!

سلمته بإيدي!

موقف يحتاج إلى قوة وشجاعة لم تتوافر لدى كثيرين، أقدمت عليه ميرڤت أبو تيج.. كانت في رحلة للمصيف مع زوجها الدكتور أحمد الصاوي وبنتيها سلمى ونهى. مساءً اتصل بها الجيران وأخبروها أن سيارات الأمن وجنودًا مدججين بالسلاح، طرقوا باب منزلهم ولم يجدوهم وفي ذات الوقت اتصلت حماتها بهم وأخبرتها أن الأمن هجم على منزلها ببورسعيد يبحثون عن الصاوي.

ضربت ميرڤت والصاوي أخماسًا في أسداس، وعندما لم يصلا إلى فهم للموقف، قررا الاستمرار في أسبوع التصييف، اللذين قاما بحجزه ودفعا ثمنه مقدمًا، وقبل انتهاء الأسبوع بيوم، فهما الموضوع من الجرائد التي نشرت خبر القبض على المتهمين في قضية التنظيم الناصري، والبحث جارٍ عن الهاربين ومن ضمنهم الصاوي.

لملمت ميرڤت حقائب السفر، وعادت إلى القاهرة مع أسرتها، باتوا ليلتهم في فراشهم هادئين هانئين.

باكرا.. نسيت أو تناست دورها كزوجة، ومارست عملها كمحامية، وأمسكت الصاوي من يده، وتوجهت به إلى النيابة وسلمته لهم.

* * *

جسدها الضخم، وأصول عائلتها التي تعود إلى كبار الجزارين في منطقة الوراق، وقيامها بتسليم زوجها، جميعها عوامل أدت إلى خروج إفيه، اتخذناه هذرا لنا وترفيها،

حين يجتمع شمل النسوة، بلا رجال، في حديقة نقابة المحامين، سعدية ومنى وهدى وميرفت وفاطمة وآمال وسعاد.. تبدأ سعدية بمثلها الشهير:

- اتلموا الصبايا تحت الرعريعة.. لا لقوا لهم شروه ولا بيعه..

وتتوالى النكات حول حالنا، من كون شر البلية ما يضحك، وتبدأ النسوة في مداعبة ميرفت واصفات إياها.. بأنها ست قوية، سلمت جوزها بإيدها، عشان ترتاح وتتبسط.

لكنها لم تكن قوية إلا ظاهريا فقط، ولم ترتح لأنها قضت وقتها كله ليلا ونهارًا ما بين حضور التحقيقات، واستخراج تصريحات الزيارة، للخمسة المقبوض عليهم، ولم تكن مبسوطة إلا أمام المباحث فقط كي تغيظهم، فتُظهر لهم أن الأمر لا يعنيها، وأنها قضية فشنك وهتنزل على مفيش.

السفر إلى بورسعيد

في آخر عودة لي من بورسعيد كنت في حالة من اللخبطة والحيرة. خرجت منها على دوامة عاتية، لم أفق منها بعد. لكن الموقف مُعقد للغاية، فأنا بين أمرين أحلاهُما مُر. لا يزال جزء من عقلي مضطربا مشوشا، وجزء آخر يحاول إفاقتي، كي أحمل مسئوليات لن يقدر عليها عقل مضطرب، ومن تلك المسئوليات مهمة إبلاغ حماتي وأهل غمري باعتقاله، وهو أمر لا ينفع باتصال تليفوني بل يحتم السفر إليهم شخصيا. لكن كيف سأبلغها بالخبر، هذا ما ظللت أفكر فيه طوال المسافة التي قطعها الأتوبيس من القاهرة إلى بورسعيد.

ورثت عن أمي شغفها بالقراءة، فهي لا يفوتها قراءة الجريدة اليومية ومجلتها الأسبوعية المفضلة؛ فجلست جواري طوال طريق السفر، تمسك بالجريدة وتقرأ موضوع القبض على التنظيم الناصري، تناول الصحفي القضية بأسلوب مُهين، بدأه بعنوان: «باعوا أنفسهم للشيطان»، وعليك أن تتخيل ما يمكن أن يكتب أسفل هذا العنوان، تجريح وسب وقذف، وأمي تقرؤه وهي في حالة امتعاض وتردد في نفسها:

- حسبي الله ونعم الوكيل..

لم تكن التحقيقات قد بدأت، أو ظهرت أي بادرة تدل على الموقف الحقيقي لهؤلاء المتهمين، ومع ذلك بادر هذا الصحفي المعين في جريدته على نفقة المباحث، يلعن المتهمين مثيرا بمقاله الرأي العام، جاعلا من مهمتي أكثر صعوبة، فدعوت الله طوال الطريق، ألا يقع هذا الخبر في يد إخوة غمري، على الأقل قبل أن أصل إليهم.

* * *

تخطى سائق الأتوبيس الاستراحة، كنت أنتظرها بفارغ الصبر، الحمل يضطرني للذهاب إلى الحمام كل ساعة، حاولت أن أضغط على نفسي، لكن نفدت قدرتي على أي احتمال، وشعرت بألم سيفجر بطني، جعلني أنتفض من مقعدي، وتوجهت ناحية السائق أطلب منه التوقف في أقرب استراحة.

لمحت رجلا كان يجلس في الكرسي خلفي، ما إن رآني أقف حتى أصابه الهلع وجرى خلفي، استغربت مما فعل، وبعد أن أخبرت السائق بما أريد عدت إلى كرسيَّ، وعاد هو فجلس.

دقائق وتوقف السائق أمام إحدى استراحات الطريق، ونادى عليّ، قمت مرة أخرى ونزلت من الأتوبيس والرجل في أثري، يسير خلفي كالظل، وقبل أن أدخل إلى حمام الكافتريا، نظرت إليه وقلت له بغيظ:

- اتفضل.

نظر إليّ في بلادة:

- لا.. شكرا.

دخلت الحمام وارتحت، فعلا صدق من أسماه «بيت الراحة»، خرجت لأجد الرجل يقف أمام باب الحمام في انتظاري، عدت إلى الأتوبيس وهو خلفي، ثم انطلق بنا الأتوبيس مرة أخرى.

عرفت تفسير أمر هذا الرجل فيما بعد عندما التقيت بغمري في النيابة، أخبرني أن هذا الرجل ما هو سوى مُخبر مخصص لمراقبتي.

حين وصلنا لبورسعيد، ورغم الحفاوة التي استقبلتني بها حماتي، كانت في نظراتها ريبة من أمر تلك الزيارة المفاجئة، في البداية عللت عدم حضور غمري بظروف عمله، لكن تلك الحُجة لم تنطو عليهم. بعد أن تناولنا الطعام، جلسنا نشرب الشاي، بهدوء وحذر أخبرتهم بما حدث، وانهارت حماتي وأخوات غمري، واستمر الموقف متشنجًا بضع ساعات، إلى أن هدأت الأنفس، واستعد الجميع لتحدي الأمر الواقع.

تحقيقات النيابة

عجبتني كلمة مـن كـلام الـورق
النور شَرَق من بين حروفها وبَـرق
حبيت أَشيلها فـ قلبي.. قالت حرام
ده انـا كل قلب دخلت فيه اتحـرَق

عجبي
صلاح چاهين

الجبل الأصفر

مساء اليوم الحادي عشر من اعتقالهم، اتصلت بي لمياء صبري مبدي المحامية تخبرني أنهم سيُعرضون على نيابة أمن الدولة، في الجبل الأصفر صباح الغد.. وشعرت بارتجافة هزتني من الأعماق.

بعد السؤال عن ماهية الجبل الأصفر! علمت أنه ليس بجبل سوف أصعد إليه، إنما هو منطقة صحراوية على طريق الأوتوستراد. كنت هناك قبل شروق الشمس، وجدتني أمام مبنى من أربعة طوابق أمامه صحراء واسعة، وخليط متزاحم من المحامين يحيطون بالمكان عرفت منهم: عبد الله كامل وأحمد عبد الحفيظ وعلم الدين زنط وسيد شعبان، سألتهم عن المتهمين أخبروني أنهم على وصول. نظرت حولي فوجدت صخرة جلست عليها أنتظر. اقترب مني رجل يرتدي ملابس مدنية، وفي نبرة استعلاء نهرني للابتعاد عن المكان، وجهت إليه كل سهام قلقي وغضبي وأعلنته أني لن أتحرك من مكاني، وهنت نبرة الرجل وسار مبتعدًا عني.

* * *

ثم ظهرت لمياء صبري وبرفقتها سيدة بدا عليها محاولة التماسك وضبط النفس، عرفتني عليها لمياء بأنها الدكتورة وفاء الزير، وزوجها الدكتور صلاح دسوقي تم القبض عليه مع مجموعتنا.

بعد ساعات.. رأيت سيارة نقل المساجين تقترب، فحدثت حالة ارتباك بين صفوف عساكر الأمن، ثم ظهرت سيارة فولكس بيضاء، يجلس بها رجل بجوار السائق

وشخصان بالخلف يتوسطهما حافظ أبو سعدة، وهالني ما رأيته من اصفرار وجهه، اندفعت نحوه أسلم عليه، ابتسم وكأن عضلات وجهه لا تقوى على الابتسام، وسألني عن والدته.. طمأنته بأنها على وصول، وسحبه الأمن بسرعة إلى داخل المبنى.

منعت قلبي من البكاء على حاله، بعد دخوله بثوانٍ، حضرت أم حافظ تصحبها أخته ليلى وبكت حين علمت بوصول حافظ قبل أن تراه، وهدأت لمياء من روعها بأنها سوف تراه عندما يخرج، وجلسنا جميعا ننتظر توالي وصولهم.

ظهرت سيارة نزل منها الدكتور صلاح دسوقي، رجل خفيف الشعر وطويل، زاد من طوله نحافته الشديدة، تقدمت نحوه الدكتورة وفاء وقبلته ثم أدخلوه بسرعة. وما حدث للدكتورة وفاء بعد ذلك سنرويه فيما بعد.

* * *

تلاه ظهور ياسر عبد الجواد، وبنفس الطريقة والهيئة، ترجل من السيارة، يسانده العساكر على الجانبين، لا تقوى جفونه على فتح عينيه، ولا تحتمل ساقاه صلب عوده، ورغم ذلك كان مبتسما وهو يسلم علينا:

- احنا كويسين، ما تقلقوش.. غمري جي ورايا.

* * *

ثم ظهرت سيارات الأمن، ونزل منها شخص لم أتعرف عليه في بداية الأمر، ثوانٍ واكتشفت أنه غمري، أحد عشر يوما منذ القبض عليه، نقص وزنه أكثر من عشرين كيلو!! شحب وجهه.. غاصت عيونه داخل عظام وجنتيه، استدعيت كل عناصر القوة وسلمت عليه، شممت رائحة ملابسه مشبعة بالأدوية كأنه خارج للتو من مستشفى، بعد إجراء عملية جراحية، وسألته عما جرى له، طمأنني أنه بخير، وسحبه الأمن بسرعة إلى الداخل.

خلف إحدى السيارات، وقفت بعيدًا عن الأعين، كنت في حالة انهيار تام، التف حولي الأهالي.. ناولوني ماء فغسلت وجهي وشربت، أفقت واستعدت وعيي.

اقترب المحامون بعضهم من بعض لتوزيع المهام، كل محام يتوجه مع أحد المتهمين لحضور التحقيقات. وأصررت على حضور التحقيقات مع غمري، حاول المحامون منعي لأني لم أصبح محامية بعد، ولم أحصل على كارنيه النقابة، لكنى صممت ورضخوا تحت إصراري.

محامية أونطة!

في حجرة تحقيقات النيابة، جلست مع المحامين أحمد عبد الحفيظ ومحمد حسن خليل وعلم الدين زنط. وبدأ وكيل النيابة سؤال غمري.

س: ما قولك فيما هو منسوب إليك.. من انضمامك إلى تنظيم سري غير مشروع، يرمي إلى مناهضة المبادئ والقواعد الأساسية، التي يقوم عليها نظام الحكم في الدولة، وكان عنصر القوة ملحوظًا فيه، وسعيه وتخابره لدى دولة أجنبية، وكان من شأن ذلك الإضرار بالأوضاع الداخلية والخارجية للبلاد، والإضرار بموقف مصر سياسيا؟

ج: لم يحدث. ولم أنضم إلى أي تنظيم تحت أي مسمى، كما لم أقم بأي اتصال بأي دولة، ولا تشغلني هذه المسائل، فأنا أعمل في مهنة المحاماة منذ عام ١٩٨٤، وبالتحديد في أواخر هذا العام، وعملي يستغرق وقتي، بالإضافة إلى بعض الأنشطة الخاصة، التي تتمثل في نشاطي بجمعية الدراسات العربية، وهي جمعية معترف بها، داخل كلية الحقوق جامعة القاهرة، ونشاطي فيها كان أثناء دراستي الجامعية، وقد انقطعت صلتي بهذه الجمعية منذ تخرجي.. وحاليًا نشاطي الخاص، يتمثل في عضويتي بجماعة المحامين الناصريين، وهي جماعة تعمل بشكل شرعي داخل نقابة المحامين.

* * *

دارت التحقيقات في مجملها حول عدة أسئلة، منها: وهل لك أن تبين لنا الفكر الذي تعتنقه؟ ما هو مفهوم الحرية والاشتراكية والوحدة في فكرك؟ ما موقفك من فكرة العمل الثوري لتطبيق الفكر الناصري؟ ما معرفتك بكل متهم في القضية؟ وما هي

الدول التي سافرت إليها؟ هل أنت منضم للحزب الناصري تحت التأسيس؟ ما رأيك في اتفاقية السلام مع إسرائيل؟ ألم تتلق أي تدريبات عسكرية على استخدام السلاح؟ ما هي أنشطة جمعية الدراسات العربية؟ وما هي أنشطة جماعة المحامين الناصريين بنقابة المحامين؟

* * *

قرر غمري أمام النيابة أنه تعرض للتعذيب، وحين وجه إليه وكيل النيابة سؤالًا عن كيفية تعذيبه، أطرق قليلا، ثم طلب من وكيل النيابة خروجي من الحجرة، لأنه سيتحدث في كلام يجرحه كرجل أمام زوجته، وتعجب وكيل النيابة مما قاله، ونظر حيث أشار غمري، ليجدني أبتسم له، ففهم أنني زوجته المقصودة وطلب مني الخروج من الحجرة لفترة.. ليحكي غمري عن كيفية تعذيبه!!

* * *

في الفترة التي خرجت فيها، سألت عن الكانتين، فدلوني عليه، واشتريت بسكويت وعصائر وطفت أوزعها على باقي المتهمين في حجرات التحقيقات، كل ذلك وعقلي يحاول تصور كيف تم تعذيب غمري، وجسدي يقشعر مما أتخيل.

وقفت أرتاح قليلا وتناولت باكو بسكويت، وقبل أن أُلقي بورقته على الأرض، تراجعت وأخرجت قلما من حقيبتي، وكتبت على ظهر الورقة خطاب قصير لغمري، ثم غلفت الورقة بباكو بسكويت سليم.

وهممت بدخول غرفة التحقيقات مرة أخرى، فوجدت غمري أمامي خارجًا، بعد انتهاء تحقيق اليوم، على أن يستكمل في اليوم التالي، وأعطيته العصير والبسكويت، وغمزته وأنا أقول له:

- اشرب العصير دلوقتي، والبسكويت لما تُروح السجن.

فهم غمري ما أقصد، وقال:

- طب حطي لي قلم بسرعة في جيبي.

ولأن القلم كان من قوائم الممنوعات وقتها، قمت بدسه في جيب غمري في حيطة شديدة كمن تقوم بعملية تهريب للممنوعات! ومضى غمري في سيارة الترحيلات إلى محبسه.

* * *

كانت أسئلة النيابة لجميع المتهمين تقريبا متشابهة، واستمرت تحقيقات النيابة حوالي خمسة عشر يوما. أحضر كل صباح، أوزع عليهم شُنط بها طعام، ولكن دون حضور التحقيقات مع غمري، بعد أن أُذيع نبأ أنني محامية أونطة!

الجلطة

سيدة أنيقة في مظهرها وسلوكها، لها طريقة غير مألوفة في الحديث مع الآخر، في لغة حوارها أسلوبان متضادان، التواضع والشموخ، ورغم ذلك تجد الآخر متقبلا حديثها مستمتعا به.

درست علم النفس وحصلت فيه على شهادة الدكتوراه، قامت بتدريب أشكال وأنواع من الرتب والوظائف على فن استخدام هذا العلم في الإدارة والتوجيه، ورغم ذلك لم تستطع الدكتورة وفاء الزير أن تلتزم وتُطبق ما تعلمته وتُعلمه للغير!

حين قابلتها أمام مبنى نيابة أمن الدولة، ولأول مرة عرفتني لمياء مبدي عليها، كانت ترتدي الجيب والبلوزة في أناقة واهتمام، يضفيان مزيدا من الثقة لشخصيتها داخليا وخارجيا. شعرت بقوة غريبة عند مصافحتها، وسمعت في حوارها مع لمياء نبرة ثقة غير متناهية، في المصيبة التي نحن فيها!

عندما نزل الدكتور صلاح دسوقي من سيارة الترحيلات مكبلا بالحديد، تقدمت نحوه الدكتورة وفاء في شموخ وسلمت عليه بضحكة واثقة، حتى دخلوا به إلى المبنى. بعدها وقفت فترة من الوقت صامتة. لكن وجهها ويدها بدأ يتغير لونهما إلى اللون الأزرق، وثمة رعشة واهتزاز في قدميها، سألتها عما بها، فأجابتني بلغتها غير المألوفة.

- أبدًا ما فيش حاجة.

تقدم نحوها رجُل قريب لها جاء برفقتها، همست له ببضع كلمات، ثم استأذنتنا، وغادرت معه في سيارته.

* * *

غابت الدكتورة وفاء طوال أسبوعي التحقيقات، كنا في زخم الأحداث، وتحقيقات النيابة تجري نحو قضية خطيرة، واستغربت غيابها تلك الفترة! إلى أن رأيتها أثناء زيارات الأهالي للمعتقلين في سجن ملحق مزرعة طره. وسألتها عن سر تغييبها، فأخبرتني أنها أُصيبت بنزيف حاد، وتعرضت للإصابة بجلطة في المخ، نُقلت على إثرها إلى المستشفى في حالة خطيرة، لكن الله ستر وشفيت تماما.

وتعجبت! ليس مما سمعت، لكن تعجبي من تلك الشخصية، التي أحاطت نفسها بهالة من الثقة والقوة، لتخفي وراءها المرأة الرقيقة الضعيفة بداخلها. وعرفت لماذا لم تلتزم بما تَعلمته وتُعلمه من علم النفس، لأن ما تعرضت له كان أكبر من أي علم، وأصعب من أي قدرة على التحمل.

قائد المتهمين

المتهم الأول في القضية هو الدكتور صلاح دسوقي، لم أكن قد سمعت عنه سوى أول يوم نزل فيه المتهمون في القضية إلى تحقيقات النيابة.. رحت أبحث عن إجابة سؤال؟ من هو قائد المتهمين المدعو بالدكتور صلاح؟ ولم أرتح قبل الوقوف على حكايته. وبداية قصته من أول كلمة في اسمه وهي لقب دكتور الذي بدأ معه تاريخه السياسي. كانت أغلب البعثات الحكومية للدكتوراه تُرسل إلى أمريكا، لكن في عام ١٩٦٦ حدثت أزمة غيرت مسار البعثات إلى طريق آخر، سميت بـ«أزمة القمح»! (١)

---

(١) ولتلك الأزمة حكاية، أقصها عن لسان الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، في خطابه بمناسبة عيد النصر في بورسعيد «قالوا الأمريكان: عفا الله عما سلف، وتعالوا نتفاهم، وما فيش داعي للعداوة. وعملوا اتفاقية معانا على أساس إنهم يبعتوا لنا القمح بالجنيه المصري، وابتدينا أظن أول سنة ادونا بما قيمته عشرين مليون جنيه، قلنا والله كتر خيركم، ودا يساعدنا بدل ما كنا بنصرف عشرين مليون جنيه، بنجيب بها قمح من بره؛ بنصرفها على التصنيع، وبنجيب القمح من أمريكا بالعملة المصرية؛ وجينا بعد كده اتفقنا على السنة اللي بعدها، إن احنا ناخد قمح بـ أربعين مليون جنيه، قلنا والله دول ناس كرما، ووفرنا أربعين مليون جنيه كنا بنجيب بهم قمح؛ نتوسع بهم في الخدمات، ونعمل مدارس، ونعمل مستشفيات، ونعمل مصانع.
وبعدين جم السنة اللي بعدها وقعدنا نتفاوض..وافقوا انهم يدونا بستين مليون جنيه، قلنا: عال قوي.. نتوسع في الصناعة، ونتوسع في الشغل، والفلوس اللي كنا بنجيب بها قمح ابتدينا نصرفها في أبواب تانية، ونتوسع في مصانع، ونجيب مستلزمات إنتاج، ونجيب مطالب، ونجيب قطع غيار، ونجيب مصانع جديدة.. وجم السنة اللي قبل اللي فاتت بدءوا يطلبوا منا شروط بالنسبة للأبحاث الذرية، بالنسبة للصواريخ.. بالنسبة للجيش المصري.. بالنسبة لسياستنا الخارجية وإحنا لم نقبل هذه الشروط.. ابتدءوا يقولوا لنا: لكن معنى دا إن احنا بنوفر لكم فلوس، وإن عن طريق الفلوس اللي بنوفرها لكم أنتم بتعملوا كذا وكذا، ودا بيخلي الرأي العام الأمريكي، يكون مش موافق على سياسة الحكومة، في الاستمرار على هذه المعونات، والكونجرس الأمريكي مش موافق على هذه المعونات. قلنا لهم: والله احنا هذه الشروط كلها وهذه الطلبات لا نقبلها. وجم السنة اللي فاتت وابتدوا يتعززوا، ويقولوا بنبحث الطلب، ووقفوا المعونة.. وقفوا الـستين مليون جنيه!

وإثر تلك الأزمة بقرار أمريكا بوقف المعونة، قام الرئيس الراحل جمال عبد الناصر بالرد عليهم بإلغاء كل البعثات المصرية المتجهة إلى أمريكا، وتحويل مسارها إلى يوغوسلافيا.. وسافر صلاح دسوقي في بعثة إلى يوغوسلافيا، تعرف هناك على مجموعة من الطلبة العرب يشكلون فيما بينهم «رابطة الطلبة العرب الوحدويين». توافقت أفكارهم مع أفكاره فانضم إليهم وبدأت الرابطة حالة من النشاط أسفرت عن افتتاح عدة أفرع، وصل عددها إلى عشرة أفرع للرابطة في يوغوسلافيا.

في أوائل شهر يونيو ١٩٦٧، قامت الحرب بين مصر وإسرائيل، فنظمت الرابطة مظاهرات تندد بالعدوان على مصر، واستمرت المظاهرات يومين، كانت في شكل سلمي إلى أن احتكت بهم الجالية اليهودية هناك، وحدث صدام بينهما، فتوجه المتظاهرون إلى المركز الثقافي الأمريكي وضربوه بالطوب وكسروا واجهته الزجاجية.

بعدها قرر أعضاء الرابطة توحيد جهودهم مع باقي الطلبة العرب، ومنهم رابطة الطلبة العرب الوحدويين، الاتحاد الوطني العراقي، رابطة الطلبة العراقيين ومجموعة طلبة يعبرون عن التيار القومي من الجزائر واليمن وفلسطين، وانتهوا إلى تشكيل لجنة تسمى «المكتب المركزي لرابطة الطلاب العرب».

أصبح علينا أن نوفر الستين مليون جنيه، ونجيب بهم قمح، وإلا تصبحوا الصبح ما تلاقوش عيش في الفرن.. وقعدوا يقولوا لنا حنبعت لكم قمح.. وقعدنا مستنيين القمح.. لغاية ما وصلنا يوم وبقى القمح اللي عندنا في البلد يكفينا شهر، وقلنا والله باين الجماعة دول عايزين يدونا مقلب كبير قوي، ويخلونا نقوم ما نلاقيش عندنا لا قمح ولا دقيق، ويعملوا لنا مجاعة في البلد.

وابتدينا كل ما نروح دولة ونتفاهم معاها، إنها تبيع لنا قمح ترجع تاني وتقول: والله أنا عندي مشاكل، مش حاقدر أبيع لكم، فضلنا لغاية ما بقى عندنا يمكن احتياطي القمح ١٥ يوم، وما احناش عارفين نشتري قمح... والحقيقة بقينا في وضع سيئ جدًا.. الحل كان إيه؟ بعت جواب لرئيس وزراء الاتحاد السوفييتي.. وبالتلغراف طبعًا.. العملية مش عايزه لا طيارة... وقلت له آدي وضعنا النهارده.. عندنا قمح ١٥ يوم وإذا ماجالناش قمح قبل الـ ١٥ يوم، تكون عندنا مشاكل كبيرة، وأنا عارف انكم عندكم عجز في محصول القمح، وبتشتروا قمح من كندا ومن أستراليا، ولكن للظرف اللي احنا فيه، أنا بطلب انكم تبعتوا لنا في الحال ٣٠٠ ألف طن من القمح، وحندفع تمنهم. تاني يوم جالى منه جواب بالتلغراف، إنهم وافقوا على إمدادنا بـ ٣٠٠ ألف طن من القمح وإنهم أدوا تعليمات للمراكب اللي جاية لهم من أستراليا ومن كندا، إنها تتحول على إسكندرية؛ عشان توصل لنا في الحال، طبعًا شكرتهم، ولكن دا مثال من حرب التجويع اللي احنا بنقابلها النهارده. حرب التجويع لا تختلف أبدًا عن حرب الرصاص.. الهدف واحد.. الهدف إن احنا نخضع».

إلى أن حدثت النكسة، والتف أعضاء الرابطة أمام التليفزيون يشاهدون خطاب التنحي، وكانت كلمات الزعيم جمال عبد الناصر هي الحاسمة في قرار صلاح بالانحياز السياسي قلبا وروحا لجمال عبد الناصر.ونشطت الرابطة عن ذي قبل، ونصبت أول اهتماماتها لدعم المجهود الحربي لمصر، وفتحت أفرعًا لها في العديد من الدول.. الأوروبية منها: تشيكوسلوفاكيا والنمسا وإيطاليا وإسبانيا واليونان.. والدول العربية: لبنان والسودان وليبيا. وقام صلاح دسوقي وطارق النبراوي وأحمد الجمال، بتشكيل مكتب الرابطة في القاهرة.

* * *

نهاية عام ١٩٦٩، ظهرت قوة ضاربة للرابطة في لندن، تدعو الحركة الطلابية العربية في أوروبا لعقد مؤتمر لإدانة عبد الناصر لقبوله مبادرة روجرز. وللزهور الشابة الجديدة، أوضح أن مبادرة روجرز ليس لها علاقة بفيلم «الأرنب روجرز» سوى في شيء وحيد، ألا وهو أن كليهما صناعة أمريكية؛ الأرنب روجرز صناعة سينما، أما مبادرة روجرز فصناعة سياسة[1].

---

(١) وحكاية مبادرة روجرز تتلخص في «بعد شهر واحد فقط من هزيمة ١٩٦٧، حددت مصر بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر، الذي فوضه الشعب في ٩ و١٠ يونيو، في متابعة القيادة وتحرير الأرض، حددت الإستراتيجية العامة السياسية والعسكرية، تحت شعار «إزالة آثار العدوان»، وخلاصتها.. تحرير الأرض المحتلة في سيناء، والوصول بالقوات إلى خط الحدود المصرية الفلسطينية وتأمينها، ثم استغلال هذا النجاح سياسيًا لاسترداد حقوق الشعب الفلسطيني. وأبلغ عبد الناصر الفريق أول محمد فوزي وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة، أن فترة تحقيق هذا الهدف هي ثلاث سنوات.

وكانت قرارات مؤتمر القمة العربي، في الخرطوم في أوائل أغسطس ١٩٦٧«لا صلح، لا تفاوض، لا اعتراف»، تأكيدًا لهذه الإستراتيجية على المستوى القومي.. على أن إستراتيجية التحرير المعروفة «بحرب الاستنزاف» تمر بثلاث مراحل هي: - مرحلة الصمود من يوليو١٩٦٧ حتى مارس ١٩٦٨ - مرحلة المواجهة من مارس ١٩٦٨ حتى أوائل ١٩٦٩ - مرحلة حرب الاستنزاف الأساسية التي شملت الفترة من شهر مارس ٦٩ حتى ١٩٧٠.

وتميزت المرحلة الأخيرة بعمليات فدائية مصرية، داخل الخطوط الإسرائيلية، واكتملت هذه المرحلة، بتحدي العدو، والقيام بمبادرات حربية في العمق، داخل سيناء برًا وجوًا وبحرًا. فوصلت عمليات الجيش المصري إلى العريش شمال سيناء، وإلى إيلات. وحيال ذلك وفي سبتمبر ١٩٦٩، قدم وزير الخارجية الأمريكية روجرز، مشروعه لـ«السلام» والقائل بأن تحدد «إسرائيل» ومصر، جدولًا زمنيًا للجلاء عن سيناء، وتقوم حالة «سلام» حقيقية بين البلدين، إلا أن ذلك لم يتم. وفي أول يناير ١٩٧٠ ذهب عبد الناصر إلى

المفارقة الغريبة!! أنه كان على رأس منسقي المؤتمر المطالب بإدانة عبد الناصر لتحالفه مع الأمريكان! الطالب العراقي «إياد علاوي»!! الذي أصبح بعد سنوات وفي نهاية التسعينيات، رئيس الحكومة العراقية المؤقتة بدعم من الاحتلال الأمريكي!!

حشد أعضاء الرابطة أنفسهم واتجهوا لمؤتمر لندن، واستطاعوا السيطرة عليه، وصعدوا شابا من فلسطين رئيسا له، وخرج المؤتمر بتأييد لعبد الناصر وخطواته، وأرسلوا برقية بذلك للرئيس عبد الناصر. في٢٧-٩-١٩٧٠، وصل إلى الرابطة دعوة لزيارة القاهرة لمقابلة الرئيس جمال عبد الناصر شخصيا، وطار أعضاء الرابطة فرحا، وباتوا ليلتهم يفكرون في لقائهم التاريخي صباح الغد مع زعيم الأمة العربية. ولكن ليلتهم لم تنته كما تخيل أو حلُم أي منهم، حيث جاءهم في اليوم التالي، خبر وفاة جمال عبد الناصر، وبدلا من أن يلتقوا ناصر شخصيا، التقوه روحا بدموع مخلصة ذرفوها عليه وهم يسيرون في جنازة مهيبة، طافوا بها شوارع لندن.

* * *

ولم تمت أحلام أعضاء الرابطة بموت ناصر، بل ازدادت إصرارا خاصة بعد إعلان

موسكو، وقبل السوفييت أن يسلموا مصر منصات صواريخ سام٣، اصطدمت الطائرات الإسرائيلية منذ مارس ١٩٧٠، بصواريخ سام ٣ وسام ٦، وتخلت عن عملياتها بالقرب من التجمعات السكانية الكبرى، وتمركزت المعركة في منطقة القناة. وكانت القيادات في مقدمة المعارك، واستشهد الفريق عبد المنعم رياض رئيس الأركان. وتحولت الحرب إلى حرب شاملة مع العدو الصهيوني، كما تحول ميزان القوى لمصلحة مصر، واقترح الأمريكان مبادرة جديدة، حيث وجدوا أن الحل السلمي أجدى من الحرب، نص مشروع روجرز الثاني، بتاريخ ١٩ يونيو ١٩٧٠ على وقف إطلاق النار مدة ثلاثة أشهر، واستئناف مهمة يارنج، وقبول جميع الأطراف بالقرار ٢٤٢. رفض عبد الناصر في البداية المشروع ثم سافر إلى الاتحاد السوفييتي حيث أقام ١٩ يومًا. وفي الأول من أغسطس وافق الطرفان على وقف إطلاق النار. وبما أن فترة وقف إطلاق النار قد تحددت بثلاثة أشهر، فإن عملية «جرانيت» لعبور القناة تحددت بتاريخ ٧ نوفمبر ١٩٧٠ من قبل القيادة المصرية، تقدمت منصات صواريخ سام ٣ وغطت مجمل منطقة القناة.وكان يفترض أن تترافق مع المعركة على «الجبهة الشرقية»، حيث ينبغي أن تدخل القوات السورية والعراقية والأردنية والفلسطينية المعركة ضد «إسرائيل»، وخصوصًا أن خطة مشابهة وُضعت على جبهة الجولان السورية.

واتهمت «إسرائيل» المصريين بمتابعة نشر قواتهم العسكرية مما يشكل خرقًا للاتفاق، ورفضت استئناف مهمة يارنج ٦ سبتمبر ١٩٧٠ بما أن المصريين لم ينسحبوا إلى خطوطهم الأولى ودعم هنري كيسنجر الموقف الإسرائيلي، بينما رأى روجرز إفساح المجال للتفاوض».

الحرب ضد الناصريين، وقيام الرئيس الراحل أنور السادات «بانقلاب مايو الشهير»[١] الذي اعتقل فيه قيادات العهد الناصري وأطلق عليهم «مراكز القوى»[٢].

بحث أعضاء الرابطة عن بلد يستقبلهم لعقد مؤتمر عام لِلَمّ الشمل، وساعدهم «عبد الأحد جمال الدين» المستشار الثقافي في ڤيينا في ذاك الوقت، والذي كان يقف موقفا معاديا لانقلاب مايو. التقى بأعضاء الرابطة واتفقوا على ترتيب لمؤتمر لجميع أفرع الرابطة تستقبله ليبيا.

كان صلاح قد حصل على الدكتوراه، وجاءته فرصة إعارة للتدريس في معهد الإدارة العامة في ليبيا، والتقى هناك بـ«أشرف مروان» منسق العلاقات بين مصر وليبيا في ذاك الوقت، وساعدهم في عقد المؤتمر، الذي خرج بإجماع على مواصلة المسير، وأصبح اسم الرابطة «رابطة الطلبة العرب الوحدويين الناصريين». وتشكل مكتب الرابطة من الدكتور صلاح وفتحي عدوان وخيري الدين وتي ونجيب أركوسان وأحمد الحمودي.

استمرت الرابطة في العمل إلى أن أعلنت ليبيا «الزحف الشعبي»[٣] الذي قلب حال

---

(١) انقلاب مايو له مسميان: الأول هو «انقلاب مايو»، وهو المسمى الذي أطلقه رجال العهد الناصري على ما فعله الرئيس أنور السادات معهم، بانقلابه على أفكار ومبادئ ثورة يوليو، والمسمى الثاني هو «ثورة التصحيح» الذي أطلقه الرئيس أنور السادات، على ما أقدم عليه من اعتقال عدد من السياسيين ورجال الثورة، واتهامهم بمحاولة قلب نظام الحكم، واستغلال مراكزهم القيادية في الدولة، وقدموا إلى المحاكمة، من أجل تصحيح الأوضاع في الدولة.

(٢) ومنهم الفريق محمد فوزي «وزير الحربية سابقًا»، و«ضياء الدين داود» وزير الشئون الاجتماعية سابقًا، و«عبد المحسن أبو النور» الأمين العام للاتحاد الاشتراكي العربي سابقًا، و«علي صبري» نائب رئيس الجمهورية سابقًا، و«محمد فائق» وزير الإعلام سابقًا، و«شعراوي جمعة» وزير الداخلية سابقًا، و«د. محمد لبيب شقير» رئيس البرلمان المصري سابقًا، إلى جانب القيادات الناصرية البارزة والتي أوردنا أسماءهم، كانت هناك قيادات سياسية شغلوا مناصب قيادية في الجهاز السياسي والتنفيذي والتشريعي ومنهم: عبد المجيد فريد-فريد عبد الكريم - عبد الهادي ناصف - سعد الدين زايد. وحُكم على هؤلاء بالسجن لسنوات طويلة.

(٣) وحكاية الزحف الشعبي أنه على امتداد سنوات التجريب السياسي الذي مارسه القذافي ما بين عامي ١٩٧٠ و١٩٧٥، من التنظيم الشعبي إلى الاتحاد الاشتراكي العربي إلى الثورة الشعبية بمؤتمراتها ولجانها الشعبية. وعلى الرغم من أن القذافي ظل يرفض فكرة «الأحزاب السياسية»، فقد كان يدرك حاجة نظامه الماسة، إلى «تنظيم سياسي» موالٍ له بالكامل، يستطيع من خلاله أن يُحكم قبضته، على الأوضاع في البلاد كمؤسسات وجماهير، وأن ينفذ بواسطته توجّهاته وسياساته وبرامجه.

ليبيا إلى حال آخر. واختلفت الرابطة مع الأهداف الجديدة لليبيا. فقدم صلاح استقالته وعاد إلى القاهرة.

من أجل هذا التاريخ السياسي الطويل، الذي استمر منذ مطلع الستينيات وحتى نهاية التسعينيات، كان الدكتور صلاح دسوقي مصدرًا للقلق الأمني، والذي انتهى بتصدره لقائمة المتهمين في قضية التنظيم الناصري المسلح. بعد أن ادعى عليه جمال منيب ذلك.

سعى القذافي إلى التعرّف على العناصر المناسبة لهذا «التنظيم» المزمع، وإلى اختيارها من خلال الندوات والمؤتمرات التي كان يعقدها، تحت مظلة «الاتحاد الاشتراكي العربي» الذي أعلن عن قيامه في يونية ١٩٧١.

أول استخدام ظاهر من قبل القذافي لهذه العناصر، كان في السيطرة على نقابات العمال وفي التغلغل في الأوساط الطلابية، وفي التحكم في وحدات الاتحاد الاشتراكي العربي.

وعندما أعلن القذافي عن قيام «الثورة الثقافية» أو «الزحف الشعبي» في منتصف إبريل ١٩٧٣ كانت هذه «العناصر» أهم الأدوات التي استعملها في عمليات «الزحف»..على كل المؤسسات والمواقع الحساسة في الجامعات والمعاهد وفي الإذاعة وبقية المؤسسات الإعلامية. كما كانت تلك العناصر هي التي تولت مداهمة المكتبات وإحراق الكتب والمجلات والصحف!

يوم معاك.. يوم عليك

قالوا.. حال الدنيا يوم معاك ويوم عليك، وقد صدق هذا القول في العديد من المواقف الطريفة التي صادفت الدكتور صلاح قبل أن يصبح المتهم الأول بالقضية.

بعد أن عاد الدكتور صلاح إلى القاهرة أسس «المركز العربي للإدارة والتنمية» «مداك» ومهمة المركز تدريب القيادات في كل مجالات الأعمال على فنون الإدارة الحديثة، وفي عام ١٩٨٤ نظم المركز دورة تدريبية لقيادات الشرطة في محافظة أسيوط، وكان المحافظ وقتها «زكي بدر»، الذي قام باستقبال الدكتور صلاح والدكتورة وفاء الزير، في موكب رسمي حتى قاعة المحاضرات، وفي نهاية الدورة التدريبية، أقام لهما احتفالاً كبيرًا، وأهدى لهما عقدًا وتمثالا مصنوعًا من سن الفيل.

وبعدها بثلاث سنوات، أصبح «زكي بدر» وزيرا للداخلية، وتم القبض على المتهمين في قضية التنظيم الناصري، واقتيد الدكتور صلاح إلى مبنى وزارة الداخلية، أيضا في موكب حافل، ولكنه مختلف هذه المرة، فقد ركب البوكس، وهو معصوب العينين ومكبل بالكلابشات، محاطًا بسيارات الأمن المدرعة!

نظم المركز دورة تدريبية لبعض القيادات الأمنية في قرية مجاويش، ونزل الدكتور صلاح بصحبة «مصطفى كامل» رئيس الحراسات الخاصة في بداية الثمانينيات. قضيا خلال الدورة أوقاتًا سعيدة مرحة. بعدها بعامين، ألقي القبض على الدكتور صلاح، كان «مصطفى كامل» قد صار مساعد وزير الداخلية لشئون مباحث أمن الدولة. وتجاهل معرفته تماما بالدكتورة وفاء الزير، حين حاولت لقاءه لمعرفة أسباب القبض على صلاح.

* * *

بعد انتهاء دورة تدريبية للمركز في الأقصر، توجه الدكتور صلاح إلى المطار للعودة إلى القاهرة، نادى عليه شخص وتوقف أمامه، وعرفه بنفسه بأنه الضابط فلان الفلاني. أخرج من جيبه مسدسًا، وأعطاه للدكتور صلاح، وطلب منه أن يُخفيه في شرابه، ويمر به من البوابة الإلكترونية لاختبارها، وتوجس الدكتور من أمر هذا الشخص، وسأله ماذا لو تم القبض عليه، فطمأنه الضابط وناوله المسدس، قام صلاح بإخفائه في ملابسه، ثم مر من البوابة التي لم تطلق أي صفير، وبعد مروره منها وجد الضابط في انتظاره، أخذ منه المسدس وشكره على تعاونه في اختباراتهم لأمن البوابة الجديدة، واكتشافهم هذا العيب الفني بها.

* * *

تعرف الدكتور صلاح في سجن المزرعة على كوكتيل عجيب من المساجين، منهم فايز المطري جاسوس شبرا، الشيخ حسن السحيمي المتهم في قضية الفنية العسكرية، المجموعة التي اغتالت الذهبي، مجموعة الشوقيين الذين انشقوا على سيد قطب، الدكتور علي معالج التدليك لجمال عبد الناصر المتهم بالتجسس لحساب إسرائيل.

وذات يوم قدمت الدكتورة وفاء الزير شطرنج للدكتور صلاح الذي سعد به بشدة، ونادى على زميله الشيخ محمد كي يلعب معه، وحين وقع بصر الشيخ محمد على الشطرنج، استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، وأخبر الدكتور أن هذا الشطرنج حرام، لأنه يشبه الأصنام، وغادر الزنزانة فترة، وعاد يمسك بالشطرنج الشرعي الخاص به، وهو عبارة عن شطرنج كل قطعه مقطوعة الرأس!

نذالة أم وطنية؟

اثنان تسببا في هبوب العاصفة، التي اقتلعت جذور جمعية الدراسات من أرضها، وعصفت بجذوعها تتلقفها الرياح من كل جانب. الأول هو حامد الذي وصف نفسه وفعله بالوطنية؛ لكني حين بحثت عن فعله في قاموس الأدب والأخلاق، وجدته يعني شيئًا آخر! والثاني هو جمال منيب الذي وُعِد بأن يكون شاهد ملك، ولأن المُلك لله وحده، فلم يحصل سوى على....!

حامد.. كان أمل أُمه أن تراه مهندسا قد الدنيا، ولم تسعها فرحتها حين التحق بكلية الهندسة جامعة الأزهر قسم كهرباء، لكن الشاب المدلل حامد، حسَّر قلب أمه برسوبه العام تلو العام حتى استنزف مرات رسوبه بالكلية فتم فصله نهائيا، وتحطم فؤاد الأم، واستنجدت بابن أختها المهندس جمال منيب كي يرعى ابنها ويحتضنه في عمل، يُنقذه من حالته النفسية المتردية. استجاب المهندس جمال لطلب الخالة، وطلب من حامد العمل معه في ورشته لتصليح الأجهزة الكهربائيه بالقاهرة.

بدأ حامد عمله متضررًا، ولم تُفلح محاولة إشغاله بالعمل في وأد ترديه وإحساسه بالضياع. وظهرت عليه علامات للهو آخر! فبدأ يصرف راتبه بعد أيام قليلة من قبضه، وازدادت مرات الاقتراض التي أثارت ريبة ابن خالته، فدبت بينهما مشاجرات، حاول خلالها جمال إصلاح اعوجاج شخصية ابن الخالة لكنه لم ينصلح، ولم يُصغ إلى أي نُصح، ثم ترك العمل هاربًا إلى بلدته بكفر الشيخ.

عاد حامد إلى بلده ليعيش حياته كما يحلو له في لهو وعبث! ينتظر لحظة مناسبة، لينضح كل ما في قلبه من غصة ومرارة يحملها تجاه ابن خالته.

* * *

حكى راوي ما حدث ليلة القبض على حامد.. أنه ذات ليلة وقبل أذان الفجر بقليل، خرج حامد من منزله، هائما على وجهه، يدخن سيجارة وهو يشعر بالانتشاء الوهمي، مر بجواره عسكري دورية، لاحظ العسكري ارتباك وتوتر حامد، فألقى القبض عليه.

أثناء التحقيق مع حامد، وأسئلة النيابة تتوالى فوق رأسه، حول أسباب سيره أمام مبنى مباحث أمن الدولة بكفر الشيخ؟ وماذا كان يفعل في هذا الوقت الباكر؟ وما سبب ارتباكه وتوتره؟

وكأنما جاءته لحظة «الإنضاح»، التي انتظرها منذ عودته من القاهرة، وما من منقذ من المأزق الواقع فيه، سوى الإدلاء باعتراف خطير، وجاء في اعتراف حامد، أنه كان يعمل لدى ابن خالته المهندس جمال في ورشة يقوم فيها بصنع اختراعات ومتفجرات!!

«كده من غير مناسبة»، على رأي مطلع الأغنية الشهيرة، حامد يحوم حول مبنى المباحث، وهو يدخن هبابه! ثم يفجر اعترافه بالمتفجرات! حدوتة بناؤها الدرامي والقصصي غير معقول! وما علينا سوى التسليم أن هذا كان سبب هبوب العاصفة!

* * *

وبدأ هبوب العاصفة، مع بداية نسج خيوط قضية، جاء أولها في تحقيقات النيابة مع حامد:

س: أين وكيف تم ضبطك؟

ج: أنا كنت نازل أصلي الفجر، في الجامع اللي كنت بصلي فيه بجوار مبنى مباحث أمن الدولة بكفر الشيخ، أي في نفس الشارع، ولكن مش ملاصق له، على بعد حوالي ١٥٠ مترًا وأنا كان عندي مغص في بطني، وقلت اتمشى شوية لحين وقت الصلاة، وفي الوقت ده فيه مخبر وقفني وأخذ مني كارنية الكلية وسألوني عن بياناتي، وبعدين رحلوني على مصر، والكلام ده حصل فجر يوم الثلاثاء ٢٦-٥-١٩٨٧.

س: أنت متهم بالانضمام إلى تنظيم سري غير مشروع، مناهض لمبادئ وأهداف المجتمع؟

ج: غير صحيح ومحصلش.

س: أنت متهم بحيازة وإحراز مفرقعات واستعمالها، وهذا من شأنه تعريض أموال وحياة الناس للخطر؟

ج: لا أنا كل اللي عملته قلت عليه، وما كنتش عارف إن جمال هيعمل الحاجات دي، أو إنه ناوي يستعمل الحاجة اللي جابها من الأصل، لأنه كان بيقولي إن ده ترموستات تلاجة.

س: هل لديك أقوال أخرى؟

ج: أيوه أنا عايز أقول إني ممكن أتعاون، لمصلحة التحقيق والبلد، إلى أكبر قدر، وأنا غلطت إني ما بلغتش، لأني ما كنتش عارف إنه ناوي يعمل الحاجات دي، لكن أنا ندمت على غلطي ومستعد إني أساير جمال، وديه مش نذالة مني! ولكن لخدمة الوطن! لأني حسيت بغلطي.

* * *

لم ينزل اسم حامد في قرار الاتهام كمتهم، ولم يتصدر اسمه قائمة الشهود في القضية ضد المتهمين، وكما ظهر اسم حامد فجأة! اختفى أيضًا فجأة!

وظللت في حيرة حتى يومنا هذا، أتساءل.. هل يا ترى هناك علاقة بين معاناة حامد من المغص واختفائه؟!

شاهد ملك

قبل القضية لم أسمع باسم جمال منيب لا واقعًا ولا حتى عرضًا، لكني عرفت بعدها أنه مهندس إلكترونيات، وهو أخو صديقنا محمد منيب، زوج صديقتنا وفاء المصري وهي بالمناسبة أخت سناء المصري.

تم اعتقال جمال نهاية شهر مايو ١٩٨٧، إثر اعتراف ابن الخالة، بدءوا التحقيقات معه، واستمرت حوالي ثلاثين يوما متواصلة، لا ينقطع فيها التحقيق إلا بعد أن يشعر وكيل النيابة بالإنهاك الشديد. حاول المحاميان أحمد عبد الحفيظ وسيد شعبان طوال تلك الفترة، أن يحضرا التحقيقات مع جمال، إلا أنهما مُنِعا حتى من الاقتراب منه!

ذات يوم تصادف أن كانت وفاء المصري واقفة أمام بوابة نيابة أمن الدولة، فشاهدت قدوم سيارة ونزل منها جمال، وفي سرعة دلفوا به إلى الداخل، جرت وفاء وراءهم لتلحق بهم، وطرقت باب الحجرة فخرج لها وكيل النيابة، سألته عن جمال، فنفى نفيا قاطعا وجوده، أصرت وفاء أنها رأته بعينها، صمت وكيل النيابة برهة، ثم دخل إلى الحجرة، عاد لها بعد دقائق، ليخبرها أنه وجد جمال بالداخل فعلا!! لكنه يرفض حضور أي محامٍ معه التحقيق وهو كوكيل نيابة يعمل جاهدا، على مراعاة نفسية المتهم، ولا يفرض عليه شيئا يأباه!!

في تلك الفترة اعترف جمال على المتهمين، بمشاركتهم له في التنظيم الناصري المسلح، وبأنهم اشتركوا معه في التدريب على استخدام الأسلحة والمتفجرات، إلخ.

* * *

غيظ يمحقني وفضول ينهشني، كلمات «مجعلصة»! لكني لم أجد كلمات سواها تُعبر عما في صدري تجاه جمال منيب. لماذا جرجر الشباب في تلك القضية، ولماذا اعترف عليهم بما اعترف؟! لا أعلم!

رأيته طوال أسابيع التحقيقات، أثناء دخوله مبنى نيابة أمن الدولة وخروجه منها، شخصًا قصير القامة، أبيض البشرة، مطأطئ الرأس أحيانًا، زائغ البصر أحيانًا أخرى. طريقة سيره تذكرني ببيت شعر قديم يقول شطره: مِكر مِفر مُقبل مُدبر معا. فلا تعلم إن كان يسير متقدما إلى الأمام، أم عائدًا إلى الخلف، أو حتى يحاول التملص والهروب! كل ذلك لم ينبئني بتركيبة شخصيته التي لا أزال أحاول فهمها. بعد كل تلك السنين!

إلى أن رأيته ذات يوم وهو يدخل إلى النيابة، وزوجته تقترب منه، ويعانقها في حرارة ثم يُقبل رأسها ويدها، وهو يبكي كطفل أخطأ ويطلب من أُمه السماح، وقلب الأم أقصد الزوجة، يبكي شفقة وألمًا عليه، كانت سيدة بيضاء نحيفة، رقيقة وهادئة للغاية، تخرج الكلمات من بين شفتيها وكأنها تبكي، هذا في الوضع العادي الطبيعي، فما بالك في الوضع الذي كانا فيه؟!

وقف جمال أمام زوجته، تخرج الألفاظ من بين شفتيه مصحوبة برذاذ مائي، وهو يتوسل لها:

- سامحيني.. سامحوني كلكم.

وسألت نفسي وقتها، هل يمكن أن يؤدي التعذيب إلى شخصية كتلك، أم أن هذه طبيعته من البداية؟!

استماتت المحامون كي يُسمح لهم بالاطلاع على ملف التحقيقات مع جمال، وبعد عذاب حصلوا على الملف، واستطاع بعضهم الحضور معه، أثناء عرضه على القاضي في غرفة المشورة، وهناك تراجع جمال عن كل ما اعترف به.. وأقر أنه قال ما قال تحت وطأة التعذيب والإكراه!

جاء تراجع جمال في أقواله من ملف التحقيقات:

«تم التحقيق معايا في إدارة مباحث أمن الدولة، وكان التحقيق عبارة عن إرغامي على اعتراف بملكية أشياء، فلما رفضت في الأول، قيل لي فيه حاجات بتاعتك وإما بتاعة مراتك اللي احنا قلنا إنها جاية من شقتك. وحاجات تانية يا إما بتاعتك يا بتاعة أبوك. ثم أخذوني وأسمعوني صوت والدي»[١].

«أنه لم يتهم أحدًا معه، مع ضربهم الشديد له والمؤلم، حتى أسمعوه صوت والده وهددوه أنهم سوف يحضرون زوجته. وأنه اُتهم أمام ناس، لا يعرفون خوفًا على عرضه، لأنهم سوف يعتدون على زوجته».[٢]

«في النهاية قلت لهم موافق، وأصبحت من يومها حتى المثول أمام قاضي التحقيقات في ١-٨-٨٧ عبارة عن جهاز تسجيل وإنسان يُلقن في المباحث ويفرغه في ورق النيابة».[٣]

* * *

حصار من كل جانب طوق جمال منيب، فقد تسبب بما فعله بمصيبة للعائلة كلها، فهو معتقل في سجن، وأخوه محمد في سجن آخر، وأخوهم الثالث محمود مسافر للخارج لا يستطيع العودة، خوفا من اعتقاله هو الآخر، وتشتت شمل العائلة، وضربت الأزمات على حياته كالصواعق.

فها هو والده المسن يُعتقل مدة يومين، يخرج بعدهما محطما، ولا يمر عليه سوى أسبوعين حتى يصاب بانفجار في المخ، وتلقى روحه ربها، وتصاب الأسرة بحالة حزن شديد وحداد، وينخلع قلب جمال الذي يشعر بأن والده مات غمًا بسببه!

وتتوالى عليه النكسات، وتمرض أُمه وتُفضل أن تلحق بزوجها، بعد مرور عام، ليبقى جمال في سجنه، وتتشبع روحه بملامح أكثر تعسًا وألمًا، تجعل كل من يراه، يشعر بالشفقة والرثاء عليه، بعد أن كان الجميع في حالة من الغضب والنقمة منه.

---

(١) تحقيقات ص ٦٧٧و٦٧٨.

(٢) من محضر غرفة المشورة جلسة ١٦-٨-٨٧.

(٣) ص ٦٩٠.

طرائف من ملف التحقيقات

جاء يوم العرض.. وهو اليوم الذي واجهت فيه النيابة المتهمين مع شاهد الملك في القضية جمال منيب، وفي يوم مواجهة جمال بغمري، حدث الموقف التالى:

كان غمري جالسا على الكرسي أمام وكيل النيابة، ثم دخل جمال إلى الحجرة، وأخذ يتحدث عن معرفته بغمري، وكيف سافر معه للتدريب على السلاح، واستطرد في شرح العملية التي قاموا بها معا في مصر، فجاء على لسان جمال من ملف تحقيقات النيابة:

«إنهم اتفقوا بعد عملية اختطاف الطائرة المصرية، على القيام بعمل لإظهار الاحتجاج على التطرف الأمريكي، بأن يقوموا بنسف بعض المنشآت الأمريكية في مصر، وإنه التقى والمتهم الماثل «أي غمري»، وباقي أعضاء التنظيم في ميدان عبد المنعم رياض، وإنه تقرر أن يقوم المتهم الماثل «أي غمري»، مع آخرين بتفجير البنك المصري الأمريكي.

ثم عاد جمال وقال إن المتهم الماثل «أي غمري»، لم يقم بهذه العملية، وربما يكون قد اشترك في تنفيذ أي عملية أخرى! من المتفق عليها، وأنه لا يتذكر أيًّا من العمليات اشترك بها!!».

كل ذلك وجمال واقف أمام غمري يواجهه بما يتذكره ولا يتذكره، وغمري في حالة اندهاش وتَعجُب من تلك الشخصية! مما دفع غمري إلى القيام بحركة من حركاته الفجائية، بعد أن أفرغ جمال ما في دلوه! وقف غمري ومد يده مصافحا جمال، وقبله على خده يمينا وشمالا. واستغربوا جميعا، فسأل وكيل النيابة غمري:

س: ما قولك فيما قرره المتهم جمال منيب في مواجهتك، من اتصالك التنظيمي ونشاطك فيه؟

ج: هذا كلام غير صحيح.

س: وما الذي دعاك إلى مصافحتك وتقبيلك للمتهم جمال منيب؟

ج: أنا فعلت ذلك على سبيل الاستنكار منه!!

* * *

ومن ملف تحقيقات النيابة، قال الدكتور صلاح عن معرفته بجمال..

- أعرف جمال منيب وقد سبق أن استعنت به في إجراء توصيلات التليفونات الداخلية بالمركز، كما أرسلت له جهاز تليفزيون «ناشيونال» معطلًا كي يقوم بإصلاحه، وما زال طرفه حتى الآن!

* * *

من محضر تحقيقات النيابة، باعترافات جمال على أعضاء جمعية الدراسات:

«أحب أن أضيف بالنسبة لفتحي اللي عرفت اسمه الحقيقي حافظ، أثناء تعاملي معه بعيدًا عن التنظيم، وهو كان بيعمل لي مطبخ قطعتين، مقاس ١٢٠ سم، ثلاث ضلف، العلوية منه ضلف مجهزة بالزجاج، والجزء السفلي ثلاث ضلف خشب ثلاثة أدراج تعلو هذه الضلف وقطعة أخرى من المطبخ سفلية مقاس ١٨٠ سم! بأربع ضلف وأربعة أدراج، تعلو هذه الضلف، ومكتبة ١٧٨سم × ٢٣١ سم! تتكون من أربعة قوائم مزدوجة من الزان مقسمة ٤٠ سم، ٩٠ سم، ٤٠سم! وأثناء الاتفاق على هذه الأشياء، وترددي عليه عرفت أن اسمه الحقيقي حافظ لما سمعت بينادوا عليه في الورشة باسم حافظ، والورشة بتاعته في طرة قريبة من السجن، اللي هناك، حتى كان عمل المكتبة بارتفاع ٢٣٨ سم! غير الاتفاق من أنه يكون ٢٣١ سم!!».

* * *

في ملف التحقيقات جمال يحكي عن لقاءاته بالتنظيم فقال:

س: ما الذي حدث بينكم خلال اللقاءين التنظيميين في إطار تشكيل المجموعة التي أقررت بها الآن؟

ج: أول لقاء كان حاضر فيه علي عبد الحميد وكان اللقاء التأسيسي للمجموعة وكان الساعة التاسعة مساء أمام سينما سفنكس بالمهندسين، واتفقنا على لقاء آخر يضم نفس المجموعة وكان ميعاده بعد أسبوع، وقد اجتمعنا في نفس المكان وفي نفس الساعة تقريبا، وأخذنا العربية ومشينا وكان النقاش حولين البرنامج الخاص بالتجارب وقلنا إن كل واحد يحط تصوره عشان نتناقش فيه المرة القادمة وحددنا لقاء آخر يتم بعد خمسة عشر يومًا بجوار كوبري الجيزة وفي شارع مراد، ولكن هذا اللقاء لم يتم، بعدم حضور حازم وبلغت علي عبد الحميد، واتفكت المجموعة! ولم يتم لها اجتماع بعد ذلك!

وأذكر أنه بالنسبة للاجتماعين السابقين، إن في الاجتماع الأول بعد ما خلصنا رحنا أكلنا ساندويتشات هامبورجر من الكشك اللي أمام باب سينما سفنكس! وفي الاجتماع الثاني رحت وصلت فتحي قرب محطة باب اللوق وكنا كلنا مع بعض وأكلنا بسبوسة على اليسار في الشارع بتاع محطة باب اللوق وأعتقد إن اسمه الشامي!

التعذيب

أنـا كل يــوم أسمع.. فلان عـذبــوه
أسـرح في بغــداد والجـزاير وأتـــوه
ما أعجبش م اللي يطيق بجسمه العذاب
وأعجب مـن اللي يطيق يعذب أخوه

عجبي

صلاح جاهين

في المعتقل

في اليوم التالي لاعتقال غمري، وقبل أن يؤذن الفجر فُتحت زنزانته وقادوه معصوب العينين إلى الخارج، أوقفوه في فناء واسع، خلعوا عنه جميع ملابسه، تركوه في العراء، كل فترة يأتي أحدهم ويسكب جردل ماء على جسده، ثم يترك حتى يجففه الهواء البارد! ويتكرر المشهد مرات طوال اليوم.. في نهاية اليوم قادوه إلى حجرة، وقف أمام حائط، وشخص يقف خلفه، يصرخ في أذنه:

– اعترف إنك مشترك في تنظيم سري.

وحين أجاب غمري بالنفي شعر بصفعة قوية على قفاه، فخُبط رأسه في الحائط الذي أمامه. وقبل أن يفيق من دوار الخبطة، صرخ الشخص في أذنه:

– مين اللي حاولوا تفجير السفارة الإسرائيلية، وقتل الإسرائيليين في معرض الكتاب؟

وقبل أن ينهي غمري نفيه بالعلم، جاءته الصفعة التالية، ثم صرخة:

– وإنت بقى منهم مش كده؟

وأيضًا قبل أن ينفي جاءته التالية، وتوالت الصفعات واللكمات، وحرق جسده بالسجائر. وأشياء أخرى!

* * *

بعد أربعة أيام متواصلة من التعذيب، تركوه في الزنزانة كي يستريح قليلا، وحين عادوا ليقتادوه مرة أخرى، وجدوا جسده ملقى على الأرض في حالة غيبوبة، حاولوا إيقاظه بشتى الطرق لم يفلحوا، فتم استدعاء المأمور، الذي فزع حين رأى اصفرار وجهه وجسده كله، فطلب الطبيب الذي قام بإسعافه على وجه السرعة، بعد يومين بدأت الحياة تدب في جسد غمري مرة أخرى وقام المأمور بزيارته ومعه زبدة كاكاو وخيار، الأولى كي يدهن بها شفتيه اللتين تشققتا وبدأتا تنزفان دماء، وأما الثاني كي يعوض نقص الماء في جسمه الذي أصبح يهدده الجفاف.

على الناصية

على الناصية هو موقع زنزانة غمري في معتقل ملحق مزرعة طره. بمعنى أنها كانت أول صف من صفوف الزنازين في الدور الأرضي. بعد أن أصابه ما أصابه من التعذيب، تركوه في زنزانته عدة أيام، وفي فترة الفراغ تلك اكتشف غمري وجود حفرة صغيرة في الحائط تمكنه من رؤيه السائرين في الممر، ومن خلال تلك الحفرة شاهد كل المتهمين في القضية، أثناء اصطحابهم من زنازينهم وهم بكامل صحتهم وصالبين طولهم، ورؤيتهم بعد عودتهم من التعذيب وكل منهم يجرجر قدميه جرجرة، ويسيرون على الأرض بفعل الجاذبية. بعد أن تغير لون أجسادهم العارية ما بين بقعة زرقاء وأخرى حمراء، وتورم كل ما يمكن أن ينتفخ في جسدهم، الأيدي والأرجل والعيون والخدود!

كان يشعر بالألم لرؤيتهم على هذا الحال، ورغم أن الموقف مأساوي، إلا أن غمري لم يتمالك نفسه من الضحك حين اكتشف نوعًا من التعذيب النفسي وقع في فخه هو شخصيًا لأيام بطولها. يبدأ هذا التعذيب بأن يعصبوا عين المتهم، ثم يخرج من الزنزانة ليسير في ممر طويل، سائرا بجواره عسكري، كل بضعة أقدام، يصرخ العسكري في المتهم:

- حاسب أمامك حائط.

فيحني المتهم ظهره كيلا تصطدم رأسه بالحائط، ثم يستكمل سيره، خطوات أخرى ويصرخ العسكري:

- حاسب قدامك سلم.

فيرفع المتهم قدمه لأعلى، وينزلها متحاشيًا السقوط من على درج السلم. خطوات أخرى ويصرخ العسكري:

- إوعى ميه وسخة! نط.

وينط المتهم في الهواء، محاولا الابتعاد عن الماء القذر. وهكذا لمرات عديدة.

لم يسلم من هذا التعذيب أحد، الدكتور صلاح وياسر والصاوي وحافظ، جميعهم خضعوا له.

وضحك غمري حين رآهم من خلال ثقب الحائط، إذ لم يكن هناك في الممر، لا حائط و لا سلم ولا حتى مياه قذرة!

نساء معتقلات

في نفس اليوم والساعة فجرًا، كانت سيارات الأمن بحشودها المدججة بالأسلحة والرشاشات تتجه نحو منازل كل المتهمين في قضية التنظيم الناصري، ومن لم يجدوه يعتقلوا أي فرد من أسرته، وغالبًا كان الفرد الأضعف، سواء كان أضعف صحيًا أو لكبر السن، كي يكون ورقة ضغط على المتهم الهارب لتسليم نفسه.

ومن بين من تم اعتقالهن، منى زوجة علي عبد الحميد، كانت قد وضعت حديثًا رضيعها «محمد» وسعدية زوجة محمد شعبان. وصلة الأول والثاني بأعضاء جمعية الدراسات، أن «علي» هو أخو محمود عبد الحميد، وفي ذات الوقت شريكه مع شعبان في مكتب للمحاماة بميدان الكيت الكات.

وحين توجهت قوات الأمن إلى مكتب المحاماة ولم تجد علي ولا شعبان، وكذلك لم تجدهما في منزليهما، تم اعتقال زوجتيهما بدلا منهما. وباتت منى زوجة علي وطفلها الرضيع مع سعدية زوجة شعبان، في حجرة المباحث. التقيا فيها مع سعاد أخت أحمد عبد المعطي، لم ينغصهن الوضع المهين الذي كن فيه، بقدر ما نكدهن صراخ الطفل الرضيع، الذي ظل ساعات الليل الطويل مبلل الملابس، رافضًا وبعناد غريب أن يرضع من صدر أمه.

لم تحتمل سعدية الموقف، صرخت على العسكري، الذي يقف على الباب، وتعاركت معه من أجل الطفل، إلا أنه قام بتعنيفها بقسوة. أجبرت جدعنتها على الخنوع، وكبتت نخوتها بإذلال. صمتت سعدية وهي تمسك بجنبها، تبكي في صمت آلام التهاب الكُلى.

كانت آمال عبد المعطي تقف أمام مبنى المباحث، رافضة أن تتحرك قبل أن ترى أختها سعاد وتطمئن عليها، وكأن الله أرسلها لنجدتهن. فحين أصاب صراخ الطفل رأس الضباط بالصداع، أرادوا إسكاته بأي طريقة، وحين جاءت آمال، طلبوا منها أن تأتي بحليب للطفل وغيارات. وأسرعت آمال بشراء طعام لهن جميعًا وللطفل. واستكان الطفل في حضن أمه، وجلست السيدات الثلاث على الكراسي الخشبية، في سكون وانتظار مؤلم.

فور علمنا بخبر اعتقالهن، توجهت ميرڤت أبو تيج إلى مكتب النائب العام، وتقدمت بشكوى، ونشرت جريدة الأهالي الخبر، ومن ثم شنت جرائد المعارضة، حملة ضد ما يقومون به من اعتقالات عشوائية لأهالٍ وسيدات أبرياء.

في صباح اليوم التالي، وبعد ساعات الظهيرة بوقت طويل، تم التحقيق معهن عن ذويهن والأماكن المحتملة لهروبهم فيها، وبعد أن تأكدوا من عدم معرفتهن بمكان الهاربين، تم إخلاء سبيلهن، عادت كُل منهن إلى منزلها، لكن الطفل محمد، لم يعد أبدًا إلى الرضاعة الطبيعية من صدر أمه.

محجوب والشيشة

كان الجو العام في حالة استفزاز من المتهمين الهاربين، لدرجة أنه بدأت حملة اعتقالات ليس فقط لأهالي الهاربين، بل امتدت لأصدقائهم المقربين، سميت حملة اعتقالات «الرهائن» ومنهم كان أحمد محجوب، وفي المعتقل ذاق محجوب أصنافا من الصفعات والركلات اعترف على إثرها بأنه على موعد للقاء مصطفى ياسين بمقهى شعبي، وبدأ الترتيب لحملة ضبط واعتقال بخطة مفادها.. أن يذهب محجوب لمقابلة ياسين على المقهى في موعده المحدد، وبشكل طبيعي يجلس ويطلب الشيشة، وحين يرى ياسين يقترب من المقهى يرفع يده إلى أعلى، كإشارة البدء ليهجموا ويقبضوا عليه.

وفي التاسعة مساءً وفقًا للموعد المرتقب، كان محجوب يجلس بالمقهى، الذي أُخلي تماما من أي زبائن، سوى رجال مباحث بالملابس المدنية، يتناثرون هنا وهناك، وظل محجوب في مكانه يدخن الشيشة حجرًا تلو حجر، ومشروبًا تلو مشروب، والمباحث تترقب وصول ياسين، حتى تخطت الساعة منتصف الليل بكثير، ولم يعط محجوب الإشارة، ولم يحضر ياسين!

وأُعيد محجوب إلى المعتقل، ليتلقى أصنافًا جديدة، وأكثر سخونة من الصفعات والركلات وشتائم من عينة «يا روح أُمك كنت رايح تتفسح على القهوة وتشيش»..

- يا ابن الـ...! هنخليك ترجع كل العصير اللي شربته.

وبالفعل تقيأ محجوب كل أنواع العصائر التي شربها في المقهى، على جميع الألوان،

ومرض مرضًا شديدًا في معدته، ظل يعالج منه سنوات طويلة، ولم تتوقف آلامه سوى العام الماضي..

رحمة الله عليك يا محجوب.

بازوكة

بازوكة كان أحد الأصدقاء الذين تم اعتقالهم، وكان حديث العهد بالاشتراك في جمعية الدراسات، لكنه كان شديد الحماسة في العمل الطلابي، وحين تم اعتقاله ناله نصيبه من الركل والضرب المبرح كما نال الآخرين، فاضطر للاعتراف. كما جاء على لسانه في خطابه الذي أرسله لأعضاء الجمعية، لن أشرح ما جاء فيه، ولكن سوف أنقل لكم حرفيا ما جاء في خطاب الاعتراف!

«الأستاذ «؟»... أكتب إليك هذه الرسالة، وأنا أحترق ألما وخجلًا من نفسي، ولا أعرف كيف أبدأ، لكم أشعر بانهيار في بنياني الداخلي.. في القيم والمبادئ التي أومن بها، ليس بسبب أن المبادئ هي الخطأ، وإنما يكمن الخطأ داخلي أنا، منذ اعترفت ظلما وبهتانًا على الأخ «؟» والأستاذ «؟»... لكن أقسم لكم، أنه وقع تحت تأثير التعذيب، والدليل على ذلك، أنني اعترفت على نفسي، منذ بداية التعذيب، تحملت طيلة ثلاثة أيام متصلة تعذيبًا شرسًا، كنت أرى فيها والله بدون مبالغة، القائد المعلم وهو يقف شامخًا عاليًا، ينظر إلينا بابتسام وعِزة، وكأنه يقول الله معكم، وكنت أرى رجلا ملتحيًا وامرأة محجبة. أما حين تم انهياري، كأنني رأيت القائد المعلم وهو يشيح بوجهه، نظر إلينا باحتقار وازدراء، وكأنه يقول لستم أبنائي، وكنت من بين الموجودين في الحالتين الأولى والثانية.

... وحين مكثت بمفردي، أدركت مدى الجُرم، الذي اقترفته، في حق اثنين، لا أعلم عن أحدهما سوى اسمه فقط، والثاني هو أخ بالنسبة لي. فقررت العدول عن اعترافاتي مهما كان الثمن، فيكفي نذالة وخيانة، أن أعترف على أي شخص لا أعرفه، لأرحم نفسي

من التعذيب. وأعترف أنني كنت حقيرًا، ووصل من امتهاني لذاتي، واحتقاري لها، أن قبلت مواجهة أخ آخر هو «؟»، وسأشرح لكما فيما بعد كيف تمت المواجهة، إنني أحترق ندما وخوفًا، من أن تستخدم اعترافاتي كدليل على الأخ «؟» والأستاذ «؟»، لكنني لست مرتاحًا، لأني ألغيت اعترافي.

... أعود فأقول لا ألوم نفسي فقط، بل ألومكما أيضًا، لأنكما لم تنقلا لي حصيلة التجربة، وأنكما تعلمان، أنني قليل الخبرة في هذه المسائل، ولا أعلم كيف أتصرف.

سأدعو الله أن يغفر لي خيانتي، في حق أناس، ضحوا بكل ما يملكون، في سبيل الأرض العربية والأمة العربية. ألتمس منكم المعذرة والعفو، عما بدر مني، وألتمس منكم الحكمة والخبرة. سامحوني..».

* * *

لكن تلك الكلمات التي كتبها بازوكة في خطابه، التي إن نمت عن أشياء، يكفيها شيء واحد فقط، هو تلك الدرجة من البراءة والنقاء، التي كان ينطوي عليها كل عضو من أعضاء جمعية الدراسات، وكنت منهم يا بازوكة، بنفس النقاء وبروح شاب، في مقتبل الحياة، يبحث عن طريق وهدف يحيا من أجله..

انتحار فاشل

حاول محمد زارع الانتحار مرتين خلال فترة اعتقاله، ولكل محاولة انتحار قصة..

المحاولة الأولى.. بعد أن سلم نفسه بيومين، قاموا بتعذيبه للاعتراف بمكان الهاربين. ويحكي زارع عن تعذيبه فيقول.. عذبوني بطريقة «الخروف المشوي» يعني ربطوا يدي وقدمي بحبل، وعلق الحبل مش عارف على إيه، لأني كنت معصوب العينين، وبخرزانه سوداني تم ضربي على قدمي، ويد رجل ملاكم تضربني بالبوكس، شعرت بأن فكي خلع من مكانه، وأصبح اللعاب يسيل من فمي، دون أي قدرة على التحكم فيه بالفتح أو الإغلاق، واستمر التعذيب لأيام دون طعام، كانوا أحيانًا يجيبوا لي ميه بسكر أو شاي، ولما كنت بروح الحمام، كان العسكري يدخلني الحمام ويغلق الباب خلفه بصوت عال. مرت أيام، لحد ما مرة دخلني الحمام ورزع الباب، ففككت عصابة عيني قليلا، وأنا جالس اعمل الحمام، وفوجئت أن الحمام من غير باب، والعسكري واقف أمامي يراقبني، وأن صوت رزع الباب كان لباب تاني، يعني كل المرات اللي فاتت كنت بعملها على الملأ، وشعرت بجرح في الكرامة.

ذات مرة بعد أن عذبت تركوني فترة وحدي، شعرت بأني معلق بين كرسيين، فقمت بهز جسدي، حتى وقع الكرسي على جانبه، ولمس جسدي البلاط، وبصعوبة شديدة فككت جزءًا من العُصابة عن عيني ونظرت حولي، كنت أشعر بالمهانة الشديدة، ورغم آلام جسدي الرهيبة، إلا أن آلام روحي كانت أكثر قسوة، فكرهت الحياة، وقتها وقع بصري على شفرة حلاقة أخذت أزحف نحوه لأمسكه وأقطع به شرايين يدي، كي

أموت وأتحرر مما أعاني، ولكن العسكري دخل الحجرة فجأة وأعادني مرة أخرى إلى موضعي.

المحاولة الثانية.. بعد انقضاء فترة أسبوعين كاملين من التعذيب، قرروا نقلي إلى مكان آخر لا أعلم أين؟ ولكنني تصورت أن الحال في المكان الجديد، سيكون أسوأ مما سبق، وأركبوني سيارة انطلقت بسرعة، وفي منتصف الطريق أزاحوا العصابة عن عيني، فرأيتنا نسير فوق كوبري ستة أكتوبر، وزغلل عيني ضوء النهار، ورأيت ناسًا وسيارات منطلقة، صورة كادت مخيلتي تنساها، ومن شدة خوفي من المكان المجهول الذي سينقلونني إليه، فكرت في الانتحار مرة أخرى، بأن أفك مسوجر باب السيارة، ثم أقذف بجسدي للخارج كي تدهسني أي سيارة تمر، ولا أدري كيف فهم الرجل بجواري ما يدور في عقلي، فنظر إليّ وقال.. شيل اللي في دماغك ده أحسن لك، وأحكم الكلابشات في يدي مرة أخرى.

ابني بطل

وقف الرجل على سلم النقابة، يصرخ في محامين جلسوا في حديقة النقابة، لم أفهم ما يقوله في البداية، بعد فترة إصغاء، عرفت أنه والد عصام حنفي الذي اعتقل منذ يومين مع حمدي كامل ويستغيث الأب بالمحامين لنجدة ابنه، ويلعن اليوم الذي تعرف فيه على هؤلاء الطلبة المشاغبين من أعضاء جمعية الدراسات.

وبدأ لغط وهمس يدور بين جالسي الحديقة، فأسرعت ميرفت أبو تيج نحو والد عصام.. أمسكته من يده، وفي هدوء توجهت به إلى ركن بعيد، حاولت ميرفت تهدئة ثورة الأب الملتاع على فلذة كبده الذي اختنقت الكلمات في حنجرته، فكاد صوته يخرج مشوبا ببكاء، تأبى رجولته أن يظهره أمام الناس، لم تتركه ميرفت قبل أن يبتسم، ويتركها على الله وعليهم.

* * *

أما عن عصام فتوجه في صحبة الأمن إلى مكان مجهول، شعر أنه ينزل على أدراج سلم، ثم تنزع العصابة من على عينيه، ويودع في زنزانة انفرادية. الظلام الحالك منعه من رؤية موضع قدمه، لكنه استشعر بها تغوص في بركة ماء رائحته نتنة.

بات عصام ليلته ينام واقفا، ومع طلوع نور الصباح، حاول استكشاف الزنزانة، التي كانت أسفل بدروم مبنى ما، بالكاد رأى شباكًا يتوازى مع رصيف الشارع، ولمح قدم شخص يعرفه «س» زميله بالكلية، نادى عليه، وطلب منه أن يشتري له سجائر ويطمئن أهله، ولكن «س» لم يبتعد قدر أقدام حتى تم اعتقاله، بعد أن سمعوا حواره مع عصام وعلموا بعلاقته به.

عُصبت عين عصام من جديد، وتم ترحيله إلى مكان آخر لا يعلمه، هناك ذاق من مرارة الإهانة والتعذيب ما لم يره في حياته، والتقى هناك مع حمدي أثناء دخولهما الحمام. وتحمل الصديقان التعذيب عشرة أيام متواصلة، سمعا خلالها صوت صراخ زارع.

* * *

طوال عشرة الأيام دأب المحامون على البحث عن عصام وحمدي، ولم يذق والد عصام يومًا من الراحة ولم تهدأ أنفاسه، كان يجلس في حديقة النقابة يستمع إلى الأمهات والزوجات يتحدثن عن المتهمين بكل فخر واعتزاز، وتعجب من قدرتهن على الظهور بكل تلك القوة والشجاعة، ومع الأيام بدأ يتحدث مثلهن، دون خوف لا على نفسه ولا على ابنه.

وفي اليوم الحادي عشر استطاع المحامون معرفة مكان المعتقلين، فاستخرجوا تصريحًا من النائب العام لزيارتهم في لاظوغلي، لكنهم كانوا قد أطلقوا سراحهم قبل يوم من موعد الزيارة، فيما عدا زارع الذي تم ترحيله إلى سجن مزرعة طرة.

عاد عصام إلى منزله، تستقبله أمه وأخواته بالزغاريد، وتقدم الأهل يهنئون الأب، الذي وقف أمام باب العمارة يتلقى التهنئة، وهو يشير على ابنه في زهو وإعجاب.، قائلا لهم:

- شوفتوا ابني البطل.. عصام البطل.

مرت أسابيع ارتاح فيها عصام، ومن ثم عاد إلى الجامعة، يحضر دروسه ومحاضراته وقابل «س»، وما إن رآه، صرخ «س» في وجهه وهو يجري مبتعدًا:

- يا ولاد الـ... مش عاوز أعرفكم تاني.

شقة دعارة

بعد هوجة الاعتقال الثاني، هرب حافظ أبو سعدة خوفًا من معاناة الاعتقال مرة أخرى، وبعد فترة قرر أن يسلم نفسه بعد زارع، وكان قد توجه إلى الأستاذ فريد عبد الكريم يسأله النصيحة، ونصحه الأستاذ فريد أن يسلم نفسه. لكن حافظ ظل حائرا، وبعد تفكير قرر عدم تسليم نفسه مرة أخرى، مطبقا مقولة:«اللي عاوزني يجي لي أنا ما برحش لحد»، ومارس حياته بشكل طبيعي، وتوجه إلى الجامعة، واستقبله شباب الجمعية بحفاوة وترحيب، ومضى اليوم على ألف خير، ثم انسحب من وسطهم في هدوء، ليخرج من الجامعة من باب كلية التجارة، وأمام بوابتها الحديدية، وجد شخصين ضخمي الجسد يطبقان عليه، يمينا ويسارا، ويقودانه نحو سيارة ڤولكس تقف أمام الباب انطلقت بهم في سرعة البرق.

وهناك عُصبت عينا حافظ، وتوالت عليه اللكمات والضرب من جوانب الحجرة الأربعة، ساعات من التعذيب المتواصل، كي يعترف أين كان هاربا؟ وأين مكان الهاربين الآخرين؟ وكي يتخلص حافظ ويستريح جسده من التعذيب قليلا، أخبرهم عن مكان شقة في شارع الهرم، كان يسكن بها أعضاء جمعية الدراسات المغتربين العام الفائت، انتقلت القوات بصحبة حافظ إلى موقع الشقة في شارع الهرم، وأشار لهم على الشقة، واقتحمتها قوات الأمن ليفاجأوا بأنها وكر للدعارة، وخرجت النساء والرجال منها عرايا!!

«كانت تلك الشقة ذاتها، يقطن بها أعضاء الجمعية المغتربين، وذات ليلة اجتمع عدد كبير منهم، ليقوموا بكتابة لوحات أحد المعارض، وبعد دخول الليل، والناس نيام،

بدأت أصواتهم تعلو لتصل إلى صاحب العمارة، فنزل إليهم ينبههم لصوتهم العالي، وحين فتحوا له الباب صعق لمنظر الشباب وعددهم، فدخل وأخذ ينظر ويتأمل ما يفعلونه، فوقع بصره على إحدى اللوحات مكتوب عليها الثورة العربية، فصرخ فيهم:

- يا نهار أسود! الثورة العربية.. وفي بيتي!

وطلب منهم إخلاء الشقة فورا. بالفعل انتقل الشباب إلى شقة بالمنيل. تاركين الشقة وصاحبها، الذي رفض الثورة العربية في بيته، لكنه قبل فيه بأشياء أخرى!!».

* * *

أعيد حافظ إلى محبسه مع تعذيب أشد قسوة، تنكيلا بما فعله. وتوالت اللكمات والضرب المبرح، وصرخ حافظ معلنا تذكره مكان الهاربين، وفي تلك المرة أرشدهم عن موقع شقة في شارع المنيل، كان يقطن بها أيضا بعض شباب الجمعية المغتربين، وتوجهوا للمرة الثانية إلى الشقة، ووجدوا هناك أسرة محترمة، فتح لهم الأب الذي ما إن وقع بصرهم عليه، حتى أمسكوه من قفاه، وجرجروه على السلالم، حتى واجهوه بحافظ.. وسألوه :

- هو ده علي عبد الحميد الهارب؟

ونظر حافظ إلى الرجل المسكين:

- لا مش هو.. بس فيه شبه منه!!

وأعيد حافظ لتعذيب مشحون بالغيظ والعنف البشع، وربطوه من يديه ورجليه وعلق كالخروف المشوي، وبقي تحت التعذيب أياما، إلى أن قام أحدهم بلكمه لكمة قوية، فطار بجسده الطويل، واصطدم رأسه في واجهة زجاجية، شج وجهه وسالت الدماء منه كالنافورة، وفي سرعة حملوه إلى مستشفى الشرطة بالعجوزة، وأدخلوه تحت اسم أمين شرطة كأنها إصابة عمل، وقام الطبيب بتخديره وخياطة وجهه، وتركوه بضع ساعات، عاد الطبيب بعدها للاطمئنان عليه وإفاقته، وحين استشعر حافظ بأنه وحده بالحجرة مع الطبيب، همس له في أذنه:

- على فكرة أنا مش عسكري أمن، أنا معتقل والإصابة دي نتيجة التعذيب، أرجوك..

وقبل أن ينهي حافظ كلامه، نظر إليه الطبيب وهو يبتسم قائلا له:

- إنت البنج أثر على دماغك ولا إيه؟

ثم اقتادوا حافظ إلى معتقل ملحق مزرعة طرة، ورفض مأمور السجن استلامه وهو في تلك الحالة. قبل أن يُكتب محضر استلام مسجل به إصابته.

تعذيب الملك

بعد تراجع جمال منيب عن أقواله، وتأكيده أمام قاضي التحقيق أنه قال ما قال تحت وطأة التعذيب، جاء عن أساليب تعذيبه من ملف التحقيقات.

س: هل وقع عليك ثمة ضغط أو إكراه؟

ج: نعم وقع عليَّ تعذيب وإكراه.. وقد بلغت السيد وكيل النيابة؛ ففي أول يوم في التحقيق عندما سألني سيادته عن الإصابات موجودة في جسمك قلت له فيه جرح في ظهري، قال لي كبير؟ فقلت له لا، فقال لي مش مشكلة. وفي اليوم التالي ذكرت لسيادته أنني تعرضت لتعذيب وانتهاكات غير إنسانية، وتمنعني كرامتي أن أذكرها، فرد عليّ سيادته.. هل فيه أثر ممكن أشوفه؟ فرديت عليه قلت له اللي بيعذب عارف إزاي يعذب، ومطلوب من النيابة إنها تحميني في سجني، ففوجئت في نفس اليوم بعد عودتي من النيابة بتحويلي إلى الملحق وفي الملحق تعرضت لشتى أنواع الضغط وتعذيب جسدي، وضغط معنوي فقد هددت بزوجتي و أسمعوني صوت والدي.

ومرة أخرى واحنا رايحين نعمل معاينة فايد وكان معانا رائد، قد أخذني من الملحق معصوب العينين مكتف اليدين وموضوعًا في دواسة العربية، وعند وصول السيد وكيل النيابة فك يدي وعصبة عيني فاشتكيت للسيد وكيل النيابة فقال للضابط ليه كده؟ فقال له معلش نسيته!

الأرانب

كان مزاج منى زوجة علي عبد الحميد، له طابع خاص في تسبيك الطعام وتنويعه، ولأن علي كان يحب الأرانب بشدة، قامت منى بشراء أرانب وتربيتها في شقتهم لتغذيتها وتسمينها حتى يحين الحين (موعد طبخها) وتطبخها بالملوخية اللذيذة.

وفي اليوم الأول من أيام عيد الفطر عام ١٩٨٧، ركبت أسرة علي السيارة متجهين إلى بورسعيد لقضاء إجازة العيد مع الأهل، وطرق علي باب شقة جارهم يوسف، وأعطاه مفتاح الشقة، كي يراعي الأرانب بالأكل والشرب أثناء فترة غيابهم، دون أن يدرك المصيبة القادمة للأرانب.

مضى اليوم الأول والثاني من العيد، وطرق طارق عنيف باب شقة الجار يوسف، حين فتح الباب وجد أمامه أجسادًا ضخمة ترتدي الملابس المدنية. وسألوه عن علي.. أخبرهم يوسف بأن علي سافر مع أسرته. وشعر يوسف بأن وراء سؤالهم أمرًا مريبًا، واستعلم عن الأمر، فأجابه الرجل بأن علي نصب على شخص في مبلغ عشرين ألف جنيه، وأنهم يجب أن يشمعوا الشقة بالشمع الأحمر لحين مثوله أمام النيابة، حين سمع يوسف تلك العبارات. لم ينطق مفصحًا بأن مفتاح الشقة معه، وقاموا بإذابة الشمع ووضعوه على باب الشقة، ونسي يوسف من هول المفاجأة أمر الأرانب!

ومضى على الأرانب أيامًا وأيامًا دون ماء أو طعام، حتى ذاب شحمها في جلدها.

على الجانب الآخر في المدينة الساحلية بورسعيد، كان علي قد علم بأمر تفتيش مسكنه بإمبابة وشقة والده في الإسماعيلية، فقرر الهروب، ولاصت منى ولم تدر ماذا

تفعل، وبقيت في منزل والدها ببورسعيد، ومضت الأيام، ونسيت هي الأخرى أمر الأرانب المسكينة!

حتى اتصلت بها ميرفت أبو تيج، وأخبرتها أن عليها العودة إلى القاهرة لاستلام شقتها، أحاط المحاميان سيد شعبان وأحمد عبد الحفيظ، مع رجال النيابة بباب شقة منى لفض التشميع، وما إن فُتح باب الشقة، حتى انبعثت رائحة كريهة لا تطاق من داخل الشقة فُزع رجال النيابة، وهرعت منى إلى المطبخ، لتقع عيناها على مشهد حزين، لجثث الأرانب ملقاة على الأرض.

وأصبحت الأرانب مثار سخرية مبكية، يتهامس بها أهالي المعتقلين، في حديقة نقابة المحامين، قائلين فيما بينهم: حتى الأرانب لم تسلم من التعذيب!

السوداني

بعد أكثر من عشرين عاما على القضية، اكتشفت أن هناك شخصًا اسمه مصطفى من السودان اعتقل على ذمة القضية، وتعجبت من كوني لم أعلم به طوال تلك السنوات!

ورغم أنني لم أره حتى هذه اللحظة، إلا أنني بمجرد أن سمعت أنه سوداني، شعرت بأنني أعرفه منذ سنين، وأن له معزة خاصة في قلبي، لا أعلم سبب هذا الداء بي، وأعراض هذا الداء، أنني أحب كل أصحاب البشرة السمراء، أشعر بحالة من الود والانسجام الفوري بمجرد أن أخالطهم لحظات، عندي اعتقاد راسخ لا أعرف من أين أتى؟! أن أصحاب البشرة السمراء قلوبهم بيضاء، يتسمون بالطيبة الشديدة ونقاء السريرة، ولم يخب ظني بهم طوال رحلة حياتي، ولكني لا أعلم هل سيخيب ظني هذه المرة مع المدعو مصطفى؟

لهذا سارعت بإحضار ملف القضية، بحثت في كل كلمة نطق بها مع وكيل النيابة، سمعت أحاديث ممن يعرفونه عن قرب، كي أتأكد هل سيخيب ظني أم لا؟

* * *

عرفت أن مصطفى مدير شركة لإنتاج الزيوت والصابون في السودان وصاحبها في نفس الوقت، وأيضا عضو باتحاد الغرف الصناعية هناك، ومشرف على قطاع التدريب به.

بدأت علاقته بالقضية مع بداية تعرفه على الدكتور صلاح دسوقي قبل أعوام، حين سافر صلاح إلى السودان، وقام بعدة جولات في الشركات والمصانع هناك، كي يعقد اتفاقات على دورات تدريبية للعمال والموظفين، في مجال الإدارة والتنمية التي يقوم

بها مكتبه بالقاهرة، وهناك تعرف صلاح على مصطفى، وعرض عليه الأمر، فوعده مصطفى بالتفكير في الموضوع.

بعد عام تقريبًا حضر مصطفى إلى القاهرة، من أجل عرض والده المريض على الأطباء وبالمرة اتصل بصلاح للقائه، وبترحيب وكرم «الشراقوة» عزم صلاح مصطفى على حفل إفطار رمضاني مع مجموعة من الأصدقاء.

وتسامر الأصدقاء في شتى الموضوعات، وزاد من حلاوة القعدة معرفة أن مصطفى صاحب فكر، وينتمي إلى الطائفة الخاتمية التي تؤمن بالفكر الوحدوي، الذي يقوم على الاشتراكية الوطنية، بمعنى العدالة الاجتماعية والمساواة بين فئات الشعب، كما يؤمن أصحاب هذا الفكر بالعروبة والوحدة العربية. وقد تفرع عن تلك الطائفة حزبان، هما الحزب الشعبي الديمقراطي، والحزب الوطني الاتحادي، ثم تم الاندماج بينهما تحت اسم الحزب الاتحادي الديمقراطي. وانتهى الإفطار على خير، ومضى كُل في طريق.

بعد مرور عام حضر مصطفى مرة أخرى إلى القاهرة، وفي ذهنه عقد اتفاق تدريبي مع صلاح، فالتقاه في مكتبه بوسط البلد، لمناقشة تصور إقامة الدورة التدريبية وقبل أن ينتهيا من حديثيهما، وجد مصطفى نفسه محاطا بقوات الأمن من كل جانب.

اعتقل مصطفى مدة أسبوع كامل، لا يعلم أين هو؟ أو لماذا تم إلقاء القبض عليه؟ إلى أن نزل تحقيقات النيابة، وبعد عدة أسئلة معه، علم كنه الموضوع الذي هو متهم به، ودارت التحقيقات معه مدة أربعة أيام، مرت على مصطفى دهورًا، في نهاية كل يوم يشعر بالدوار والإنهاك، فيكتفي المحقق ويؤجل التحقيقات لليوم الذي يليه. إلى أن تأكدوا أنه لا علاقة لمصطفى بأي تنظيم سري أو معلن في مصر، فتم الإفراج عنه.

خرج مصطفى طليقا إلى الحياة، ولا تكاد قدماه تتحمل ما عاناه، إلا أنها حملته مضطرا وبصعوبة إلى المطار، وانطلق عائدا إلى بلده.

* * *

مرت سنوات وانتهت القضية، واختفى مصطفى تماما، هل أزعجه ما سببه صلاح له؟ هل يندم أنه قدم إلى مصر يوما؟ هل حين يستعيد ذكرى عزومة الإفطار الرمضاني مع صلاح وأصدقائه، يذكرها بالسب والقذف؟!

أسئلة عديدة وتوجسات، تألّم بها ضمير صلاح طوال السنوات الماضية، وهو يشعر بأن عليه عبئًا نفسيًا واعتذارًا، يجب أن يؤديه لصديق عرضه لمشاكل واعتقال وآلام لا ذنب له بها، إلا كونه كان في مكتبه تلك اللحظة في ذاك اليوم.

وأصر صلاح على الحصول على إجابات لتلك الأسئلة، فركب الطائرة متوجها إلى السودان وفجأة وجد مصطفى صلاح يقف أمام باب داره، رحب مصطفى بصلاح ترحيبا حارا، لكنه لم يكن شافيا مجيبا عما في صدر صلاح، التقطت عين مصطفى توتر مخارج ألفاظ صلاح التي تبحث عن مدخل للأسف، وقبل أن يقترب الأسف على لسان صلاح، نادى مصطفى على ابنه من داخل المنزل، وجاء طفل في سنواته الأولى يجري نحو الأب، والطفل يداعبه بابتسامة بريئة عذبة تكشف عن أسنان صغيرة بيضاء، تظهر بوضوح مع بشرته السمراء الطرية، وفي خجل نم عن كل ما انتظر صلاح معرفته، قدم الأب ابنه إليه قائلا:

- ابني صلاح.. سلم على عمك صلاح يا صلاح!

وصدق حدسي وظني الآن، كما صدق في الماضي، بأنني أُحب أصحاب البشرة السمراء، لأن قلوبهم دائما بيضاء.

سر الحياة

بحر الحيـاة مليان بغرقى الحياة
صرخت خش المـوج في حلقي ملاه
قارب نجاة!.. صرخت قالوا مفيش
غـير بـس هـو الحُـب قـارب نجاة

عجبي

صلاح چاهين

جوابات في الخبز!

فُرض على المتهمين حصار أمني ونفسي قاسٍ، ولم يسمح للأهالي باستخراج تصاريح لزيارتهم، أي كانوا في حالة عُزلة تامة، لذا كان يجب أن أجد وسيلة للتواصل معهم، ومعرفة أخبارهم واحتياجاتهم.

بعد اليوم الثالث من التحقيقات، وبعد جدال وعراك مع الأمن، سُمح لي باستلام حقيبة ملابس غمري المتسخة، وإعطائه حقيبة بها ملابس نظيفة وطعام، وهنا ظهرت الوسيلة الأولى للاتصال بهم. وهي الكتابة على ظهر تيكت الملابس بضع كلمات، ولكن تم اكتشاف تلك الوسيلة، وعاد الضابط بالحقيبة وهو يمسك التيكت ويقول لي:

- قطعي التيكت ده يا مدام.. ممنوع.

فكرت في وسيلة أخرى، وهي فتح أوراق تغليف الصابون ثم كتابة رسالة عليها، وإعادة تغليفها مرة أخرى ولصقها، ولكن تلك الوسيلة تم اكتشافها أيضًا.

بت في حيرة، إلى أن طلب مني غمري خُبزًا، فكتبت رسالة ثم برمتها رفيعة للغاية وفتحت ثقبًا صغيرًا في رغيف العيش وأدخلتها به، ورغم أن تلك الطريقة لم تكتشف، إلا أن غمري عندما رأيته في اليوم التالي، وهم يدخلونه بسرعة إلى مبنى النيابة ضحك هامسًا في أذني:

- العيش كان سخن، بوّش الجواب.

ضحكت.. ولم أضحك منذ فترة بعيدة. فطرأت لي فكرة جديدة، نجحت واستمررت في استخدامها حتى الحكم النهائي في القضية. وهي أن أبرُم الخطاب كما السيجارة، ثم

أفتح علبة السجائر بدقة متناهية وأخرج منها سيجارة وأضع الخطاب بدلا منها، ثم ألصق علبة السجائر بدقة مرة أخرى. وهكذا استمرت الخطابات المتبادلة بيني وبين غمري.

بعد انتهاء التحقيقات، وتحويل القضية إلى المحكمة، بدأ السجن يخفف من شدة التعامل معهم، وتم هذا عبر السماح للمعتقلين بالحصول على بعض متطلباتهم من العساكر بلغة السجائر، يعني عاوزين تُرمس ميه سخنه عشان يشربوا شاي، يعطوا العسكري علبة سجائر، وهكذا.. وفي إحدى المرات كان غمري في حاجة إلى شيء فطلبه من العسكري وأعطاه علبة سجائر في المقابل. وكاد أمرُنا يفتضح، إذ إنها علبة مغلقة، أي لا يزال خطابي بها، وانتبه غمري بعد مغادرة العسكري، فوقف في شباك الزنزانة يصرخ بأعلى صوته، فعاد له العسكري، فطلب منه غمري استرداد علبة السجائر، ردها له العسكري وهو متذمر ومندهش، ثم ناوله غمري علبة أخرى مفتوحة. ولم يجد غمري أي مبرر يسوقه للعسكري لما فعله سوى:

- معلشي.. أصلي بحب قوي أدخن أول سيجارة من العلبة المقفولة!

خاتم الشبكة

كان الجنيه الذهب أحدث صيحة في عالم الموضة، منذ ربع قرن تقريبا، فكل عروس تحرص أن تكون في شبكتها إحدى عملات الجنيه الذهب، فتجد الخاتم بالجنيه، والحلق بالأرباع، والكولييه بالجنيهات، وهكذا كانت شبكتي، مكونة من الأساور والكولييه والحلق والخاتم جميعها مرصعة بالجنيهات الذهبية، أقول «كانت» لأن شبكتي لم تعد موجودة الآن، اضطررت إلى بيع قطعها على مرات متتالية، طوال فترة القضية، ولم يكن قد تبقى منها سوى الخاتم، الذي كنت أعتز به كثيرًا، وكان له في قلبي حنين خاص، عندما أستمتع بملامسته وتذكر يوم العرس.

هكذا لم أشعر بأي إحساس مؤلم حين بعت كل القطع السابقة، أما عند اضطراري لبيع هذا الخاتم، فقد اعتصر الألم قلبي. لم يكن ألما ماديا، بل كان ألما لفراق آخر شيء، يحمل ذكرى يوم من أجمل ليالي العمر.

عرض أبي عليَّ المساعدة أكثر من مرة، لكني كنت أرفض بشدة، فأمسك عن عرضه على مضض، لأنه يعرف دماغي الناشفة، وكرامتي التي أرفعها فوق رأسي.

تزايدت المصاريف، واقترب موعد ولادتي، قهرت ألمي وتوجهت إلى محل الذهب وبعت الخاتم، دون أن أخبر أحدًا. حتى حين سألتني أمي عن شبكتي، أخبرتها بأني خلعتها لتورم جسدي من الحمل والحر الشديد.

حل ثمن الخاتم مشكلات عديدة، أولاها: أنني حجزت في المستشفى للولادة، والثانية: دفعت مصروفات غمري في الدراسات العليا. والأخيرة: تسيير مصاريف البيت التي كانت شنط طعام المعتقلين تستنزفها أولًا بأول.

المحنة والمنحة

كان حلمنا أن يستكمل غمري دراسته العليا ويحصل على الدكتوراه، وبعد زلزال القضية، بدا أن هذا الحلم قد أصبح مستحيلا، إلى أن التقيت بغمري في أول زيارة له.

أمام البوابة الثانية في سجن مزرعة طره، أعطينا عم علي تصريح الزيارة لي أنا وحماتي، جعلونا ننتظر فترة طويلة، مرت كأنها دهر، ثم جاءنا عسكري وأشار لنا أن نتبعه، سار بنا وسط أرض جبلية وعرة، يلفحها هواء ساخن، فيزداد الحر لهيبا، سار العسكري في سرعة، وأنا وحماتي تتقافز أقدامنا وراءه.

وسط الصحراء القاحلة رأيت كشكًا خشبيًا دخلناه، لنجد ضابطًا يبدو على وجهه التجهم يجلس على مكتب خشبي متهالك، وعلى الجانب دكة خشبية، جلسنا عليها وبقينا فترة في صمت قاتل ننتظر، وأخيرًا ظهر غمري بصحبة العسكري، واختلطت القبلات بالعناق بالبكاء، لم يهدأ ثلاثتنا إلا بعد فترة، جلسنا نتحدث بكلمات، تكاد لا تقوى شفاهنا على النطق بها. كان غمري يحاول أن يبتسم، لكن جُرحًا غائرًا في قلبه طفح في عينيه وعلى وجهه حُزنا لم أر له مثيلا.

فكان للأمل أن يشرق بأي صورة وبأسرع وقت، وكان الأمل هو إلغاء المستحيل وعودة حُلم الدراسات العليا، وجدتني أُخبره بأني سأقدم له طلبًا لدخول امتحانات الدبلومة، نظر إليّ مستسلما لا موافقًا ولا رافضًا، كان في حالة يصعب وصفها، سوى بأنها حالة اللا شيء.

بعد انتهاء الزيارة، توجهت إلى النقابة وكتبت الطلب، وخلال أيام حصلت على

موافقة النائب العام للسماح لغمري بدخول امتحان الدبلومة، اشتريت له الكتب، وتحدى غمري اللاشيء! وبدأ في المذاكرة.

* * *

صباح يوم الامتحان ظهر غمري أمام كلية الحقوق، نزل من سيارة الأمن المصفحة مكبلا بالكلابشات، وسط تصفيق الطلبة يحيونه ويشجعونه، ودخل الامتحان ومضت ساعات، خرج بعدها مبتسما، اقتربت منه أطمئن لما فعل، فقال لي..

- سألني الدكتور أسئلة كثيرة.. وختمها بسؤال: ما رأيك في فترة اعتقالك؟

أجبته.. ما أنا فيه هو شيئان: الأول: محنة من الله.. يختبر بها إيماني..والثاني: منحة من الله..لأكتشف ذاتي.

ونجح غمري في المحنة والمنحة، وحصل على تقدير جيد جدًا في الدبلومة. ونجحت أنا أيضًا في امتحاناتي، ولكن إزاي؟ لا أعلم!!

جوابات الاعتقال الأول

بعد سنوات طويلة، حين بدأت في تسجيل تجربة الجمعية في هذا الكتاب، كانت من أهم مصادري في تنشيط الذاكرة، وكشاهد على الأحداث، خطاباتي المتبادلة مع غمري، من خلف جدران المعتقل..

كتبت هناء

عزيزي غمري..

«أخباري كويسة، وربنا فتح عليّ بموضوعين للجريدة عملتهم، وكمان بروزت صور فرحنا، بإذن الله ابننا هيطلع شكلك بس من غير نظارة وشنب، بس زعلانة منك لأنك خاسس قوي، عاوزاك تخلي بالك من صحتك و«لغلوغك» يرجع تاني، تعرف إني حلمت لك حلم حلو قوي.. حلمت بعبد الناصر جي يزورني وسلم عليّ وقال خير بإذن الله، يعني بإذن الله نصره».

١٩٨٧-٧-٢٠

«كل سنة وأنت طيب بمناسبة عيد الأضحى المبارك، النهارده وقفة عرفات، وأنا برش الجنينة بعد ما نظفت البيت كله، كنت بفكر فيك، بالأمل أنتظرك، يا أروع من أنجبته البشرية.

يا ترى إيه أخبارك دلوقتي، وأخبار الناس اللي معاك، سلامي لهم جميعا ودعواتي كمان».

١٩٨٧-٨

«عتريس ابنك كويس وعلى فكرة ممكن تطلع عتريسة، وهي برضه كويسة، وبتقولك

وحشتني قوي يا بابا وعايزاك تيجي بقى علشان تشوفني وأنا بأكبر يوم بعد يوم وأنا بقى عندي دلوقتي سبع شهور وبعاكس ماما وبضربها كتير، وبصحيها من عز النوم على ضربة قدم حلوة قوي، أخليها صاحية شوية وبعدين تنام ثاني وهكذا طول الليل، ودلوقتي بقولك: مع السلامة.. ابنتك أو ابنك «؟».. إيه رأيك في تلك الرسالة التي يرسلها لك ابنك من بطني؟».

١٩٨٧-٨-٢١

«جئت إليك أمس وكلي أمل في رؤيتك، ولكن نظرا لسفر المحامين إلى مؤتمر بجمصة لم يأتوا لزيارتك، ولم أستطع الدخول إليك، وانتظرت العسكري حتى أوصل لكم الطعام، وعاد لي بالهدوم، على فكرة وجدت بقعًا حمراء على الفانلة لا أدري ما هي أرجو ألا تكون دما، أرجوك طمني أنا قلقانه جدًا».

١٩٨٧-٩-١٠

كتب غمري

عزيزتي هناء..

«فعلا لولا أن الله سبحانه وتعالى معي، في المعتقل المشئوم، ولولا أنه رحيم بصورة لا توصف ـ لكان في الأمر شيء آخر ـ فلقد دعوت الله أن أكون معك في عيد ميلادك ـ وقد حدث ـ ودعوته دعوات أخرى! وكان الله سبحانه وتعالى رحيمًا مجيبًا لدعائي.. القرآن والصلاة والصبر والأمل في لقائك وكلمة أحبك على المصحف هي المكافأة لي، بعد أن أنهي جزءًا من القرآن،. كلمة بحبك التي كتبتها على ماركة البيجامة، قطعتها وجعلتها في المصحف، أضعها في نهاية الجزء الذي قرأته».

١٩٨٧-٦-٢٦

«في حوالي الواحدة ظهرا، فتح الشاويش الزنزانة، وأحضر الغداء، وهو عبارة عن: طبق أحمر اللون! اصطبغ بلون أسود من الزمن! مليء حتى منتصفه بشيء رمادي اللون «أرز» وفوق الأرز، قرصين طعمية! غريبة الشكل، وفوقهم رغيف من الخبز الرملي، وفوقهم ملعقة مربى!!».

١٩٨٧-٨-١٩

«على فكرة وأنا بكتب لك الجواب دلوقتي، سامع صوت حافظ بيقرأ القرآن بصوت عالي، وهو كويس وكل الناس.

وحشتني.. اليوم الثلاثاء غادر الصاوي السجن الساعة ١١ صباحًا، ثم تبعه حافظ في الرابعة مساء، وها أنا أصير وحيدًا، ولكني رغم وحدتي، سعيد لأنك معي دائما».

١٩٨٧-٨-٢٥

«حبيبتي.. عاوز أطلب منك طلب مهم جدًا.. عاوزك تدي لوالدك فلوس يشتري بيها خروف عشان ناوي بإذن الله لما أخرج أذبحه في سبوع ابننا».

١٩٨٧-٨-٢٥

«الساعة الآن التاسعة والربع، وجلسة غرفة المشورة اليوم وسأراك، فأدعو الله العزيز الحكيم، أن يكون هذا آخر يوم في أيام فراقنا اللعين، وأن يكون قرار الإفراج بإذن الله، وأكون حاضر معك يوم ولادة عتريس».

١٩٨٧-٩-١٥

غرفة المشورة

غرفة المشورة.. هي حجرة في المحكمة، يجلس فيها القاضي مع المحامين والمتظلم من قرار الاعتقال كي ينظر القاضي في التظلم، ويحكم للمتظلم بالإفراج أو بتجديد الحبس، وغالبا ما يقدم التظلم بعد مرور خمسة وأربعين يوما من اعتقال أي إنسان، وإذا ما رفض التظلم لا يحق التظلم مرة أخرى إلا بعد مرور أسبوعين.

في ذاك اليوم، حضر المحامون في الميعاد المقرر لنظر التظلم للإفراج عن غمري، وفي غرفة المشورة جلس القاضي، ثم نطق.. ولهذا نقرر الإفراج عن المتهم بضمان محل إقامته. وما إن انتهى القاضي من كلماته، حتى ضجت الغرفة بالزغاريد والتهاني، وقفز سيد أخو غمري فرحا، والتف العساكر حولنا كالنحل، يطلبون الحلاوة وأغدقت حماتي نقودها كلها عليهم من شدة فرحتها.

وقفنا خارج الغرفة ننتظر خروج غمري، وطال انتظارنا، ثم جاء نحونا الأستاذ سيد شعبان وعلم الدين زنط وهما مقطبا الجبين، وبعد تردد قالا: القاضي رجع في كلامه! بيقول انتوا سمعتوا غلط، هو قال استمرار وليس إفراجًا.. وكادت حماتي أن تقع أرضا، ودارت الدنيا من حولي، وصرخ سيد بأنه سمع كلمات القاضي بأذنه، علل المحامون الأمر بأن قوة ما وراء الأمر!!

وعدني المحامون بتقديم تظلم، وأنه سوف ينظر فيه بحد أقصى خمسة عشر يوما فقط، لكني كنت قد فقدت الأمل في أي وعد أو أي شيء.

وعاد غمري إلى المعتقل، وعدت للمنزل بنفس محطمة، أرفض الخروج أو محادثة أحد

ومرت الأيام في همود وتثاقل، إلى أن أخبرني المحامون أن تظلم غمري قُبل وسوف ينزل غرفة مشورة مرة أخرى.

ذهبت في الموعد المحدد بلا أمل، ونطق القاضي بقرار الإفراج مرة ثانية، ولكن في تلك المرة خرج غمري بالفعل، ليعود إلى المنزل قبل موعد ولادتي بحوالي ثلاثة أسابيع.

نضال

بدأنا الإعداد لاستقبال أول مولود لنا، وأول تلك الاستعدادات اختيار الاسم، فبعد علمنا أنه ذكر، اتفقنا أن يكون اسمه ذا دلالة، يحمل ذكرى الأيام التي جاء فيها إلى الدنيا، ومن هنا اخترنا اسم «نضال»، لكن أهلنا ما إن سمعوا بالاسم، حتى صرخوا في وجوهنا..

- نضال!! حرام عليكم كفاية كده، احنا قلبنا اتوجع من النضال!!

اختلف الأهالي في آراء عديدة، لكنهم اتفقوا على رأي واحد، أن تلك التجربة عانوا فيها الأمرَّين، ولم يروا مثيلا لها سوى في الأفلام، على نمط «في بيتنا رجل». رغم إظهارهم شجاعة رائعة في تحمل صدمات رؤية العساكر والرشاشات. وغيرها.

لكن من أجلهم وتلطفا بهم، اتفقت مع غمري على اختيار اسم «شادي»، على أن يكون هذا الاسم المعلن، أما الاسم الحقيقي الذي سيسجل في شهادة الميلاد فهو «نضال».

كان الأمر التالي للتجهيز للولادة أني اشتريت كتاب «خطوات لولادة سهلة»، ذاكرته وحفظته عن ظهر قلب، ولأنني أصبحت خبيرة بعد قراءتي لهذا الكتاب، لم أستمع لنصيحة أمي ذاك الصباح، حين حدقت في وجهي، ونظرت في عيني، وقالت:

- انتي باين عليكي هتولدي النهارده.

ورغم أنني بالفعل كنت قد بدأت أشعر ببدايات آلام الوضع، إلا أنه وفقا لخبرتي من الكتاب أعلم أنه لا زال أمامي أكثر من اثنتي عشرة ساعة، هذا فضلا عن أن هناك

مشوارًا مهمًا يجب أن أقضيه مع غمري، ولهذا أوحيت لها أنني مرهقة ليس أكثر، ووافقت أمي على خروجي بالعافية.

وانطلقت مع غمري إلى المشوار في منطقة إمبابة، لشقة منى زوجة علي، التي طلبت منا قبل يوم أن نُنجدها ونساعدها على تنظيم الشقة، التي بعثر الأمن كل محتوياتها.

لم أكن أتصور أن الوضع بهذا السوء، إلا عندما وقفت أمام باب الشقة، دلفت إلى الداخل بصعوبة شديدة، فالشقة وأثاثها والكتب كلها رأسا على عقب، وكأن من قاموا بالتفتيش عن زوجها الهارب أرادوا الانتقام منه، فهدموا المعبد على من فيه، ولأن تلك المأساة تحتاج لأكثر من عشرة رجال، قام غمري بعد ساعات من محاولتنا لتنظيم الأثاث وترتيبه، بالاتصال بحافظ، الذي لم يتوانَ عن المجيء في أقل من ساعة، وبدأ غمري وحافظ يعيدان ترتيب الأثاث ويصلحان ما كسر منه، وأقوم أنا بتنظيم الكتب في المكتبة، وبقينا على هذا الحال من التاسعة صباحا حتى التاسعة مساء، وآلام الوضع في ازدياد لكني أرفض الإفصاح، ولاحظ غمري ما أبدو عليه، فطلب مني الخروج لاستنشاق الهواء والراحة، وافقته بعد أن نظرت في عيون أبناء منى الأطفال الثلاثة ولاء ولمياء وأحمد واستشعرت مدى القلق والتوتر البادي على وجوههم المحتقنة، وفزعهم مما رأوه وعايشوه، اصطحبت الأطفال الثلاثة ومشينا حتى وصلنا كورنيش الكيت كات، وهناك وجدتني أنادي على مراكبي وقفزنا إلى مركبه، وسار بنا وسط أمواج النيل الهادئة، كان المراكبي رجلا بسيطا بشوشا، أدار لنا الكاسيت على أغانٍ جميلة، أخذنا نصفق ونغني معها، بدا على الأطفال تناسي ما حدث، وانفرجت أساريرهم عن ابتسامة، ومن ثم إلى ضحكات ولهو، وبدأت آلام المرحلة ما قبل الأخيرة للوضع، هنا طلبت من المراكبي العودة بنا، وعاد الأطفال يحملون في أيديهم غزل البنات والذرة المشوي، ويحملون في قلوبهم ضحكة بريئة. حين وصلنا لم يكن غمري وحافظ قد انتهيا من مهمتهما، ولكني أصررت على العودة.

ونظرت إليَّ منى باستغراب وقالت..

- انتي ناوية تعمليها النهارده! طب مينفعشي تأجيلها لحد ما نخلص توضيب البيت!

وضحكنا لطلبها. وعدنا إلى منزل أبي في حلوان بعد منتصف الليل، كان الكل نيام، استلقى غمري على السرير، وقبل أن يغط في النوم. قلت له:

- هسيبك ترتاح شوية عقبال ما أحضر الشنطة، عشان نروح للدكتور.

وسخر غمري من كلامي، فلم يصدق أنني جادة، وهل من المعقول واحدة على وشك الولادة تفعل ما فعلته اليوم. ثم غط في نوم عميق. أخذت الدش، ثم بدأت في ترتيب الحقيبة الصغيرة وناديت على أمي لأوقظها، ولكنها أيضا داعبتني في حالة من عدم التصديق، وقالت:

- انتي لسه في البداية يا حبيبتي، خشي ارتاحي لك شوية.

لم تكمل أمي جملتها، حتى شعرت بأني وصلت إلى المرحلة التي لا تُحتمل، وانطلقت أولى صرخاتي، وانتفضوا جميعا من مضاجعهم، وفي ثوانٍ كانت السيارة تنطلق بنا إلى المستشفى وتنطلق معها صرخاتي وآلامي. وتلقفني الطبيب من بين أيديهم في سرعة، ليستقبل بيديه رأس نضال، وهو يعاتب أمي على الإتيان بي في تلك المرحلة المتأخرة.

ولكن يبدو أن خبرتي مع الكتاب لم تكن كافية لأحسبها صح، ولكن الله ستر، وخرج ابننا نضال للوجود.

البيت اتحرق!!

تقدم ناصر أمين لخطبة هدى عبد الوهاب، وقبل أن ترد أسرتها عليه بالموافقة، داهمت قوات الأمن منزلهم للبحث عن المتهم الهارب ناصر. وما إن خرج الأمن من المنزل، حتى تلقت هدى من أُمها وابلًا من اللوم والتأنيب، ومع الأيام ازدادت مضايقات أم هدى «رحمة الله عليها»، وأخذت تضغط عليها بكل الأشكال والأساليب كي تنهي علاقتها بناصر، وهدى ضرباها طناش!

جاء يوم سبوع نضال وكأنه يوم انتظره الجميع بفارغ الصبر، بعد شقاء وحرمان طويلين من الإحساس بالسعادة والضحك من القلب، والتف الأصدقاء والمحامون جميعهم في لمة جميلة يلتهمون الخروف والفتة التي أعدتها أمي وحماتي. في مرح وضحك، وبنات الجمعية يغنين حلقاته برجالاته. وشارف الحفل على الانتهاء، وبنات الجمعية تنظر بعضهن لبعض بقلق، واستشعرت بأن هناك ما يخفونه، ثم تقدمت نحوي عزة سليمان وهالة عبد القادر وفي خجل بالغ قالتا:

- إحنا وكل أعضاء الجمعية اشتركنا في هدية لنضال، وأعطيناها لهدى عبد الوهاب، واتفقنا نتقابل هنا، وهي لسه ما جتش، واحنا مكسوفين خالص.

قلت لهم وأنا أضحك:

- الهدية كأنها وصلت، لكن الباقي على هدى، يكونش اتقبض عليها هيه كمان؟!

ورددت عزة وهالة في نفس واحد:

- يا ريت ونبقى ارتحنا منها.

انتهى اليوم في سعادة، لكن بقي القلق بداخلي عما يكون قد جرى لهدى.

* * *

مساء اليوم التالي جاءتني هدى تحمل الهدية، وهي تشعر بالخجل، وأنا في قمة القلق وسألتها في جزع عما حدث، فنظرت إليّ نظرات حائرة، وقالت:

- أصل وأنا نازلة من البيت، لقيت جيراننا بيصوتوا، جريت عليهم، طلع عندهم حريق، ولادهم بيعيطوا، والستات يصوتوا، وأنا حايسة ما بينهم، لحد ما جت المطافي، وعقبال ما طفوا الحريق.

وقاطعها غمري مبتسما، وقال لها:

- المهم ناصر كويس.

فوجئت هدى برد غمري، ولم تدر ما تقول سوى بضع كلمات غير مترابطة:

- ناصر مين؟ آه ناصر.. لا صدقني. أصل..

وشعر غمري بمدى توترها، واحترم فيها حفاظها على سر لقائها بناصر، فأردف يخفف عنها:

- خلاص ما تتوتريش كده.. ولا يهمك.. المهم الجيران بخير؟!

اعتقال ثانٍ

عرض الأستاذ فريد عبد الكريم على غمري وياسر عبد الجواد العمل لديه في مكتبه، بعد خروجهما من الاعتقال الأول، واستمرا في العمل مدة شهرين، حتى طلب الأستاذ فريد من غمري السفر إلى بورسعيد لقضاء بعض المهام، فاغتنم غمري الفرصة كي يقوم بمهمة خاصة عزم عليها منذ فترة. سافر غمري وبت ليلتي وحيدة أداعب نضال، حتى غلبه النعاس بعد أن كاد يفقدني صوابي وأطار النوم من عيني، بقيت قلقة مستيقظة إلى ما بعد الثالثة صباحا. وفجأة سمعت طرقًا شديدًا على الباب، وتساءلت هل لغمري أن يعود في تلك الساعة؟

أسرعت بفتح الباب فرحة، فوجئت بقوة حاشدة تخترق الصالة وتنتشر داخل المنزل، بنفس السيناريو السابق، كيف عبروا ممر الحديقة وتوقفوا بكل تلك السيارات المصفحة دون أن أسمع لهم صوتا!!

صُدمت فترة ليست بقصيرة، والضابط يسألني عن غمري، لحظتها زالت صدمتى وشعرت بفرح عارم يجتاحني، فغمري مسافر ولن يستطيعوا هذه المرة اعتقاله، فأخبرت الضابط بكل ثقة:

- غمري مسافر ولا أعلم إلى أين؟

فقاموا بكل ما يلزم من تفتيش وقلب الكتب والأوراق، لكن مع اتخاذهم الحذر الشديد، فقد نبهتهم أن يقوموا بالتفتيش في هدوء حتى لا يوقظوا نضال. حصلوا على ما حصلوا وغادروا وأغلقت الباب خلفهم، وأنا في قمة السعادة لعدم وجود غمري،

وسفره الذي أنقذه من الاعتقال وبدأت في إعداد طعام الإفطار، فضوء الصباح ملأ الحياة، بعد أن تجاوزت الساعة السابعة صباحا.

لكن الطرق على الباب عاد من جديد، وتحيرت هل يمكن أن يعودوا مرة أخرى!! فتحت الباب لم يكونوا هم بل كانا أبي وأمي، وزالت عني سعادتي التي لم تدم طويلا، بعد أن أخبرني أبي باعتقال غمري فجرًا من منزلهم ببورسعيد!

الثلاجة أمان

كانت المهمة الخاصة التي عزم غمري على قضائها في بورسعيد هي بيع شقتنا هناك، كي يحقق حلمنا في شراء شقة في القاهرة. ركب غمري الأتوبيس المتجه إلى بورسعيد، ثم توقف في الاستراحة بجوار محل حلواني مشهور بالحلوى الشرقية والمشبك، اشترى طبق حلوى لوالدته، مغلفًا في كيس بلاستيك مكتوبًا عليه اسم المحل وفروعه في الإسكندرية.

وصل غمري بورسعيد، وأنهى عمله المكلف به من قبل الأستاذ فريد. كما أنهى مهمته الخاصة في بيع شقتنا واستلم العربون، وهو يشعر بسعادة طاغية.

مساء تناول غمري طعام العشاء مع أسرته، وأكلوا من الحلوى والمشبك، وأشادت أخته الكبرى «بطة» بطعمها اللذيذ!

بعد أن سكن الجميع كل في حجرته، وتخطت الساعة منتصف الليل، شعر غمري بالقلق فأمسك بظرف نقود العربون ووضعه أسفل المخدة، ثم أمسكه مرة أخرى في يده وهو حائر، فرغم أن المبلغ زهيد، لكنه سيحقق لنا حلما عظيما، ولم يطمئن إلا بعد أن قام إلى الثلاجة وخبأه وسط أكياس الأسماك بالفريزر، وما إن همَّ بالجلوس، حتى سمع صوت طرق شديد على باب الشقة، فتح الباب ليجد أمامه مشهدًا مكررًا، لأعداد هائلة من الأمن والعساكر، مع تغيير في الوجوه والأسماء، ونظر غمري في وجه كبيرهم في الرتبه وفاجأه:

- حضرتك الرائد فلان الفلاني؟

واندهش الرجل لمعرفة غمري باسمه.

وفي هدوء شديد استكمل غمري حديثه للرائد:

- من فضلك ده مش بيتي، إنت عارف ده بيت والدتي، وأخواتي بنات نايمين، وأنا أهو قدامك جاهز.

- طب اتفضل معانا.

صحا كل من بالمنزل، قبلهم غمري مودعا، وهمس في أُذن أخته حنان:

- ادي الحاجة اللي في الفريزر لهناء.

* * *

في الصباح توجه أهل غمري إلى قسم الشرطة، ليستعلموا عن سبب الاعتقال، فأخبرهم أحد المخبرين، أنه حدثت محاولة لتفجير القنصلية الأمريكية بالإسكندرية، ولهذا لم يكن غمري هو المعتقل الوحيد، بل امتدت حملة الاعتقال لكل المتهمين الناصريين.

أول ما سمعت «بطة» بهذا، تذكرت بأن المشبك والحلويات التي أحضرها غمري كانت مغلفة بورق مكتوب عليه الإسكندرية، فجرت إلى المطبخ وأمسكت بغلاف الحلويات وأحرقته، ثم توجهت إلى الصالون وأنزلت من على الحائط صورة لجمال عبد الناصر وأخفتها، اعتقادا منها أنها بذلك أخفت أدلة الاتهام التي قد تُدين أخاها!!

تم التحقيق مع غمري، وأكد أنه كان على «قهوة أحمد عبد الله» الشهيرة في بورسعيد، فانطلقت قوة من الأمن إلى المقهى، وتم اعتقال كل من له صلة بغمري هناك ومنهم «سونة» صاحب المقهى، وبعد اعتقالهم مدة يومين، تأكد الأمن من صحة أقوالهم بأن غمري كان في المقهى وقت تفجيرات الإسكندرية، فتم الإفراج عنهم جميعا ما عدا غمري ورفاقه!

إلا أن تلك الفترة لم تغب عن ذاكرة «سونة» حتى هذه اللحظة، ولا زال يقص على كل رواد المقهى البورسعيدي عن نضاله التاريخي واعتقاله لمدة يومين!

الإسكندراني

لحادثة محاولة تفجير القنصلية الأمريكية بالإسكندرية واقعة أخرى، في نفس الفترة أعادوا اعتقال كل المتهمين، وكان من بينهم محمد منيب، الذي داهمت قوات الأمن مسكنه في شارع الهرم، وقاموا بتفتيشه وإحراز أوراق كانت زوجته وفاء المصري تضعها في درج «الكوميدينو»، كتبت فيها بضعة أحرف اختصارا لمستلزمات مطلوب شراؤها لشقتهم الجديدة، فاعتقدوا أنها أحرف لشفرة التنظيم! فتحفظوا عليها.

المهم بعد أن أكملوا مهمة التفتيش، لاحظوا وجود شخص يبيت معهم بالمنزل، وكان عريس أختها الذي جاء لزيارتهم لمناقشة تفاصيل الإعداد للزواج. فسأله الضابط عن اسمه فأجاب.. عادي خالص. وسأله عن عنوانه.. وما إن نطق أنه من الإسكندرية، حتى أمسكه الضابط من قفاه، واعتقل العريس مدة أسبوع، كان خلالها كالجمرة في النار، فشلت كل محاولات محمد منيب في إطفائها، أو حتى تهدئة شعلتها.. حتى تأكدوا أن لا علاقة بعريس الأخت في حادثة الإسكندرية، وخرج الخطيب من المعتقل، ولم يره أحد من الأسرة من يومها، ولا حتى خطيبته!

جوابات الاعتقال الثاني

كتبت هناء..

عزيزي غمري..

«على فكرة عندي امتحان يوم الثلاثاء في السكشن، وبصراحة مش عارفة هكتب إيه، ولكن برضه هدخل الامتحان وزي ما تيجي، جئت لك يوم الأحد، وطريق الكورنيش كان متعطل عشان كده وصلت متأخرة، ويا دوب وصلت من هنا، ولقيت وفاء المصري لسه خارجة من عندكم، ورجعتم الزنازين، وكنت متغاظة قوي عشان ما قدرتش أشوفك ولكن رجعت وقلت ربنا مش رايد».

يناير ١٩٨٨

«زوجي وحبيبي وصديقي.. كل عيد زواج، وأنت بخير وبصحة، وبإذن الله عيد زواجنا اللي جاي نكون مع بعض».

٢١-١-١٩٨٨

«حبيبي الغالي لم أحضر لك اليومين اللي فاتوا لأن والدة هدى مريضة جدا في المستشفى، وأنا معاها كل يوم لأن مفيش حد معهم، وهدى وأخواتها مش عارفين يتصرفوا في حاجة خالص حتى الأكل مش عارفين يعملوه، وربنا يستر».

٢٦-١-١٩٨٨

«إن شاء الله ناوية أنجح السنة دي، ما تتصورشي أنا مذلولة قد إيه من حتة كارنيه النقابة، لو كان معايا مش كان زماني كل يوم أطلع تصريح زيارة، لكن هعوضها بإذن الله وهنجح وانت كمان هتنجح وتبقى الدكتور محمد».

٧-٢-١٩٨٨

«على فكرة نتيجة امتحانات نصف السنة طلعت وأنا نجحت إزاي مش عارفة، المهم

هناك خبر سعيد، الدكتور فتحي والي قال إن اللي هينجح في سنة رابعة من غير مواد لن يمتحن مواد تخلف من سنين سابقة».

١٦-٢-١٩٨٨

كتب غمري..

عزيزتي هناء..

«أنا والحمد لله كويس - على أنها حبسة أونطة إلا إن أحوالي تمام. كل الناس هنا كويسين واحتفلوا معايا بعيد جوازنا، والمساجين الثلاثة أحمد وياسر ومحمد منيب غنوا ليّ وليكي، وكان احتفال ظريف شارك فيه كل العساكر بأكل التورتة اللي جبتيها لنا».

٢١-١-١٩٨٨

«الأكل وصلنا النهارده، مش عارف أقول إيه غير إني مهما عملت مش هقدر أوفي خردله من إخلاصك وحبك، بإذن الله أوعدك وده وعد دين عليّ، يوم ما أخرج هعمل المستحيل عشان ننتقل لشقتنا.

٢٥-١-١٩٨٨

«كنا أربعة ودلوقتي بقينا ثلاثة، محمد منيب كان مخلي الصحبة زي السكر، إنسان كويس جدا، من يوم ما راح سجن ملحق المزرعة واحنا مزاجنا هباب خالص»

١-٢-١٩٨٨

«مين كان يصدق أنه يسجن مع أبو ناصر وأخوه وأخو عبد المعطي وأخو محمود.. إنها حقا مأساة، وللأسف وجود هؤلاء الرهائن يمثل ضغط نفسي رهيب على الواحد وبدعي ربنا إنهم يخرجوا بأسرع وقت ممكن ».

١٨-٢-١٩٨٨

إنسان آلي

أصبحت كالإنسان الآلي.. مشاعري..حركاتي.. لفتاتي..كلها آلية. صباحًا أحتضن نضال الذي أصبح عمره ثلاثة أشهر، أرضعه وأغير له حفاضة، ثم أقبله قبلة وداع، وأتركه في رعاية أمي. أحمل حقائب الطعام للمعتقلين، أسير إلى معتقل استقبال طره، أقف على البوابة، أنتظر ساعات حتى يظهر أيٌّ من المحامين، أعطيه حقائب الطعام، ويدخل لزيارتهم يغيب النصف ساعة. أبقى خلالها أتأمل بشرًا ووجوهًا صامتة أحيانًا وباكية أحيانًا أخرى، سواء وهي تنتظر دورها للدخول في زيارة أو وهم خارجون منها، تبلل دموعهم صدورهم.. أذكر زوجة جاءت لزيارة زوجها تصطحب أبناءها بأعمار مختلفة، يجرون منها هنا وهناك وهي في حالة من اللخبطة والدهولة، لا تدري بأيهما تمسك، بيد أطفالها أم بحقائب الطعام والملابس. أوقفها الشاويش أمامه ساعة، يفتش الحقائب جزءًا جزءًا، يقذف بكل محتوياتها أرضا، وهي تتوسل له وتلاحقه بكلمات:

- والله ما فيهم حاجة دول شوية أكل وغيارات!

والشاويش لا يستمع لكلماتها، بل يقوم بعمله بكل الغلاسة والتباتة المفروضة عليه من رؤسائه.

* * *

إلى أن يخرج المحامي من زيارتهم ويطمئنني عليهم جميعا، ويتلو عليَّ طلباتهم ليوم الغد، ويتم الجزء التالي من البرنامج أوتوماتيك.. فأتوجه إلى النقابة، ألتقي مع بعض الأهالي، ثم نتوجه إلى أحد المحامين الكبار سواء الأستاذ فريد عبد الكريم أو الدكتور عصمت سيف الدولة نتحدث معه عن آخر تطورات الموقف وما وصلت إليه هيئة

الدفاع.. وتغيب الشمس عن الأُفق وتؤذن العشاء، وأشعر بتحجر ثديي، ويبدأ اللبن يفرز تلقائيا في نداء إلى الطفل ليرضع، ولكن أين هو الطفل؟

ويحدث البرنامج التالي فورا.. يجب أن أعود لطفلي، أركب الميكروباص إلى التبين، أجلس بجوار الشباك، أرمي بنظري على النيل الحالك بسواد ليل شتوي كئيب، أسرح في مجموعة أفكار حصادها فراغ، وتخرج تنهيدات كأزيز صدى حديد في تجويف الإنسان الآلي. أصل إلى البيت، أسمع صراخ نضال وأنا على ممشى الحديقة، وصوت أمي تُهنن فيه ليهدأ، لكن صراخه لا ينقطع، غاضب مني، يشعره بالحزن تناول الحليب الصناعي، ويشتد صدري ألما بثقل الحليب المكتوم فيه طيلة اليوم.

أتلقف نضال من أمي بلهفة وأحتضنه، فيمسك بي ويرضع في عنف وهو يجز عليّ بشفتيه في انتقام وعتاب، ويتدفق اللبن في فمه، تتلاحق أنفاسه في ابتلاع سريع، ارتشاف ظمآن للطعام والحنان، أمسك يده الصغيرة أداعب أنامله وأقبلها، تهدأ أنفاسه رويدا رويدا، يشرق وجهه عن ابتسامه تتسع ما بين شفتيه المضمومتين بقوة، وتشع عيناه بفرحة بريئة صافية وكأنه سامحني، فيهدأ وجع قلبي قليلا، تتثاقل جفونه.. يُغالبه النعاس فيقاومه، يعضني بشفتيه، خائف من أن أتركه مرة أخرى، وتتوالى مقاومة النعاس ساعات، حتى تملأ السكينة صدره، ويده الصغيرة لا تزال تضم بقوة على يدي. فأداعب شعره وخده إلى أن يغط في نوم عميق، فأحمله برفق إلى سريره.

* * *

ويبدأ البرنامج الأخير من العمل، غسيل الملابس التي أتيت بها من المعتقل، ووضع الطعام على النار، ويمر الوقت وأنا أنظر للساعة، أخشى أن يأتي الموعد المنتظر قبل أن أنتهي، فتزيد قدمي ويدي من سرعتهما، حتى تقترب الساعة من التاسعة، أكون قد انتهيت من تنظيم حقائب الغد، وأخذت الحمام الساخن، وأتمدد على السرير، وأمسك بالراديو لأشعل إذاعة أم كلثوم لأستمع لأغنيتها، التي تذاع كل يوم في نفس الموعد، لنستمع سويا وكل في مكانه، هو في المعتقل وأنا في بيتي.

ويُغلق برنامج الإنسان الآلي داخلي، ينحل الجسد المجهد، وتخرج المشاعر عن حدودها لأتنفس من جديد ككائن بشري، مع كل كلمة تنطقها سيدة الغناء السماوي:

- أغدًا ألقاك.. يا خوف فؤادي من غدي..

حكاوي الهروب..

أحب أعيش ولو أعيش في الغابات
أصحى كما ولدتني أمي وابات
طاير..حُوان..حشرة..بشر..بس أعيش
محلا الحياة.. حتى في هيئة نبات

عجبي

صلاح چاهين

ست بميت راجل

عندما تراها تسير، تتذكر على الفور القول الشهير للفنان عبد الفتاح القصري.. «يا صفايح الزبدة السايحة.. يا براميل القشطة النايحة».

فهي امرأة شديدة البياض.. قصيرة القامة.. مكتنزة الجسم.. ترتدي «الملس» الأسود، تسير في خفة جسد وروح، تطل على الحضور بضحكة ذات رنة خاصة، تلك هي «سعدية» زوجة المتهم محمد شعبان.

اعتقلت أول مرة حين ذهبوا لمنزلهم في إمبابة، يبحثون عن زوجها فلم يجدوه، فاعتقلت كرهينة، لاقت كل أشكال الذل والهوان، وكونها شخصية ساذجة أغراهم بمزيد من التنكيل بها بلا حسيب أو رقيب، وتحملت سعدية في صبر وإباء، وبعد كثير من سين وجيم، أدركوا أنها امرأة على قد حالها، لا تعلم شيئًا لا عن القضية المتهم بها زوجها، ولا عن أي موضوع يتعلق بالسياسة، فأفرجوا عنها.

الاعتقال وأحاديث السياسة قد يبدوان أمرًا عاديًا بالنسبة للمتهمين بالقضية، ولكنه بالنسبة لسعدية غير عادي بالمرة، فهي بنت بلد، لا تعلم في حياتها سوى أمرين: حبها لأسرتها والمطبخ!! وخصوصا أكلة «الممبار» الذي تفننت في صناعته، وأصبح لها شهرة عالمية بين الأهل!

* * *

بعد فترة غياب استمرت أكثر من شهر، كان قلب سعدية يرفرف شوقا للزوج، ولهفة للاطمئنان على أحواله، حتى جاءها «سيد» أخو زوجها بخبر عنه، بأنه هارب

لدى صديق له في الريف، وسلمها رسالة منه، قرأتها لها ابنتها الكبرى، أذابت ما تبقى من جليد الصمود، فالزوج يبكي لفراقها ويشعر بعذاب في مكان مبيته، فصديقه متزوج من «اثنتين» تقطنان في نفس المنزل وكل يوم مع واحدة منهما. أما زوجها فهو يقبع في حجرته وحيدا دون أنيس أو جليس.

لم تتردد سعدية لحظة، لملمت ملابسها، واستقلت القطار إلى الريف، وأخيرا التقت بالزوج، وبقيت معه بضعة أيام في قمة السعادة، حتى حان موعد الفراق، فيجب على زوجها الانتقال إلى مكان آخر، فكانت لحظة وداعه عصيبة، واستقلت القطار مرة أخرى عائدة إلى بناتها وبيتها الخاوي من الزوج.

حتى سمعت أن «سيد» أخا زوجها تم اعتقاله، لم يمض يوم واحد، حتى اعترف على مكان أخيه، وللمرة الثانية تُعتقل سعدية، في تلك المرة لم تَنْطَلِ عليهم سذاجتها، وشددوا عليها القهر والتنكيل، وهي صامدة لا تنطق ببنت شفة، فواجهوها بقميص النوم الأحمر الذي حرزوه من مسكن زوجها في الريف، وسخروا منها ومن صمودها على زوج لم يراعِ حرمة الزوجية، وكان يبيت مع امرأة بقميص نوم أحمر، ولم تحتمل سعدية أن ينعتوا الزوج ويسبوا شرفه، وبكل فخر وكبرياء اعترفت أنها صاحبة هذا القميص، وأن زوجها لا يمكن أن يخونها، فهو رجل شريف وزوج مخلص. لم تتخيل سعدية وهي تنطق بتلك الكلمات أنها ستتسبب لها في كل ما جرى بعد ذلك من إهانة وبهدلة، وتحملت صابرة، لم تنطق بكلمة أخرى، حتى أفرجوا عنها، بعد أن أثبتت للكل.. أنها ست بميت سيد!

إسطبل عنتر

كان إسطبلًا بالمعنى المتعارف عليه كمكان لمبيت الخيل، لكنه تحول إلى مبيت للبشر، فأصبح منطقة سكنية تقع على خريطة مصر جغرافيا، لكنها لا تقع فيها علميًا وتخطيطيًا، بمعنى أنها منطقة يقطنها مصريون سقطوا من ذاكرة الحكومة والناس أيضًا.

ويعود اسم إسطبل عنتر لقصة قديمة يرويها سكان تلك المنطقة.. أن عنترة بن شداد حين اشترط عليه أبو عبلة أن يدفع مهرها مائة ناقة، سافر لشراء النوق، وفي طريق عودته إلى ديار محبوبته عبلة، مر على تلك المنطقة، وتوقف لإراحة النوق من مشقة السفر، ولهذا أطلقوا عليها «إسطبل عنتر».

أما عن المكان فهو عبارة عن أحواش، والحوش بدايته باب خشبي عتيق، تدخل منه إلى مكان متسع دائري، تلتف حوله العديد من الحجرات، التي يقطن بها البشر، وفي نهاية كل حوش توجد دورة مياه مشتركة مساحتها متر في متر تقريبا، وتتوسطه «حفرة في الأرض» يعني التواليت، وفقط!!

ولا وجود للماء!! ليس في دورة المياه فقط بل في الحوش كله، على من يرغب فيه أن يخرج إلى العمار، ليملأ جردلًا يخزن به الماء في حجرته، وتتكون كل حجرة من مكان يتسع لسرير عبارة عن طوب مصفوف فوقه كيس بلاستيكي سميك، وحوائط الحجرة لم تبن بالطوب والأسمنت كما هو معروف بل بنيت بأحجار الجرانيت وسقفها معرش بجريد النخيل.

لم يجد أحمد رجب سوى تلك الأحواش للمبيت فيها أثناء هروبه، وتقدم لصاحبته

ليؤجر إحداها بخمسة جنيهات شهريا، وبات ليلة غريبة وعجيبة، وهو يتأمل حياة بشر دافع عنهم في مظاهراته ومناقشاته عن الفقر والمهمشين، لكنه أبدًا لم يتخيل مجرد خيال أن حالة الفقر يمكن أن تصل بالناس إلى هذا المستوى المهين من الحياة!

صباحا قرر أحمد أن يرحل، لكن سيدة الحوش ألحت عليه في عزومة على الغداء، فقبل الدعوة مجاملا، وافترشت سيدة الحوش مأدبة الطعام من طبق «الجبن المش» والعيش والسريس الأخضر، أمسك أحمد بقطعة الخبز ليغمسها من طبق المش، فشعر بشيء يسري على يده، وأشياء أخرى كثيرة تقفز من وسط طبق المش، واقترب بنظره في الطبق ليراه مملوءا عن آخره بالدود!!

واستأذن أحمد شاكرًا سيدة الحوش على تلك العزومة الرائعة، وقبل أن يخطو بخطواته خارج الحوش، سمع جاره ينادي عليه ويقسم عليه أن يشرفه في حجرته لتناول الشاي، واضطر أحمد إلى دخول حجرة جاره عامل التراحيل، الذي جاء من بلده ليعمل بحثا عن الرزق في القاهرة، كانت حجرة الجار ممتلئة بالأثاث، بها سرير خشبي فوقه مرتبة من القماش، وبجواره باجور جاز، أمسك الجار بالكنكة المهببة بهباب أسود وملأها بماء من الجردل، ووضعها فوق الباجور المشتعل لعمل الشاي، ونظر أحمد حوله فرأى منظرا غريبا على جدران الحجرة لعروسة مرسومة بلون أحمر، لمح الجار نظرة التعجب في عين أحمد، فقام من مكانه وأحضر كتابا قديما اصفرت أوراقه وتآكلت، وبادره شارحًا :

- الكتاب ده بتاع السحر القديم، والعروسة ديه أنا اللي رسمتها، بالليل بتطلع لي منها عروسة بجد، وكل يوم أقرأ لها من الكتاب ده عشان نحضر الجن اللي هيجيب لنا الكنز.

خرس لسان أحمد عن النطق، وهز رأسه بالموافقة على كل كلمة يقولها الجار، ثم ارتشف كوب الشاي في شفطة واحدة، وشكر الجار على كرمه الواسع، وخرج مسرعًا من الحوش وهو يردد لنفسه :

- برضه كل ده أهون عليّ من الحبس في زنزانة وعلى بابي سجان!

ليستكمل فترة هروبه في أماكن عديدة على شواطئ البحر تارة، وفي بيوت الأصدقاء تارة أخرى!!

غضروف ناصر

المكان مفتوح من جوانبه الأربعة، لا شباك ولا باب ولا حوائط، فالعمارة لا تزال تحت الإنشاء. في بداية الهروب لم يجد ناصر أمين وأحمد عبد المعطي ومصطفى ياسين سوى هذا المكان، صحيح.. «إيش رماك على المُر قال اللي أمرّ منه».

افترشوا الأرض بأوراق الجرائد وناموا ليلتهم الأولى، لكن الناموس بات معهم يتغذى دما من كل حتة في أجسادهم، اليوم التالي اشتروا لمبة سهاري صغيرة، تنير لهم ظلام المكان، ويضعون فوقها أقراصًا للناموس.

ظلوا في هذا المأوى ليالي، لا يحميهم من حر النهار حام، ولا يقيهم من برد الليل واق، كانت تلك التقلبات الجوية سببًا مباشرًا في استفحال الحالة المرضية لناصر، الذي بدأ يشعر بآلام في العمود الفقري، وصلت إلى أقصى مداها، حتى أصبح ظهره وكما يقال: قاب قوسين! يسير محنيا كعجوز ذي تسعين ربيعا، كان يبيت ليلته يبكي ألما، ويلتف حوله معطي وياسين يضغطان بأيديهما على ظهره، ويقرآن له القرآن حتى يهدأ الألم وينام.

حتى أصبح الألم فوق كل احتمال، فاضطروا للذهاب به إلى الطبيب، الذي قرر من فور الكشف عليه ضرورة إجراء جراحة عاجلة في غضروف الفقرات القطنية.

كانوا مفلسين تماما، والعملية تحتاج إلى مصروفات كثيرة، وفي الوقت ذاته لم يعد لدى ناصر أدنى قدرة على الصبر والتحمل، فقرروا المجازفة. توجهوا إلى الجامعة للحصول على خطاب من كلية الحقوق، يسمح لناصر بإجراء الجراحة في مستشفى الطلبة، التي

تقع في ميدان الجيزة، وانتهت المجازفة بسلام واستطاعوا الحصول على الخطاب، ودخل ناصر المستشفى، وأجريت له العملية الجراحية بنجاح، بقي في المستشفي حوالي شهر، يزوره أصدقاؤه الهاربون ويتلذذون معه بالمأوى الدافئ والسرير المريح، بعيدا عن شظى العمارة تحت الإنشاء!

عمرو الرهيب

بات الهاربون في عدة أماكن لدى بعض الأصدقاء، كان منهم «لؤي» الذي باتوا لديه أياما، وما إن تركوه وانتقلوا إلى مكان آخر. حتى علموا أن لؤي اعتقل، وتعرض لجرعة من التعذيب لا يحتملها بشر على مدار أيام وأسابيع.

لهذا حين قرروا الاختباء لدى عمرو رضا، أخبروه أن من الأفضل له تجنب الوقوف أو التحدث مع أي طالب في الجامعة ولو من أعضاء الجمعية، نفذ عمرو المطلوب منه، واستضاف أصدقاءه في شقة جدته العجوز، التي تقطن وحدها في شقة قريبة من منزله، وقدم خلالها عمرو واجب الضيافة على خير وجه.

لمس أعضاء الجمعية في الجامعة تغيرًا في سلوك عمرو، وتجاهله المتعمد لهم بتجنب الحديث معهم، أو الوقوف مع أي منهم، وبدأوا يفسرون تصرفات عمرو على أنها بيع للقضية، وتخلٍّ عن الأصدقاء، خوفا على نفسه وعلى مستقبله التعليمي، وبدأ بعضهم يطلق النكات عليه بأنه خائف على منصب وكيل النيابة الذي يأمله بعد التخرج، وغيرها من التلميحات التي آلمت عمرو، غير أنه كتم في صدره أي دفاع عن نفسه.

تحول عمرو البشوش الذي لم يكن يكفّ عن المداعبة والمقالب في كل من هب ودب، إلى شخص منعزل صامت صمتا رهيبا، حتى أطلقوا عليه عمرو الرهيب. ومضت الأيام، وانتهت القضية، وعرف الجميع السبب الحقيقي لصمت عمرو، الذي لم يكن خوفا أو جبنا، إنما كان قمة البطولة وإيثار الغير.

خالد

خالد ولد تربى في فصول التقوية التي كان يقدمها علي عبد الحميد لطلبة إمبابة، حمل خالد هذا الديْن فوق رأسه، إلى أن جاء موعد سداده، فها هم أصدقاؤه يقعون في ورطة وهروب ويلجأون إليه طلبا لمعاونته.

كان خالد يعمل بالمصانع الحربية صباحًا، وفي المساء يعمل على سيارة ميكروباص، وبتلك السيارة قام خالد بمشاوير وقدم خدمات للهاربين لا تعد ولا تحصى، تعرض خلالها للعديد من المواقف الصعبة.

كان يناوبه في تقديم الخدمات عثمان، مرة خالد بالميكروباص ومرة عثمان «بالفزبة»، ومن يرى عثمان لأول مرة، يشعر بخوف شديد على هذا الجسد النحيل أن تطيّره نسمة هواء، لكن هذا الجسد النحيل استطاع أن يتحمل من التعذيب واللكمات ما لم يتحمله أصحاب الوزن الثقيل!

فبعد أن استشعر الأمن علاقة لخالد وعثمان بالهاربين تم اعتقالهما وتعذيبهما. ولم ينبسا ببنت شفة عن أى مكان لأصدقائهما الهاربين، وتحملا التعذيب في صمت ورجولة، حتى تم الإفراج عن عثمان، لكنه خرج من المعتقل مهزومًا نفسيًا، واختفى عن الجميع.

أما خالد فأثناء تعذيبه الشديد استشعر هلاكه، وتدخل القدر بمنحه فترة يرتاح فيها، بعد أن خرجوا من الحجرة وتركوه وحده. فكر خالد في خدعة ذكية تنقذه مما هو فيه، كان في جيبه شريط برشام مسكن قوي المفعول، أفرغ خالد شريط البرشام

وقذف بحباته من النافذة، وأمسك بواحدة ووضعها في فمه، حتى دخل العسكري عليه الحجرة، فأظهر له ابتلاعه البرشام، وهو يمسك بالشريط فارغا في يديه ويصرخ:

- هموت نفسي، هموت واوديكو في داهية.

أمسك العسكري الشريط الفارغ وجرى إلى الضابط يبلغه بمحاولة انتحار خالد، جاء الضابط مسرعا فوجد خالد مغمى عليه، حاولا إفاقته دون جدوى. فأصدر الضابط أمرا للعساكر أن يحملوه في أقصى سرعة ويلقوا به أمام منزله، نفذ العساكر الأمر، وخرج خالد من محبسه، وظل على إغماءته، حتى شعر بهم يلقون به قريبًا من بيته، وانتظر حتى تيقن من مغادرتهم المكان، فوقف على قدميه وهو يتراقص سعيدا بحريته.

* * *

فارقنا عثمان بروحه بالابتعاد عنا، وفارقنا خالد بجسده بعد أن مرض فجأة ومات، وهو لا يزال في عز شبابه.. تغمدك الله برحمته يا خالد.. وأدخلك فسيح جناته.

وشعرت بالحزن على خالد الذي لم ألقه في حياتي، ولم يخفف من حزني بحثي وراء أسئلة لم أجد لها إجابات! فسألت من رباه في فصول التقوية؛ علي عبد الحميد.. بماذا مرض خالد؟ فأجابني بأنه لا يعلم! وسألته كيف مات؟ أجابني أيضا بأنه لا يعلم؟!

وعزائي.. أن من فارقنا سواءً جسدًا أو روحًا، ستبقى مواقفهم النبيلة أبدًا، لتجعل سيرتهم في الحياة خالدة.

ملابس للهاربين

طلب مني محمود عبد الحميد شراء ملابس للهاربين من بورسعيد، حيث هربوا كل بما يرتديه. اتفقنا على اللقاء في شارع الهرم. خرجت من بيتي أركب الأتوبيس المتجه إلى الجيزة وأنا أحمل الشنطة بها القمصان والبنطلونات. وأثناء صعودي على سلم الأتوبيس، وجدت رجلًا يسرع خلفي ويجلس على الكرسي المقابل لي، شعرت للحظة بالارتياب منه، لكني أهملت التفكير فيه، وأخذت أتطلع من النافذة أتمتع بمنظر النيل الرائع. وبعد فترة التفت فجأة إليه فوجدته يراقبني وما إن رآني التفت ناحيته حتى أشاح بوجهه سريعا للناحية الأخرى.

وشعرت «بالانشكاح»!! لماذا أستخدم هذا اللفظ الغريب في توصيف ما شعرت به؟! لا أعلم لكنى شعرت أن هذا الرجل مُخبر يراقبني، لعل وعسى يكتشف مكان الهاربين، فقادني الانشكاح إلى لعبة.

عندما توقف الأتوبيس في محطة الملك الصالح، ركب من ركب ونزل من نزل، وبدأ الأتوبيس في التحرك مرة أخرى، قمت من مكاني فجأة وجريت نحو السائق:

- حاسب يا أسطى معلش.

توقف الأتوبيس ثواني ونزلت منه مسرعة. وانتفض الرجل من مقعده، وهو حائر بين أمرين: لا يريد أن ينزل خلفي حتى لا يكشف عن نفسه. وبين أن يتركني أنزل ويضيع عمله في تعقبي. وظل واقفا حائرا لحظات، وقفت أشاهد حيرته وأضحك، وسار الأتوبيس دقائق، ثم توقف ورأيت الرجل ينزل منه مسرعا، يلتفت يمينا ويسارا

باحثا عني، وحين وقعت عيني في عينه، ارتبك ارتباكا فظيعا، وقبل أن يفيق من ارتباكه، كنت قد عبرت إلى الجهة المعاكسة للشارع واستوقفت تاكسي وانطلق بي، وأنا أنظر من النافذة على الرجل المسكين واقفا مكانه يضرب أخماسًا في أسداس، بعد أن ضعت منه. سار بي التاكسي فترة ثم نزلت منه أمام محل تصوير فوتوغرافي، وللصدفة الغريبة كان اسم المحل «هناء لتصوير الأفراح والحفلات» نظرت خلفي فلم أجد أحدا دخلت محل التصوير، تحدثت مع صاحبه في إمكانية تكبير بعض الصور القديمة، واتفقت معه على أن آتيه بالصور في اليوم التالي، خرجت من المحل، وعبرت الطريق في الاتجاه المعاكس، وركبت سيارة ميكروباص، طوال الطريق أنظر خلفي حتى تأكدت أن لا أحد يتعقبني، وصلت إلى مكان لقائي بمحمود الذي وجدته قلقا لتأخري، وأضحكته بما رويته له.

واستمرت لقاءاتي مع محمود طوال فترة القضية، كان يطمئنني على أخبار الشباب الهارب وكنت أطمئنه على أخبار من تم القبض عليهم.

البنطلون اتبلّ؟

عنوان غريب! ولكن الأغرب منه ما حدث في ذاك اليوم. يوم أقسى وأصعب، وأحرف «جايه من كلمة حرفنة» من أي أكشن في الأفلام الأمريكاني.

البداية كانت عصر يوم من أيام الصيف الحارة، الجو عصاري، والعصافير تزقزق على الشجر، حان موعد لقائي مع محمود، ولكن في هذا اللقاء لم أكن وحدي، بل سيرافقني «ط.ك» مر عليَّ في البيت، رغم طول المشوار عليه، إلا أنه رأف بكوني حاملًا. ركبت بجواره في سيارته. وبالمناسبة «ط.ك» كان يمتلك سيارة هو وزياد بهاء الدين، كانا يقومان بحركات شقاوة كثيرة، مرة زياد ياخدنا وإحنا في الكلية، نركب معه السيارة النيفا، ويعزمنا على أكلة كشري، صحيح إحنا أكلنا كشري كثير من محل في شارع القصر العيني، لكن الكشري اللي عزمنا عليه زياد كان مختلفًا تماما لأنه كان كشري من فندق الشيراتون!! ومرة أكلنا فول وطعمية، بس برضه كان ليهم طعم مختلف، حيث كان الفول بالزيت الحار والفلافل من الهيلتون!

وكثيرا ما قام «ط.ك» بحركات أكثر شقاوة، فينطلق مع شباب الجمعية ليلا إلى الإسكندرية يتناولون الفول والطعمية من ميدان محطة الرمل، ويرجعون القاهرة صباحا.

قصص وحواديت كثيرة مع عربيات «زياد» و«ط.ك»، لكن كله كوم، والحكاية المرة دي كوم تاني.

* * *

نرجع تاني ليومنا اللي مالوش زي، وإحنا ماشيين بالعربية، قعدت أحكي لـ«ط.ك» عن اللي حصل مع المخبر وإزاي هربت منه، ونصحته إنه لازم يعمل كام حركة تمويه، عشان لو كان مُراقب يعرف. وانعطف «ط.ك» بالسيارة ونحن نسير على كورنيش حلوان ودخل المعادي، وبدأ يلف ويدور بالعربية في شوارع ومتاهات المعادي، إلى أن اطمأن أنه ليس هناك من يراقبنا، ومن ثم انطلق إلى الزمالك، وهو يشعر بالارتياب فيما حكيت له، ويشكك في زعمي بأن هناك من يراقبنا.

فقال لي:

– بقى بتضحكي عليّ، وتقولي لي موّه، ومراقبة، طيب.. يا بنت زكي.

قاد «ط.ك» السيارة بسرعة جنونية، عمل غرز أمريكاني، في الشوارع الضيقة لحي الزمالك. وأنا أقسم له بأن ما قلته صحيح، وأني لم أكذب عليه، وهو يكذبني قائلا:

– مش مصدقك.. أنا هاوريكي.

لم يمنعه صراخي وفزعي من سرعته الجنونية، ولا زلنا في صراخنا وضحكنا، حتى وصلنا إلى منعطف أحد الشوارع، وهو يلف بالسيارة في سرعة وصرير الفرامل يدوي، فجأة كدنا نصطدم بسيارة «فان» سوداء وقفت أمامنا فجأة. واستطاع «ط.ك» أن يفرمل في آخر لحظة. وتوقفنا على حافة السيارة «الفان» تماما، وانحنت ظهورنا حتى لمست أكتافنا ركبنا من شدة الفرملة، وما إن شعرنا بتوقف السيارة، حتى بدأنا نرفع أكتافنا ورؤوسنا إلى أعلى، وصدورنا تخرج شهيقا طويلا، لم تكد رؤوسنا تعتدل فوق أكتافنا، حتى وقعت أعيننا على مشهد مروع، حبس النفس والشهيق في صدورنا مرة أخرى، وأُصبنا بالشلل التام.

إذ رأينا الأبواب الخلفية للسيارة الفان تفتح، ويخرج منها رجال يحملون الرشاشات، وصوت الاستعداد لإطلاق النار يصدر منها، حتى إن رموشنا شلت عن الحركة ولم نستطع إغلاقها، ونزل في لمح البصر رجل يرتدي زيًّا أسود غربيًا ممسكا بالرشاش، وهو ينظر إلينا في حدة. مرت ثوان أو دقائق لا أعلم.. لكني رأيته يعطى إشارة برفع يده اليمنى إلى أعلى، وعيون الرجال المسلحين معلقة على طرف يده، ثم ينزل بيده إلى

أسفل، فتنخفض معها فوهة الرشاشات، ثم أشار لهم بيده اليسرى، فدخلوا السيارة الفان وأغلقوا الأبواب، ثم ركب الرجل، وانطلقت السيارة الفان واختفت.

كل هذا وأنا و«ط.ك»، لا نزال في حالة الشلل التام، لا أعلم كم من الوقت مضى، صمت مطبق في المكان، لا حركة ولا صوت ولا نفس، اقترب منا شرطي المرور الذي كان يقف عن بعد وشاهد ما حدث، نظر إلينا من شباك السيارة وقال:

– حد يمشي بالسرعة دي ورا عربية سعادة السفير «؟»، احمد ربنا إنها عدت على خير.

و«ط.ك» لا حِسّ ولا خبر.

أدرك شرطي المرور ما نحن فيه، فخبط بيده بقوة على كبوت السيارة لإفاقتنا، وهو يصرخ:

– يا كابتن.. كابتن.

وبدأت أوصالنا تسري بها الحياة، وبدأ الذهن يستوعب ما حدث. ونظرت إلى «ط.ك».. وارتعاشة قلبي تكاد تخلعه من صدري:

– الحمد لله.. يللا بينا.. اتأخرنا قوي على ميعادنا.

صرخ فيَّ «ط.ك»:

– ميعاد إيه وزفت إيه؟! أنا بنطلوني اتبل!

وفي عفوية من لم يصح ذهنه بعد.. قلت له:

– بنطلونك اتبل.. من إيه؟!

جماعة أحباء التخلف

بعد أن عصفت حركة الاعتقال الثانية بأعضاء الجمعية، رفض حافظ أبو سعدة أن يعيش مأساة الاعتقال مرة ثانية، وقرر الهروب مصطحبا معه محمد زارع إلى شقة أحد الأصدقاء، وكان يدعى «ناصر» وبقيا هناك أياما يجالسون ناصر وشلته، التي تعرفوا عليها عن كثب خلال تلك الأيام، وتعرفوا على فكر تلك الشلة التي أخذت لنفسها اسم «جماعة أحباء التخلف»، ويتلخص فكر هؤلاء الشباب، في أن الشعب المصري يعاني فعليا حالة من التخلف على كل المستويات، سواء كانت اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية، ومع ذلك إذا ما قال شخص لآخر.. «يا متخلف»، غضب الشخص واعتبرها سُبة. ولهذا فهم يطالبون جموع الشعب ألا يعتبروا كلمة «يا متخلف» سبابا، بل هي تعريف واقعي لحالة واقعية.

ويعيش مع أعضاء جماعة أحباء التخلف، كلب اسمه «روي» وهو كلب مخيف، له جسد قوي، شعر أسود، وعينان جاحظتان، ومع ذلك حين يقترب منه أي شخص غريب، يفر «روي» مذعورا، وطوال فترة بقاء حافظ وزارع معهم، لم يسمعوا صوته أبدًا!

* * *

وتأمينا لهروبهم اضطر حافظ وزارع لتغيير مكان إقامتهما، وانتقلا للإقامة في شقة خالد يوسف، قام خالد بحركات جدعنة مع العديد من الهاربين، من توفير إيواء وطعام، حتى إن أحد الهاربين ثقيل «شويتين» كان يكلفه بشراء الجرائد اليومية كلها، أما حافظ وزارع فكانا حيبين، وقد أفلسا تماما، فشعرا بالإحراج لكونهما عالة على خالد. ففكرا

في كيفية الحصول على نقود تحفظ لهما ماء الوجه، ورغم موقفهما الصعب، إلا أنهما حين أظهرت بائعة الخضار التي تقف أسفل البلكون إعجابها بزارع، وتعاطفها معه لكونه طالبًا مغتربًا ليس هناك من يرعاه، عرضت عليه المساعدة بأن تزوده بالخضار يوميا مجانا، رفض بشدة هذا التعاطف أو قبول مساعدتها.

إلى أن جاء يوم شلة أصدقاء لخالد، كي يسهروا ويروحوا عن أنفسهم، وبدأوا بلعب الكوتشينة، وكان أحرفهم لعبا شخص طويل عريض المنكبين، اكتسب من الشلة مبلغا من المال، «على سبيل الهزار». نظر إليه حافظ وزارع بنصف عين، وغمز حافظ لزارع، الذي يعلم مدى مهارته في الكوتشينة، انضم زارع إلى اللعب، وهزم الجميع هزيمة ساحقة، نفض جيوبهم وبخاصة الشخص الضخم، الذي وجه لزارع نظرة مرعبه تشتعل غيظا وغضبا، قام على إثرها حافظ وزارع ضاحكين بدعوة الشلة بكل الفلوس على عزومة كباب جامدة جدا.

* * *

نصح المحامون حافظ وزارع، بتسليم نفسيهما إلى السلطات المختصة، كان الهروب وعذاباته قد فعل فعلته بهما، فاستقرا على أن يسلم حافظ نفسه صباحا، وزارع في اليوم الذي يليه.

والتزم زارع وعاد إلى شقة أسرته في إمبابة، وأخبر والده بقراره، وافق الأب واصطحب ابنه إلى المباحث وسلمه لهم.

أما حافظ فلم يلتزم بالقرار!

المنزل المهجور

اتفق «ط.ك» مع زارع وحظاظا وعصام على السفر إلى الإسكندرية، استعد حظاظا لتلك الرحلة التي سوف تنتشلهم من نكد وغم الاعتقالات والقضية، وجهز حقيبته بها المايوه والكرة ومستلزمات اللعب على البحر، وركبوا جميعا السيارة، التي انطلقت بهم إلى طريق غير طريق إسكندرية المعروف، وأبدى حظاظا تعجبه من هذا الطريق، حينها أخبره «ط.ك» بأنهم لن يذهبوا للإسكندرية بل إلى منزلهم في البلد، كي يعقدوا اجتماعا لدراسة أوضاع الجمعية وما آلت إليه أمورهم، وتحسر حظاظا متسائلا:

– طيب المايوه اللي جبته أعمل بيه إيه؟!

وانفجروا جميعا في الضحك.

* * *

أصبح حال شباب الجمعية لا يسر، خاصة بعد أن اعتقل معظم كبار السن والخبرة منهم، وهروب بعضهم الآخر، ولم يتبق سوى الشباب حديثي العهد بالانضمام إلى الجمعية، وكاد النشاط الطلابي أن يتوقف في الجامعة، لهذا كان هذا الاجتماع من الأهمية لإعادة بث الروح فيمن بقي منهم داخل أسوار الجامعة. ولهذا قام «ط.ك» بجمع الشباب في معسكر بمنزلهم الريفي. كان المنزل مهجورًا لم تطأه قدم منذ سنوات، فسكنت الغربان والخفافيش أسطحه، فأعاد الشباب إلى المنزل روحه المفقودة بنشاطهم وحيويتهم، ناقشوا خلالها أحوال الجمعية، وأبدوا ملاحظاتهم واقتراحاتهم في كيفية معاودة النشاط مرة أخرى، ونظموا جدولًا لإقامة معرض وإصدار عدد من النشرات الإعلامية.

صباح يوم سمعوا طرقا على الباب، ففتحوه ليجدوا محمود أمامهم، ولم يصدقوا أنفسهم وغمرتهم فرحة غامرة، انطلقوا معا في حديث سمر ومرح يستعيدون فيه ذكريات أيام الجامعة الرائعة. وبدأ محمود يقص عليهم ويلات وعذاب الهروب. وفجأة سمعوا طرقا شديدا على الباب، لم يكن هناك من ينتظرونه فدب في قلوبهم الرعب، وتوارى محمود داخل إحدى الحجرات، وفتحوا الباب ليجدوا عمدة البلد، الذي سمع بقدومهم، ولأن «ط.ك» ابن رجل غالي على أهل القرية وعمدتها، قدم إليهم العمدة حاملا وليمة، من الصواني المحملة بأشكال وألوان المحمر والمشمر، وخرج محمود من مخبئه، ليستمتع مع الأصدقاء بتلك الوليمة.

المُهرب

خرج أحمد رجب من العشة التي كان ينزل بها في إحدى المصايف مع بعض زملائه الهاربين حاملا في يده صنارة لصيد السمك. كانوا قد اتفقوا على ألا يغيب أحد بالخارج بعد منتصف الليل، إلا أن الساعة تخطت الثانية عشرة ولم يعد أحمد، وظل القلق ينهش قلوب زملائه، وكلما مرت ساعة ازداد القلق، فقرروا جمع حقائبهم ومغادرة المكان فورا، تحسبا إن كان أحمد قد قبض عليه، وبالفعل بدأوا في لملمة حقائبهم، حتى سمعوا باب العشة يفتح ويدخل عليهم أحمد ضاحكا، فكادوا ينقضون عليه ضربا، لكنهم تمالكوا أنفسهم حتى يستعلموا عن الأمر، فحكى لهم أنه مشى فترة طويلة، إلى أن اختار مكانًا جيدًا للصيد، فجلس فيه وألقى بصنارته في البحر، وبعد فترة، وجد الأمن محيطا به من كل جانب، وأمسكوا به وطلبوا منه بطاقته الشخصية فأعطاها لهم، وتأكد أحمد أنه راح في خبر كان، حتى بدأوا في سؤاله عن سبب تواجده في هذا المكان؟ وماذا رأى في الفترة التي جلس بها؟ وتعجب أحمد من أسئلتهم الغريبة، وحاول الاستفهام عن الأمر، وفهم منهم أن تلك المنطقة موضع لتسليم المخدرات المهربة عادة من البحر، ووجوده في هذا المكان وهذا التوقيت أثار ريبتهم.. حتى تأكدوا أنه لا علاقة له بتهريب المخدرات، فتركوه لحال سبيله!

الصرف الصحي

سكن محمود عبد الحميد في شقة مع بعض الهاربين، وتعاملوا مع السكان على أنهم طلبة مغتربون كي لا يثيروا ريبة أحد، واطمأن بهم الحال فترة طويلة، إلى أن جاء يوم قبل منتصفه بقليل، سمعوا جرس الباب يرن، فتوقفوا جميعا عن الحركة، وتبادلوا النظرات متسائلين عمّن سيتقدم ليفتح، وتقدم محمود ونظر من العين السحرية بالباب، ويا لهول ما رأى!

رأى ضابط شرطة يرتدي الملابس الميري، فتراجع على أطراف أصابعه إلى زملائه ليخبرهم، ومضت دقائق وهم يتشاورون فيما يفعلون، وكيف يهربون؟ وكانت الشقة تقع في أحد الأدوار العليا، وليس بها أي منافذ للهروب، ولم يعد في الأمر حيلة، توجه محمود وفتح الباب، فوجد الضابط متجهما وقال له:

- لو سمحت الميه في الحمام عندكو عماله تشر على الحمام بتاعنا، وبوظت الدهان. أنا لسه موضب الشقة وصارف عليها الشيء الفلاني، يرضيك كده؟!

ومحمود واقف في ذهول تام، وبعد فترة تمالك أعصابه ورد باتزان وحكمة:

- لأ طبعا ما يرضنيش، بكرة الصبح هجيب السباك يصلح مواسير الميه!

الأتـاري

بعض الشباب الهاربين كسروا قرار حظر التجوال بعد الثانية عشرة مساء، بعد أن أغرتهم لعبة الأتاري على أحد الكافيهات، ودخلوا في سباق جماعي على لعبة، وازداد حماسهم وصراخهم مع كل نقطة وجولة يكسبها أحدهم، وفجأة وجدوا أنفسهم محاطين بضابط، طلب منهم بطاقاتهم الشخصية، وفي طاعة عمياء أخرج كل منهم بطاقته وناولها للضابط، الذي تفحصها بعناية.. فترة مرت كأنها الدهر، ثم نظر في وجوههم المرعوبة، وقال:

- مش عيب عليكم، واحد محامي والتاني صحفي، وقاعدين تزعجوا الناس بصراخكم ده!

ذهولهم جميعا أخرس ألسنتهم، فهزوا رؤوسهم موافقين على ما يقول. ثم أردف الضابط:

- يللا إنت وهو روحوا بيوتكم!

البقية في حياتك

هرب محمد عامر إلى منزل صديق له من أيام الدراسة، يعيش في الريف، وهو شاب فنان لا علاقة له بالسياسة من قريب أو بعيد، ولم يكن وقوفه بجانب صديقه عامر سوى للجدعنة وشهامة المصريين، طاف عامر مع صديقه في جولاته الفنية في مراكز الشباب، يشاهد شباب الفنانين الحالمين وهم يمثلون على خشبة مسارح بدائية للغاية، ولكن مواهبهم كانت أعمق بكثير، وذات ليلة وبعد عودتهم من ليلة مسرحية مرحة، وما زالا يتندران على نكات المسرحية، سمعا طرقا عنيفا على الباب، استمر الطرق دقائق، وعامر وصديقه يقفان مكانهما دون حراك، وكل ما كان يفكر به الصديق أن الأمن بالتأكيد من يطرق الباب، فماذا سيفعل بعد القبض عليهما، وكيف سيتحمل معاناة الاعتقال، وبدأت فرائسه ترتعد من هول ما تخيله، وكاد الطرق يحطم الباب الخشبي، استعان الصديق بدعاء للرحمن، وتوجه ناحية الباب وفتحه، فوجد أمامه شخصًا يعرفه حدثه ببضع كلمات ثم انطلق مختفيا، استمر الصديق على الباب لحظات، يستجمع الكلمات التي سمعها من هذا الشخص، ثم بدأت أساريره تنفرج رويدا رويدا، وأغلق الباب عائدا إلى عامر، الذي كان لا يزال واقفا في مكانه غير قادر على الحراك، وفي لهفة ينغصها الألم، سأل عامر صديقه:

- فيه إيه؟ مين اللي جه؟

وتبسم الصديق وأخذ زفيرا عميقا، وقال وقد اطمأن باله :

- الحمد لله.. جت على خير.. مش هما اللي في بالك!!

عامر لا يزال مصعوقا:

- أمال فيه إيه؟

- جوز أختي تعيش إنت!!

حواديت المعتقلين

يأسك وصبرك بين إيديك وإنت حر
تـيـأس مـا تـيـأس الحـيـاة راح تمر
أنا دقت من ده ومن ده عجبي لقيت
الـصـبر مُـر وبـرضـك الـيـأس مُر

عجبي
صلاح چاهين

لقاء المعتقلين

بعد أيام من الاعتقال بدأوا يفكون عُصابة العين من على وجه غمري، فأخذ يتعرف على زنزانته، ويحاول استكشاف المكان، ثم سمع صوت أقدام تقترب وتفتح إحدى الزنزانات، ويُزج بشخص إلى داخلها.. فنادى غمري:

- غمري بيمسي.

رد عليه صوت..

- وحافظ بيرمي السلام.

ثم ضحك صوت آخر..

- ياسر بيرمي ميت مسا.

ثم أردف حافظ..

- أنا ميت من الجوع ما حدش معاه أكل!!

ضحكوا جميعا.

وقال غمري:

- فيه ناس بتيجي معاهم بصدة نفس، وناس تانية بتيجي معاهم بفجعة!

* * *

بعد أيام سمعوا صوت ضيف جديد في زنزانة مجاورة لهم، فحاولوا التعرف عليه.. فبدأ ياسر يغني:

- بيني وبينك سور ورا سور.. وأنا لا مارد ولا عصفور.

غمري يرد:

- في إيدي عود قوال وجسور.. وصبحت أنا في العشق مثل.

وحافظ ضاحكا:

- والبحر بيضحك ليه.. وأنا نازله ادلع املا القلل..

وهنا جاءهم صوت السجين الجديد..

- الصاوي بيمسي..

وأخذوا يتحدثون ويحكي كل منهم عن كيفية اعتقاله، وفجأة سمعوا صوتًا قاسيًا عنيفًا، رُجت له أرجاء الزنازين. يصرخ فيهم:

- اخرس يا حيوان منّك له!

توابل الصاوي

رغم أن كلية الآثار تتسم ككلية وأعضاء هيئة تدريس بالجدية الواضحة، إلا أن الدكتور أحمد الصاوي الأستاذ بها والمتهم بالقضية، له شخصية مغايرة تماما، فهو ذو ملامح صلبة وجادة حتى يتحدث، فتخر ضحكا من قفشاته الساخرة اللاذعة، التي لا يسلم منها صغير أو كبير.

حين بدأت حملة الاعتقال الثانية، هجموا على منزل الصاوي في الوراق، لم يتركوا ركنا به دون تقليب، حتى دخلوا المطبخ، فوقف الضابط يقلب علب التوابل ويفتحها علبة علبة، وهو يسأل الصاوي عن كيفية تصنيع المتفجرات والقنابل، فرد عليه الصاوي في جديته الساخرة:

– علميا لا أدعي معرفتي بكيفية صناعة المتفجرات والقنابل، لكن نظريا، وحسب معلوماتي العامة، لا أعتقد أنها تصنع من الفلفل الأسود أو الكمون!!

* * *

كان الاعتقال تلك المرة في سجن الاستقبال، وبعد فترة قصيرة ضموا كلا من الصاوي، وياسر عبد الجواد، وغمري، ومحمد منيب في زنزانة كبيرة، وآخر ثلاثة يعملون بالمحاماة فكانوا يلقبونهم بالأساتذة، إلا الصاوي فكانوا ينادونه يا دكتور. ولقب الدكتور هو السبب في إيمان العسكري سيد بأن الصاوي يفهم في كل شيء، فكان يتوجه إليه في كل مرة بطلب شيء ما، المرة الأولى شعر سيد بمغص شديد بعد منتصف الليل، ففوجئ الأربعة بباب الزنزانة يفتح عليهم، ويدخل سيد وهو يمسك ببطنه، ويقول:

- الحقني يا دكتور عندي مغص شوف لي دوا بسرعة!

حاول الصاوي أن يفهم سيد أنه ليس بطبيب، لكنه دكتور في الجامعة، لم يفهم سيد، وشعر الأربعة بالملل والضجر من سيد. فقام غمري وأعطاه برشامة مسكن، وهو يقول له:

- خد البرشامة دي هتريحك قوي.

خرج سيد، وغطوا جميعا في نوم عميق.

صباح اليوم التالي دخل عليهم سيد الزنزانة متهللا، يشكرهم على البرشامة اللي ريحته جدا، وللمرة الثانية طلب من الدكتور الصاوي أن يكتب له دوا للصداع وألم العين.

فقام الصاوي من مكانه وهو ينفخ غيظا من هذا الشخص متقد الذكاء، وأمسك بيده متجها ناحية غمري قائلا:

- من هنا ورايح عليك بالدكتور غمري، يكتب لك على الدواء اللي يريحك!

ولم يكتف سيد فتوجه إلى ياسر عبد الجواد، وسأله لماذا تم القبض عليهم، لخص ياسر لسيد الموضوع في جمله:

- لأننا بنحب جمال عبد الناصر.

فرد سيد متعجبا:

- يا نهاري ما أنا كمان بحب عبد الناصر وكمان بحب الست أم كلثوم.

ثم أعقب:

- عبد الناصر كان شخصية تقيلة قوي، والست أم كلثوم كمان ست تقيلة، إلا هما ماتجوزوش بعض ليه؟

ضحك ياسر وقال له:

- الموضوع التقيل ده يجاوبك عليه الدكتور الصاوي.

وبعد جدال ونقاش طويل أقنعه الصاوي.. أن عبد الناصر كان متزوجا من سيدة فاضلة، ولم يكن يحبذ كزعيم كبير فكرة الزوجة الثانية.

* * *

أطلق على من في زنزانة «الصاوي وياسر وغمري ومنيب»، لقب «الأربعة الكرام». حيث وفد إلى معتقل الاستقبال، مجموعة كبيرة من أهالى المعتقلين، منهم والد ناصر أمين وأخوه، محمد عبد الحميد، أحمد محجوب، محمود عامر، محمد عبد المعطي، بالإضافة إلى زارع وحافظ. وبعض الطلبة الأصدقاء والمعارف.

فكان الأربعة يقومون بدور الرعاية والعناية بالأهالي المعتقلين، الذين لا ناقة لهم ولا جمل، فكانوا ينظمون لهم دورات لكرة القدم، وجلسات للقراءة والتثقيف، إضافة إلى استلام وجبات الطعام التي ترد إليهم يوميا، وتوزيعها بالتساوي على الجميع، وتلك المهمة الشاقة أوكلوها لمحمد عبد الحميد!

وزير التموين

بعد أن قام الأربعة الكرام بتعيين محمد عبد الحميد وزيرًا للتموين، تحمس محمد للمهمة حماسا زائدا، وبدأ ينفذها بكل عزيمة وإخلاص.

صباحا يخرج محمد من الزنزانة لابسا «الروب دي شامبر» ممسكا بمخدته ليضعها في الشمس، ثم يتوجه لزنزانة الأربعة الكرام، يستلم منهم وجبات الطعام المتحصل من الزيارات، ثم يقوم بتقسيمه على الوجبات الثلاث.. إفطار وغداء وعشاء. ويحدد لكل فرد منهم كمية معينة في الوجبات الثلاث. يا ويل من يأكل وجبته ويطلب المزيد! ولهذا بدأت الشكوى من وزير التموين، وبدأها أحمد محجوب الذي تعارك معه محمد، لأنه خلص نصيبه من الجبن الذي من المفترض أن يكفيه فطارًا وعشاء، إلا أن محجوب أكله كله في الإفطار وطلب المزيد! وما إن حلت تلك المشكلة. حتى ظهرت خناقة أخرى مع محمود عامر، الذي اشتكى أن محمد يوزع عليهم فصًّا صغيرا للغاية من صدر الفراخ، وأعلن أخو ناصر تضرره من أن الطعام ليس به شطة!

ثم شكلوا جبهة معارضة لوزير التموين، وبدأوا في تبادل الاتهامات، هم يطلقون عليه «الشاويش عطية» لصرامته وحرصه الشديد في توزيع الطعام، وهو يطلق عليهم المفاجيع حيث أصبحوا يتناولون الطعام بطريقة غير طبيعية، ينفسون كبتهم وتوترهم من السجن في تناول الطعام بشراهة، حتى إن حافظ تنفخ وجهه وتورم جسده من كثرة الأكل.

وحلا لتلك المشكلة، قام الأربعة الكرام بتقسيم مهام عمل، بأن يقوموا جميعا بعد استلام الفول المدمس وجبة إفطار السجن، يجلسون جميعا ويقومون بتنظيف الفول من السوس!! بإعادة تقشيره، ثم هرسه في أطباق نظيفة، بعد إضافة الزيت والتحابيش اللازمة، وملأ الفول البطون الجائعة، كما كانت له فوائد أخرى.

كَيِّيف بالفول!

كان حافظ وزارع في زنزانة واحدة، جاءهما نصيبهما من السجائر من وزير التموين، لكن حتى الشراهة كانت في شرب السجائر، فنفدت جميعها إلا واحدة، أمسك حافظ بالسيجارة ليشعلها فوقعت وتبللت بمياه قذرة كانت على الأرض، وصمت الاثنان حزنا على السيجارة، ثم قررا التغلب على حزنهما وتجفيفها، وبالفعل قاما بإصلاحها إلا أن شكلها أصبح غريبًا، من الخارج ورقها أصفر مبقع بأسود، غير مستوية منتفخة في موضع ورفيعة في موضع آخر. ما إن همَّ حافظ بإشعالها، حتى دخل عليهما الزنزانة شخص مكلف بتوزيع «الجراية» العيش، وهو أيضا أحد المساجين الجنائيين، فوقع بصره على السيجارة التي استغرب شكلها، فأخبره حافظ ضاحكًا إنها سيجارة محشوة بالكيف، وقدمها إليه ليشربها، جلس المسجون وأخذ نفسا تلو نفس، وبدأ يشعر بالانتشاء، وفعل الإيحاء فعلته، وخرج المسجون من عندهم وهو يشعر بالفعل بأنه دخن الحشيش، عاد المسجون إلى زنزانته، التي ينزل فيها مع مسجون آخر يعتبر رئيسه، الذي أمره بأداء خدمة ما، فرفض وتعلل له بأنه.. عامل دماغ عالي.. لكن هذا التعليل لم يكن كافيا ليعفو عنه، فضربه علقة ساخنة.

استمر المسجون في القدوم يوميا إلى زنزانة حافظ وزارع، يطلب منهما سيجارة الكيف، واحتارا ماذا يفعلان له، فكانا يجهزان له السيجارة في المساء، بأن يفتحا ورق سيجارة ثم يغمسان الدخان في طبق بواقي تقشير الفول المدمس، ثم يعيدان لف السيجارة مرة أخرى، والسجين يأتيهما صباحا يدخن السيجارة، ويشعر بتكييف

الدماغ، ويترك لهم الجراية بالزيادة ويمضي منتشيا، حتى تم الإفراج عن حافظ وزارع، وحتى هذه اللحظة لم يعلم السجين الكيّيف أنه كان يدخن السيجارة، مغمسة بالماء القذر والفول المدمس!!

قنبلة صغيرة

سعيد أنور ـ طالب حقوق من دمياط ـ صديق لبعض أعضاء جمعية الدراسات، قام بعزومة عصام ومعطي وحمدي وزارع، في منزله بدمياط، وعمل لهم صينية بطاطس وحلة مليانة شوربة! بعد العزومة جلس الشباب يكتبون لوحات لأحد معارض الجمعية. وكانت ذكرى تلك العزومة وبالا على سعيد، إذ ذُكر اسمه في التحقيقات فتم اعتقاله، وبعد أيام من تعذيبه ليعترف عما فعلوه يوم العزومة، فأخبرهم أنهم أكلوا بطاطس، وكتبوا لوحات للمعرض. غير أن هذا الاعتراف لم يعجبهم، وزادوا من التعذيب ليختلق سعيد حكاية مفادها.. أن أعضاء جمعية الدراسات، كانوا يختبئون بمنزله في دمياط، ويقومون بصنع القنابل، وبأنه قام مع زارع ومعطي بصنع قنبلة كبيرة، بينما صنع حمدي كامل قنبلة صغيرة، أما عصام فكان بيرص لهم الشيشة والجوزة!!

الذكاء الرهيب

وصل إلى سجن الاستقبال ثلاثة طلبة من الجماعات الإسلامية، لكنهم كانوا يدخنون السجائر، ولأن جماعتهم تُحرم التدخين، كانوا يذهبون إلى زنزانة الأربعة الكرام ليدخنوا معهم، وحين علم أكبرهم سنا أنهم محامون، أراد أن يستشيرهم في قضيته وحكى لهم قصته:

- قررت أن أجاهد في سبيل الله، فنصحني صديق بالسفر إلى تركيا، لأقابل أحد قيادات الثورة الإسلامية، الذي سيكلفني بمهمة، وبالفعل جهزت أوراقي للسفر، وركبت الطيارة المتجهة إلى تركيا، ولاحظت رجلًا مصريًا يركب معي، وبعد وصولي لتركيا نزلت كما اتفق معي في أحد الفنادق هناك، ولاحظت أن نفس الرجل المصري ينزل معي في نفس الفندق.

ثم توجهت إلى حديقة عامة لمقابلة الشخص المسئول بتكليفي، ولمحت الرجل المصري يجلس في الحديقة فتجاهلته، وكلفني المسئول بإحراق أحد الملاهي الليلية في شارع البحر الأعظم بالجيزة، عدت إلى مصر، واشتريت جركن بنزين، وحصلت على طبنجة غير مرخصة، وتوجهت لشارع البحر الأعظم، وفي اتجاهي ناحية الملهى الليلي، رأيت نفس الرجل المصري، الذي نادى عليَّ صارخا:

- قف عندك..

فأطلقت عليه أعيرة نارية أصابته، ولكن تم القبض عليَّ قبل أن ألوذ بالفرار، وقدمت

للمحاكمة. وأنهى الشاب حكايته، ثم توجه بسؤاله للمحامين.. هل من الممكن أن يحصل لي الدفاع على حكم ستة أشهر مع إيقاف التنفيذ؟!

وصدم المحامون الثلاثة الكرام، من هول القصة التي سمعوها، لكن صدمتهم الكبرى، حين علموا أن هذا الشاب وأصدقاءه حصلوا على البراءة بالفعل!!

إذاعة إجبارية

بعد استقرار الحال بهم في سجن الاستقبال، فوضوا ياسر في الأذان ووقفوا وراءه للصلاة. هذا الوضع لم يعجب الجماعات الإسلامية، فبدأوا في مضايقتهم، وبمجرد أن يبدأ ياسر بالأذان، يبدأ عدد منهم في الأذان من جهات مختلفة كي يشوشروا عليه. وتدخل الصاوي لحل المشكلة عارضا عليهم جلسة للحوار، فرفض رئيسهم الشيخ رفعت رفضا قاطعا أي حوار معهم.

فرد عليهم الأربعة الكرام، بأن بدأوا في مضايقتهم بالشوشرة على إذاعتهم التي فرضوها فرضا على المساجين، والتى يبدأونها بقراءة القرآن ثم غناء أناشيد إسلامية. وتكفل محمد منيب بالردّ، وبمجرد أن يبدأوا هم إذاعتهم، يبدأ هو وبصوته الرخيم في ترديد أغانٍ وطنية، أو قصائد لأمل دنقل. فكان رد فعل الجماعات أن تجنبوهم وتحاشوا الاقتراب منهم. وسكنت الأوضاع بينهم لفترة. حتى خرج الأربعة الكرام واحدا تلوا الآخر في غرفة المشورة. وبقي الشباب وحدهم.

وقرر سعيد الدمياطي أن يستكمل ما بدأه منيب في الغناء، وما إن بدأ سعيد في غناء أغنية لمحمد منير، حتى أمره أميرهم أن يصمت، رفض سعيد الأمر واستمر في غنائه، فتوعده الأمير أن يلاقي جزاءه في الصباح، واستعد الجميع للمعركة الصباحية، في الصباح وقفوا أمام باب الزنازين انتظارا لفتح أبوابها، غير أن العسكري تواطأ مع الجماعات، ولم يفتح سوى أبوابهم وباب سعيد فقط! وهجموا جميعا على سعيد منفردا! وضربوه علقة ساخنة، ثم فتحت باقي الزنازين، واشتبك شباب الجمعية في معركة طاحنة مع الجماعات، إلى أن تدخل الأمن وفض المعركة.

بطولة آباء وأمهات

خُوض معركتها زي جدك ما خاض
صالب وقـالـب شفتك بامتعاض
هـيَّ كـده.. ما تنولش منها الأمل
غير بعد صـد وَردّ وأوجـاع مخـاض

عجبي

صلاح چاهين

أبو محمد زارع

كان عم علي عاملًا في شركة الغزل والنسيج، ولفتوة جسده وعقله المشبع بالفكر السياسي، انخرط بالعمل النقابي في الشركة، كان صوت العمال والمدافع عن قضاياهم حتى أُشيع عنه لقب «فتوة الحق»، خاصة بعدما قام بضرب رجال بلد بحالها، وحدث هذا عندما سمع أن أخاه الصغير سافر إلى بلدهم في بركة السبع، وهناك تعارك مع شخص ما، فقام بجلب عائلته والتفوا حول أخيه وأوسعوه ضربًا، سمع علي بما حدث، فطار إلى البلد ممسكًا العصا وطاح بها على رجال البلد ضربا، وصل الأمر للعمدة، فاستدعى عساكره للإمساك به، وقف علي أمام العمدة وأهل البلد المصابين، ففاجأهم العمدة باحتضانه لعلي وتقبيله، ثم استدار العمدة إليهم قائلا: ده رجل وقف لرجالة بلد بحالها، عشان يدافع عن مظلوم، هو ده فتوة الحق بجد.

بعد تلك الحادثة بسنوات طوال، قام عم علي بموقف بطولي، حين أمسك بيد ابنه محمد، وقام بتسليمه إلى مباحث أمن الدولة بنفسه، ثم توجه لنقابة المحامين، هناك التقيته وجلسنا نتحدث فقال:

- في الأول لما محمد هرب، اقتحم الأمن علينا البيت يبحثون عنه، فأصابوا أطفالي بحالة من الذعر، معاهم رشاشات وأسلحة مخيفة، ونظر الضابط كبيرهم إلى صورة جمال عبد الناصر المعلقة على الحائط وسألني:

- إيه اللي عاجبك فيه؟!

رديت عليه:

- حد يقدر يتكلم كلمة عن عبد الناصر، ده هو السبب في تعليم ولادنا، حارب الاستعمار وحررنا، أنا اتشردت أيام الملكية، ومصنع النسيج اللي باشتغل فيه دلوقتي عبد الناصر اللي عمله، طبعا لازم نحبه.

واستكمل عم علي حديثه معنا، وقد ملأ صدره بنفس عميق وقال:

- أنا فخور بمحمد، ابني لم يفعل شيئًا غير أنه بيحب بلده. عشان كده سلمته ليهم بإيدي، وأنا واثق إنه هيخرج براءة.

أم محمد زارع

ربة بيت بسيطة، لا تعلم من الحياة سوى دائرة أسرتها، في بداية التحقيقات، لم يكن ابنها محمد مطلوبا، ولهذا كان بيته مأمنا للهاربين، وكان منهم ناصر أمين، الذي بقي لدى محمد مدة يومين، كانت بوادر الانزلاق الغضروفي قد ظهرت على ناصر، فرقّت أم محمد لحال ناصر كأنه ابنها. بعد يومين قرر ناصر، أن يترك بيت محمد، فدخلت الأم المطبخ، وجمعت كل ما كانت تملكه الأسرة من طعام، كيس سكر وعدس وفول، وأعطته لناصر الذي دمعت عيناه لحنانها، فقبّل يدها وانصرف.

أم حافظ أبو سعدة

التقيت معها أكثر من مرة أمام نيابة أمن الدولة، أو في سجن مزرعة طرة، امرأة بسيطة تلقائية، ترى وجهها في وجه كل أُم مصرية. اعتقل زوجها الذي كان طريح الفراش فأصيب في اليوم التالي لاعتقاله، بحالة إغماء لتدهور حالة كبده فاضطروا للإفراج عنه. بقيت بجوار زوجها تراعيه فترة مرضه العصيبة، وفي ذات الوقت تجري وراء ابنها من النيابة إلى السجن، وعندما يشتد المرض بزوجها، كانت ترسل ابنتها ليلى، تلك الشابة المليحة، التي لم يؤخرها الانشغال بأبنائها الأطفال يومًا، عن الوقوف بكل جدعنة وشهامة، بجوار أخيها حافظ.

والد حافظ أبو سعدة

والد حافظ أبو سعدة صول على المعاش، حطمه المرض جسديا، وأحبطه ما حدث لابنه نفسيا، وكان يحلم بأن يكون حافظ وكيلا للنيابة، أو يعمل في مركز حكومي مرموق، لكن بعد اعتقاله ووصمه سياسيا ضاعت كل آمال الأب. ولكن رغم العلة الجسدية والنفسية، لم تتوقف الشجاعة في روحه لحظة واحدة، وهو ما تجسد في عمل فظيع أقدم عليه.

بعد شهور من اعتقال حافظ، ودخول الأب المستشفى أكثر من مرة، والزيارات المتعاقبة من الأمن لتفتيش البيت وقلبه رأسا على عقب، وصل الأب إلى حالة من الزهق والغضب أفقدته السيطرة على أعصابه، فحين زارتهم قوات الأمن في هذا اليوم، وبدأوا في تكرار نفس المشاهد، من تفتيش وقلب أثاث وجمع أوراق وكتب، نفد صبر الأب وجرى نحو المطبخ، وأمسك بأنبوبة البوتوجاز في يد وفي الأخرى بالولاعة، وصرخ مهددًا، بإشعال النيران فيهم وفي كل البيت، إذا لم يتركوه في حاله، وتسمر الجميع في ذهول، واحتبست الأنفاس لثوان، بعدها أدرك الضابط المسئول، حجم المعاناة والضغط النفسي الذي يعاني منه الأب، فأمر القوات بالانسحاب فخرجوا من البيت، ولم يعودوا إليه مرة أخرى.

أم مصطفى ياسين

كانت أم مصطفى مستيقظة تستعد لصلاة الفجر حين سمعت صوت سيارات الأمن، وأقدامهم تقترب من الشقة، نظرت من الباب ورأتهم، ولأنها تعلم أن ابنها له في السياسة، توقعت أنهم قادمون لأجله، جرت نحو حجرته وأيقظته بسرعة، وجهته ناحية الشباك الخلفي للشقة وودعته، قفز مصطفى من الشباك على سطوح المنزل المجاور، ومنه إلى السطوح التالي، ثم إلى الشارع، وحين اطمأنت أن ابنها أصبح في أمان، فتحت لهم الباب.

ورغم الحصار الأمني للبيت، الذي استمر طوال فترة القضية، إلا أن مصطفى في ليالٍ كثيرة كان يعود إلى المنزل بنفس الطريقة التي خرج بها، يجالس أُمه وأخته ويطمئن عليهما، ثم يقفز من الشباك مرة أُخرى ويختفي.

والد ناصر أمين

تم اعتقاله ورُحل إلى سجن استقبال طرة، ولكن العناية الإلهية أرسلته حيث كان غمري وياسر، فظل تحت رعايتهما طوال فترة اعتقاله، ورغم كبر سنه، وإصابته بالعديد من الأمراض، إلا أنه تحمل فترة الاعتقال في جلد وصبر. وانضم إليه ابنه كمال، أخو ناصر الذي كان مثالا للشجاعة والصمود.

سعاد عبد المعطي

البطلة هي ليست أمًا أو أبًا، بل هي أُخت أحمد عبد المعطي، وهي فتاة مرحة للغاية، لا تراها إلا وهي مبتسمة حتى في أقسى حالات الحزن، ولهذا عندما هجم الأمن على منزل «معطي» في المرة الأولى، فتش وقلب البيت ولم يجد أحدًا، فأمسك بالأم ليعتقلها، تقدمت سعاد من الضابط، وفي ابتسامتها الدائمة، قالت له بألفاظها التي تخرج من فم ألدغ في بعض حروفه:

- ممكن تعتقلني أنا بدل أُمي، أصلها ست كبيرة ومريضة.

ورغم استغراب الضابط من موقفها، إلا أنه وافق، واعتقلت سعاد.

أم أحمد عبد المعطي

وفي المرة الثانية بعد عدة أشهر، اقتحمت قوات الأمن منزل معطي، إلا أنهم لاحظوا مواقف غريبة في هذا المنزل، دون أي منزل دخلوه!

الأم فتحت لهم الباب وهي مبتسمة «تقريبا كل عائلة معطي دائمة الابتسام.. حتى في أحلك لحظات حياتهم وأشدها حزنًا»!! ورحبت بهم في ود شديد، وأثناء قيامهم بعملية التفتيش، فتحت لهم زجاجات المياه الغازية، وبعد أن انتهوا من مهامهم، حلفت عليهم ميت يمين، أن تجهز لهم العشاء - رغم أن الوقت شارف على الفجر!

رفض الضابط عزومة الأم في اقتضاب، ثم طلب من الأب أن يرتدي ملابسه ليذهب معهم، قام الأب المسن المريض في سلامة نية وبتأنٍّ وهدوء، ونادى على ابنته آمال وطلب منها أن تأتي له بدواء السكر ودواء الضغط ودواء.. وقبل أن ينطق بباقي أسماء الأدوية، كان الضابط قد رحل من المنزل وخرجت معه قواته جميعها!!

الحاجة فاطمة

الحاجة فاطمة لم تكن أُمًا لغمري، أي حماتي فقط، بل كانت أُمًا لجميع المتهمين. برغم أن الحاجة فاطمة أمية، إلا أنها تكتنز عِلمًا، لا يعلمُه كثيرون في هذا الزمن، علمًا اكتسبته بعامل الزمن، واختزنته في وعاء من قلب ذهبي، يُحب بلا حدود ويُعطي أيضًا بلا حدود.

فمنذ اليوم الأول لبداية التحقيقات، رافقتني أُمي الثانية في كل خطواتي، من النيابة إلى النقابة إلى المحكمة إلى السجن، مشاوير طويلة تنتهي أحيانًا بعد منتصف الليل.

كانت الحاجة فاطمة ترافقني يوميًا إلى رحلة السجن، أُسميها رحلة لأنها كانت سفرًا طويلًا، فآخر نقطة تتوقف بها المواصلات المؤدية إلى هناك، أمام بوابة حديدية كبيرة، ثم تبدأ رحلة السير على الأقدام، حوالي ثلاثة كيلو مترات وسط صحراء قاحلة، ثم تبدأ المزرعة في الظهور، والمزرعة هي عبارة عن استصلاح أرض الصحراء من قبل المساجين، يزرعون بها شتى أنواع الخضراوات والفاكهة، وعلى أبواب المزرعة تأتي البوابة الرئيسية للدخول إلى السجن، ورغم أن زيارة الأهالي المسموح بها كل خمسة عشر يوما، إلا أننا كنا نتوجه إليهم كل يوم، كي نُوصل لهم شنط الطعام، وكان هذا يتم عبر «عم علي» الصول الواقف على البوابة، وهو رجل طيب القلب، منذ أول زيارة لنا رق قلبه وتعاطف مع انتفاخ بطني من الحمل، فكان يجلسني على الصخرة أسفل شجرة، ويأخذ منا حقائب الطعام ويدخل بها إليهم، ثم يعود بقائمة طلباتهم للغد وسلام شفوي. كنا نعود إلى البيت في حالة إنهاك تام، ما يلبث سواد الليل أن ينقضي، إلا وأسمعها استيقظت، ونزلت إلى المطبخ تعد الطعام، فأنزل إليها أُساعدها في إعداد حقائب طعام المعتقلين.

حتى أنهكها الحمل الثقيل، وأصيبت بانزلاق غضروفي، وأشفقت عليها فأوهمتها بأن الزيارة اليومية تم منعها من الأمن، ولن يسمحوا لنا بدخول السجن إلا في موعد الزيارة فقط وأقسمت عليها أن تعود إلى منزلها في بورسعيد، وألا تأتي سوى يوم الزيارة، واستجابت مرغمة، تحت وطأة المرض وآلام الغضروف.

والد علي عبد الحميد

والد علي ومحمود عبد الحميد «رحمة الله عليه»، كان رجلًا شيخًا تخطى السبعين من العمر أثناء تلك الفترة، وأصيب بجملة من أمراض الشيخوخة، لا طاقة له باحتمالها، ذات مرة حين هجم الأمن على منزله بالإسماعيلية، وقاموا بحملة التفتيش المعروفة، من قلب الأثاث والبحث والتنقيب في كل ركن من المنزل، جلس الأب على كرسيه يشاهدهم، غير قادر على الحراك مسلما أمره إلى الله، وبعد أن انتهوا من تفتيشهم، ولم يجدوا ما يبحثون عنه، أمسك العسكري بيد الأب، ليحمله على المضي معهم إلى القسم، لكن الضابط لاحظ أن الأب لن يحتمل معهم بضع ساعات، فأعطى أوامره للإمساك بالأم، وهم العسكري أن يمسك بيد الأم لاعتقالها، إلا أن الأب صرخ بهم:

- لا.. حرام عليكم.. سيبوها دي ست كبيرة ومريضة.

ثم نظر الأب إلى ابنته الشابة الواقفة جواره، بنظرة حزن وألم، موجها حديثه إلى الضابط:

- إذا كان ولا بد.. خدوا بنتي بدالها!!

جيران سيد عبد الحافظ

قام مصطفى ياسين بعزومة لأعضاء الجمعية المغتربين على الإفطار في شهر رمضان، وقام بكتابة أسمائهم في كشف، حتى يتسنى له تجهيز الوجبات على عددهم. وبعد القضية حين داهم الأمن منزل مصطفى لتفتيشه، وجدوا قائمة الأسماء واعتقدوا أنها كشف تنظيمي فقاموا بحملة اعتقالات لكل من ورد اسمه بالكشف، وكان منهم سيد عبد الحافظ، وفي الفجر داهمت سيارتان مصفحتان قرية سيد بالمنيا، وسدت الشارع بأكمله، وصحا أهل القرية جميعا مذعورين، لهذا الحدث الذي يحدث في قريتهم لأول مرة، وبعد أن قام الأمن بحملته التفتيشية المعتادة ورحلوا عن القرية. سرت الشائعات والأقاويل عن سيد كإرهابي سياسي مطلوب القبض عليه، ومنع الآباء أبناءهم من الحديث مع سيد، وكان منهم صديق لسيد وأيضا زميله بالكلية، وقف أبو زميله هذا وهو رجل فلاح بسيط، أمام البيت يُقسم على ابنه أغلظ الأيمان، أنه لن يُكلم ولن يُسلم على سيد مرة أخرى، لأنه وعن يقين وتسليم تام بها سمعه، يعلم أن من سيتحدث مع سيد.. هتيجي الحكومة تدك بيتهم بالدبابات والطيارات!!

المحاكمة

أنـا قلبي كـورة.. والـفـراودة أكـم
ياما اتنطح وانشاط.. وياما اتعكم
واقــول له كله هينتهي في المعـاد
يقـول بساعتك؟ ولّا ساعة الحكــم؟

عجبي

صلاح چاهين

القبض على تنظيم ثورة مصر

اقتربت جلسات المحاكمة، واستعدت هيئة الدفاع لمرافعتها، وجهزت كافة الأسانيد القانونية في محاولة للحصول على براءة المتهمين، ورغم ذلك فإن أغلب هيئة الدفاع كانوا يشعرون بالتشاؤم، وتدور أحاديثهم حول احتمالية الحكم بالسجن على بعض المتهمين.

إلا أن حدثًا جللا قد وقع، بدأت بعده الحياة تنهج نهجا مختلفا، وتغير حالنا إلى حال آخر؟ بعد أن تم القبض على أعضاء تنظيم ثورة مصر، ورئيسه محمود نور الدين[1].

(١) محمود نور الدين من مواليد ١٩٤٠ بالإسكندرية، سافر إلى لندن عام ١٩٦٤ والتحق بالعمل بالمكتب التجاري للسفارة المصرية في لندن. وهناك استكمل دراسته وحصل على البكالوريوس في الاقتصاد، ثم تم إلحاقه بمكتب المخابرات العامة بالسفارة المصرية، وكان عمله مختصا بمتابعة النشاط الصهيوني في بريطانيا، وأدى نور الدين لبلاده خدمات جليلة في هذا المجال خاصة خلال حرب عام ١٩٧٣، واستمر نور الدين في عمله بكفاءة حتى جاءت زيارة الرئيس السادات للقدس عام ١٩٧٧، والتي شكلت صدمة لنور الدين دفعته إلى تقديم استقالته من جهاز المخابرات المصرية، وانصبت جهوده بعد ذلك على تأسيس مجلة في لندن مناهضة لسياسات السادات حملت اسم «٢٣ يوليو»، وعهد نور الدين برئاسة تحريرها إلى الكاتب محمود السعدني، ولكن المجلة سرعان ما توقف إصدارها لأسباب مادية. في عام ١٩٨٣ عاد نور الدين إلى مصر، وقد اختمرت في ذهنه فكرة العمل المسلح كطريقة لمواجهة الوجود الإسرائيلي على أرض مصر، وكان هدف نور الدين الرئيسي هو مواجهة رجال الموساد ممن يتخفون تحت غطاء دبلوماسي، ومع عام ١٩٨٤ كان التنظيم المسلح الذي خطط له نور الدين قد بدأ في التشكل، وحمل اسم «ثورة مصر» وضم مزيجا فريدا من المدنيين والعسكريين، وضع نور الدين أهداف التنظيم واضحة أمام بقية الأعضاء: تصفية الكوادر الجواسيس العاملين تحت غطاء السلك الدبلوماسي، لكن بصورة غير رسمية حتى لا تقع مصر في أزمات دبلوماسية أو ما شابه، ورفض نور الدين رفضا قاطعا اغتيال أي مصري أيا كان موقفه السياسي وكان يردد دائما أن «صدور الصهاينة أولى بكل رصاصة».

تزامُن بداية نشاط جمعية الدراسات العربية في الجامعة عام ١٩٨٤، مع بدء عمليات الاغتيال التي قام بها تنظيم ثورة مصر. وإفصاحهما عن موقفهما تجاه العدو الإسرائيلي. وإعلانهما عن هويتهما كناصريين، كل ذلك أدى إلى تلك الحالة من الالتباس. التى أكدت عليها الصحف في مانشيتاتها، بعد إلقاء القبض على المتهمين بقضية التنظيم الناصري في يونيو ١٩٨٧، فجاء الخبر كالتالي:

«اتهام عدد من الناصريين بتشكيل تنظيم سري مسلح..».

وأسفله مانشيت رئيسي دون فاصل بينهما وكأنهما خبر واحد، جاء فيه:

جاءت أولى عمليات التنظيم في يونيو عام ١٩٨٥ حين تمكن أعضاؤه من اغتيال زيفي كيدار مسئول الأمن في السفارة الإسرائيلية بالقاهرة، وفي أغسطس من نفس العام وجهت «ثورة مصر» ضربتها الثانية للموساد الإسرائيلي حين قام أعضاؤها باغتيال ألبرت اتراكشي المسئول السابق للموساد في إنجلترا والذي كان يعمل بالسفارة الإسرائيلية في مصر والذي وصفه محمود نور الدين في حوار صحفي فيما بعد بأنه كان «يتلذذ بفقوء أعين الأسرى المصريين».

وجاءت العملية الثالثة احتجاجا على مشاركة إسرائيل في معرض القاهرة الدولي للكتاب فقامت ثورة مصر بهجوم على سيارة إسرائيلية تضم المشاركين في جناح إسرائيل بالمعرض عام ١٩٨٦، وشهدت العملية الرابعة توسعا لضربات التنظيم حيث قرر نور الدين استهداف رجال المخابرات الأمريكية في القاهرة، وتحقق ذلك في هجوم شنه أعضاء التنظيم على ٣ عاملين بالسفارة الأمريكية بالقاهرة في مايو ١٩٨٧، مما جعل التنظيم ملاحقا من الأمن المصري والموساد الإسرائيلي والمخابرات الأمريكية على حد سواء.

وجاءت الخيانة من أقرب الناس لنور الدين وهو شقيقه «أحمد عصام» الذي لجأ إلى السفارة الأمريكية في القاهرة، عارضا عليها كافة معلوماته عن التنظيم وأعضائه مقابل حصوله على الجنسية الأمريكية ومبلغ نصف مليون دولار، ورغم ذلك فلم يحصل «أحمد عصام» على ثمن خيانته المرجو، بل قامت السفارة بتسليمه إلى الأمن المصري مع بقية أعضاء التنظيم الذين تم إلقاء القبض عليهم في أواخر عام ١٩٨٧.

حوكم نور الدين مع عشرة متهمين آخرين من بينهم خالد نجل الرئيس الراحل جمال عبد الناصر الذي وجهت له تهم تمويل التنظيم وإمداده بالأسلحة ولكن سرعان ما تم تبرئته مع أربعة متهمين آخرين، في حين حكم على نور الدين بالسجن ٢٥ عاما، ولم يغب عن المحاكمة -بالطبع- دور الصحافة الرسمية المصرية التي سعت إلى تصوير أعضاء التنظيم كإرهابيين ومدمني مخدرات ولكن ذلك لم يؤثر على حجم التعاطف الشعبي الهائل الذي بدا واضحا خلال المحاكمة.

في ١٦ سبتمبر ١٩٩٨ تم تشييع جنازة محمود نور الدين الذي لقي ربه في ليمان طره بعد أن قضى ١١ عاما في السجون المصرية، ورغم التواجد الأمني المكثف في الجنازة إلا أن ذلك لم يحل دون مشاركة شعبية واسعة قام المشاركون خلالها بإحراق العلم الإسرائيلي والهتاف ضد إسرائيل والولايات المتحدة.

«منظمة ثورة مصر تعلن أنها تعمل من داخل القوات المسلحة وتسعى لثورة شعبية».

لكن في سبتمبر ١٩٨٧ اعتقل أعضاء تنظيم ثورة مصر. وبدأت الأحوال تتغير، فخفف الأمن قبضته عن المعتقلين في قضيتنا، وتم الإفراج عن الأهالي المعتقلين «الرهائن» جميعا. تلاها تحول الشعور العام لهيئة الدفاع في قضيتنا من التشاؤم إلى التفاؤل. وبعدها بشهرين في نوفمبر تمت إحالة قضيتنا إلى المحاكمة.

قرار الإحالة

في ٢٢-١١-١٩٨٧ صدر قرار إحالة المتهمين إلى المحاكمة..

بعد الاطلاع على الأوراق وما تم فيها من تحقيقات..

نتهم..

١- صلاح الدين الدسوقي - مدير المركز العربي للإدارة والتنمية - محبوس

٢- علي عبد الحميد - محامٍ - هارب

٣- جمال منيب - مهندس إلكترونيات - محبوس

٤- محمد الغمري - محامٍ - محبوس

٥- حافظ أبو سعدة - طالب بكلية الحقوق - محبوس

٦- ياسر عبد الجواد - محامٍ - محبوس

٧- أحمد الصاوي - أستاذ في كلية الآثار - محبوس

٨- محمد شعبان - محامٍ - هارب

٩- محمود عبد الحميد - محامٍ - هارب

١٠- أحمد عبد المعطي - طالب بكلية الحقوق - هارب

١١- مصطفى ياسين - طالب بكلية الحقوق - هارب

١٢- ناصر أمين - طالب بكلية الحقوق - هارب

١٣- أحمد رجب - طالب بكلية الحقوق - هارب

١٤- محمد عامر - موظف بأكاديمية الفنون - هارب

١٥- عبد القوي أغا - فلاح

جاء ملخص قرار الاتهام بأن المتهمين، شكلوا تنظيما سريا، وتخابروا مع دولة أجنبية، وحازوا متفجرات وقنابل، واستهدفوا تفجير بعض المواقع، ونأمر بإحالة الدعوى إلى دائرة محكمة أمن الدولة العليا «طوارئ» بدائرة استئناف القاهرة لمعاقبة المتهمين المذكورين، وندب المحامين للدفاع عنهم.

ملاحظات على قرار الإحالة

- بعد صدور قرار الإحالة غير متضمن اسم محمد منيب، فوجئ الجميع بقرار إحالة مستقل يصدر له بعد ذلك لينضم لباقي المتهمين.
- عبد القوي أغا فلاح بسيط، اتهم ببيع مسدس لجمال منيب، ورغم أنه لا علاقة له بالسياسة من قريب أو بعيد، إلا أن اسمه جاء كمتهم أخير في قرار الإحالة!
- العجيب أن ياسر حسن، استبعد من قرار الإحالة في القضية، برغم أنه صاحب سوابق تنظيمية، فضلا عن أنه لم يكن عضوا فقط في جمعية الدراسات العربية كباقى المتهمين، بل كان مقررا للجمعية في العام السابق على القضية مباشرة!

هيئة الدفاع

تشكلت هيئة الدفاع عن المتهمين في قضية التنظيم الناصري، من كبار المحامين الذين شهد لهم التاريخ بالعديد من المواقف البطولية، ومن شباب المحامين الذين أذكرهم عرفانًا منا لهم بجميل لن ننساه. وهم الأساتذة: لمياء صبري مبدي - سيد شعبان - علم الدين زنط - أحمد عبد الحفيظ - ميرفت أبو تيج - سيد عبد الغني - عطية سليمان - عبد الحميد الزناتي - سامح عاشور - فوزي العريان - جمال فهمي - محمد حسن خليل - عبد الله كامل.

قاموا جميعا بعمل دءوب وتبادلوا الأدوار، في حضور تحقيقات النيابة وزيارة المعتقلين في سجن مزرعة طرة والاستقبال وأبو زعبل.

القديس

هو ينتمي إلى نموذج نادر في الحركة السياسية وبين البشر. مثال في الاستقامة والنزاهة والانحياز لمصالح الشعب وللإنسان، بدأ طريقه إلى الاشتراكية أمام محل جروبي، حينما دعاه والده الباشا وهو صبي في الحادية عشرة إلى قطعة جاتوه، لكنه لم يكمل الطبق، عندما رأى طفلا فقيرا يلعق الفاترينة الخارجية للزجاج، عسى أن يطول التورتة المعروضة داخل الفاترينة. غلبته الدموع وألح عليه السؤال: لماذا نأكل نحن التورتة.. ويلعق الآخرون الزجاج؟! واخترق الحاجز الزجاجى وعالم القصور والباشوات، ليحلم بعالم يتسع لكل البشر. ولم يكن اختياره لمهنة المحاماة، واتصاله بتنظيمات الحركة الشيوعية، بعيدا عن هذا الاختيار الإنساني. وطوال رحلته استحق الأستاذ نبيل الهلالي عن جدارة لقب «القديس»، فقد كان مثالا في بساطته وإخلاصه للناس وحبه للبشر.

وفى قضيتنا.. كانت مرافعة الهلالي قائمة على نسف تهمة التخابر مع دولة أجنبية «ليبيا». حيث أثبت أن «الدولة الاتحادية» بين مصر وليبيا ما زالت قائمة، ولم تتخذ الإجراءات الدستورية لحلها، فكيف تتخابر دولة على نفسها؟!!

المحارب

منذ أن اعتُقل واتُهم في قضية تنظيم سري، عاهد نفسه على الدفاع عن كل متهم يعاني ما عاناه، ولأجل الحفاظ على عهده، دخل العديد من الحروب الضروس، في القضايا والمحاكم التي لم يكن يخرج منها إلا منتصرا. هو الدكتور عصمت سيف الدولة، صاحب الفكر القومي، ناضل من أجله سنوات، ودافع عن أفكاره ومبادئه، وتم اعتقاله مرات منها: أول أيام حكم السادات ١٩٧٢ بتهمة التخطيط لإنشاء تنظيم قومي هدفه قلب أنظمة الحكم في العالم العربي، وهو ما سمي بتنظيم «عصمت سيف الدولة»، واعتُقل مرة أخرى عام ١٩٨١.

وزادنا من نبع نضاله الفكري بالعديد من المؤلفات، منها: أسس الاشتراكية العربية، نظرية الثورة العربية، الطريق إلى الوحدة العربية، مشكلة فلسطين من وجهة نظر قومية، هل كان عبد الناصر ديكتاتورا؟

وتطوع الدكتور عصمت للدفاع عن المتهمين في قضية التنظيم الناصري، وقام بأعمال بطولية أثناء نظر القضية، حتى إنه عرض نفسه لمواقف صعبة بقبوله لقاء الهاربين لمشاورتهم في القضية وموضوع تسليم أنفسهم من عدمه.

وقد نسف الدكتور عصمت أُسس إثبات التهمة، بنسف اعترافات جمال، الذي أثبت بتقرير من طبيب نفسي أنه شخص مريض.

المناضل

كان من ضمن قائمة المغضوب عليهم في انقلاب مايو الساداتي، حُكم عليه بالسجن عشر سنوات، خرج بعدها مصابا بالعديد من الأمراض الجسدية، إلا أن قلبه لم يصبه العطب أو اليأس، فاستمر في أداء دوره النضالي من خلال عمله كمحام، يدافع عن أي متهم في قضايا الرأي أو القضايا السياسية. في بداية التسعينيات تشكل الحزب الناصري، وأصبح الأستاذ فريد عبد الكريم وكيل مؤسسيه.

تطوع الأستاذ فريد للدفاع في قضيتنا، فالأستاذ فريد له علاقة ومعرفة، بالعديد من المتهمين بالقضية لكونهم ناصريين، التقى بهم في أكثر من مناسبة لاحتفاليات الناصريين سواء بثورة يوليو أو ذكرى جمال عبد الناصر، ولهذا كان من أكثر نقاط القوة في مرافعته عن المتهمين، توضيح تضارب أقوال شاهد الملك، وطرحه تساؤلًا حول استخدام المتهمين أسماء حركية مستعارة، فكتب الأستاذ فريد في مذكرة دفاعه قائلا: «لا يعقل أن يكون المتهمون صلاح دسوقي وعلي عبد الحميد ومحمود عبد الحميد ومحمد الغمري وياسر عبد الجواد وأحمد رجب وأحمد الصاوي ومحمد شعبان، أغلبهم من بلدة واحدة وهي بورسعيد، وخريجي كلية واحدة، ومعظمهم أعضاء في جمعية الدراسات العربية، ويصبحون في حاجة إلى أسماء حركية بينهم!».

النقابي

كان نقيبا للمحامين في الإسماعيلية، ومساندا للنقيب أحمد الخواجة في القاهرة في كل معاركه النقابية، وهو في المحاماة أستاذ الأساتذة، فقد بذل الأستاذ صبري مبدي مجهودا خرافيا، منذ بداية التحقيقات مع المتهمين في قضية التنظيم الناصري، حتى مثولهم أمام المحاكمة، حيث فجر مفاجأة أمام القاضي، بالتشكيك في أدلة الأحراز التي أحرزوها من منزل جمال منيب، والتي اختلفت في الشكل والنوع، عما هو مقدم في المحكمة.

رئيس الحزب

ناصري حتى النخاع، خرج من السجن بعد انقلاب مايو الساداتي، وهو أكثر إيمانا بعبد الناصر والناصرية، حتى أصبح الآن رئيس الحزب الناصري، لكل هذا لم يحتمل الأستاذ ضياء الدين داود حين تهجم وكيل النيابة في مرافعته ضد المتهمين، ناعتا إياهم بشرذمة يعبدون إلهًا! «يقصد جمال عبد الناصر»، وقتها نفرت عروق الناصرية، وهجم بالقول على وكيل النيابة، وأمام القاضي ومستشاريه، قائلا له:

- لولا عبد الناصر من تسُبه، ما كنت تجلس على كرسي النيابة الآن، وأنت ابن العامل البسيط فلان الفلاني!

كل هؤلاء من شيوخ مهنة المحاماة، عدا الأخير، رحمة الله عليهم جميعا، عزاؤنا أن كل جسد فانٍ، ولكن تبقى منه الذكرى الطيبة والعمل الصالح، وهو ما بقى لنا منه الكثير.

ليلة الحكم

ليلة النطق بالحُكم في القضية، ليلة ولا كل الليالي، امتلأت بالرعب.. والشجن.. وأحلام اليقظة. في كل منزل من منازل أهالي المتهمين، التفت الأسر تناقش كل التصورات.. ماذا لو حُكِم بالسجن؟ كم ستكون المدة؟ كان الشك يقتل نفوسهم، خاصة بعد أن صرح الدكتور عصمت سيف الدولة لبعض منهم، عن احتمالية صدور أحكام على بعض المتهمين، تتراوح ما بين ثلاث سنوات إلى خمس عشرة سنة!! فاحتار الأهل أيهما سينال ابنه؟ وكيف سيكون المصير والمستقبل؟

أسئلة وأسئلة.. لا تجد أي إجابات عقلية، وأقول عقلية، لأن التوقع الروحي كان مختلفا تماما، فأغلب التوقعات الروحية، كانت تتجه إلى إحساس خفي بالبراءة، كانت تلك المشاعر تظهر لدى البعض في صورة أحلام ورؤى، تُجمع على أن الجميع سيحصلون على البراءة. لكن كيف الثقة في عدالة الأرض، والجو العام مشحون بالرغبة في إرضاء طرف الصراع الأزلي، ولُعبة السياسة التي تحتم تقديم قُربان للعفو، واستمرار حالة السلام.

حين أنهك التفكير العقول، اتجهت كل القلوب إلى الدعاء، ساجدين لله تعالى، يستغيثون بعدالة السماء.

* * *

التقى غمري وياسر والصاوي وحافظ في حديقة نقابة المحامين، أعرب بعضهم عن عدم قدرته تحمل الوقوف خلف القضبان، لسماع النطق بالحكم، الذي سيحدد

مصيرهم في الحياة. وظهر سيد شعبان المحامي وشاوروه في الأمر، فنصحهم بعدم حضور الجلسة. وبعد نقاش طويل، قرروا أن يلتقوا صباح الغد بحديقة الميريلاند في مصر الجديدة، وينتظرون إبلاغهم بنتيجة الحكم.

هام كل منهم في طريق، يجوبون شوارع وأزقة المحروسة، لا ترتاح لهم قدم ولا يغمض لهم جفن. حتى بدا في الأفق نور الفجر.

مشاهد مختلفة والحُكم واحد

المشهد الأول

المنظر.. قاعة المحكمة.. الآلاف من البشر في حالة غريبة من الوعي واللاوعي.. صمت مطبق في المكان.. سوى من دقات منتظمة لقلوب الأهالي.. القاضي يتلو الحكم وآخر كلماته..

«.. ببراءة جميع المتهمين مما نُسب إليهم ومصادرة المضبوطات والحكم على المتهم جمال منيب بالسجن مدة خمس سنوات».

صراخ وبكاء ونحيب وضحكات، مزيج من كل تلك الأصوات، ضجت بها قاعة المحكمة، عناق وقبلات ممزوجة بماء مملح، مسال من عيون تورمت، أمهات أصبن بالإغماء، زجاجات العطور تخرج من الحقائب وترش على الوجوه لإفاقتها، آباء يسجدون على الأرض يشكرون الله، عساكر يقتربون مهنئين يطلبون الحلاوة، رجال أمن منكسون رؤوسهم خرجوا من القاعة مسرعين.

المشهد الثاني

المنظر.. مصر الجديدة أمام حديقة الميريلاند.. بعض المتهمين الهاربين منهم والحاضرين.

يفترشون العشب في حالة انتظار.. سيارة «ط.ك» تتوقف أمامهم. وينزل منها وهو مقطب الجبين، يخفي دموع عينه خلف نظارته الطبية، يقف كل الشباب من على الأرض ينظرون إلى تلك الملامح الحزينة، تتلوى قلوبهم متوقعة الأحكام التي تم بها الحكم عليهم، وقبل أن تنهار أجسادهم أرضا، صرخ «ط.ك» في وجوههم:

- ضحكت عليكم.. كلكم براءة.

توقفت السيارات المارة، تشاهد منظرا غريبا، لشباب يصرخون في شكل هستيري، منهم من يقفز في الهواء وهو يضحك، وآخرون في عناق وبكاء. والكل تهمس شفاههم وقلوبهم بكلمة..

- الحمد لله..

المشهد الثالث:

محمد شعبان وبعض الهاربين، أطالوا ذقونهم وشواربهم، جلسوا في مقهى اعتادوا الجلوس فيه يوميا، على شواطئ إحدى المدن الساحلية، وهم في حالة صمت تام، والقهوجي ينظر إلى حالتهم مستغربا صمتهم غير المعتاد، لا لعب طاولة ولا حوار ولا جدال، صمت وصمت فقط!

كانوا مستغرقين في حالة من التخيل، لما سيؤول إليه أمرهم بعد صدور الحكم. بعد الظهر عادوا إلى الشقة التي يقطنونها، واستمر الصمت، إلى أن جاءهم اتصال من القاهرة، من أحد المحامين صارخًا في الهاتف: كلكم براءة.. وانهالوا جميعا بعضهم على بعض في أحضان وقبلات في فرحة عارمة.

ودخلوا الحمام الواحد تلو الآخر، يحلقون الذقون والشوارب، ويرتدون زيا مُبهجا، وخرجوا يحتفلون بالبراءة على نفس المقهى، وحين دخلوا، أصابتهم نظرات القهوجي بحالة من الضحك الهستيري، فالقهوجي واقف ترتفع حواجبه ويفتح فاه مندهشًا من هيئتهم وملامحهم التي تغيرت تماما، محاولا البحث عن إجابة سؤال، لماذا حلقوا جميعا الذقون والشوارب في نفس الوقت؟!

عدم التصديق

لم تهنأ فرحة القلوب بالحكم بالبراءة، ويا فرحة ما تمت أخذها «عدم التصديق» وطار! وطارت الفرحة من القلوب، بعد أن صدر قرار بإعادة القضية للمحاكمة مرة ثانية.

ومن ثم تُعاد الكرة.. تحقيقات، اعتقالات، محاكم، محامون. وتدور الرأس لفات ولفات. لكن مع اختلاف بسيط، حيث توالى ظهور الهاربين واحدًا تلو الآخر، وعودتهم إلى منازلهم وممارسة حياتهم الطبيعية. ورغم أن الواحد أصبح معتادًا، إلا أن حياة عدم الاستقرار شيء بغيض. صحيح وقوع البلاء ولا انتظاره.

وأعد المحامون العُدة، وجهزوا مرافعاتهم، التي كانت الضربة الأخيرة في المرمى.

لماذا القضية؟

لماذا كانت قضية التنظيم الناصري؟ ولماذا في هذا الوقت بالتحديد؟ سؤال أجابت عنه، خلاصة مذكرة الدفاع، التي قدمها المحامي سيد شعبان أمام المحكمة، وجاء فيها:

«حضرات المستشارين..

تلك الدعوى، ليست وقائع قانونية، لكنها صياغة، الهم الأكبر فيها صياغة الكذب، خلق صداع للقارئ إنها «كابوس».. إذا استبعدت هذه الكلمات التي استخدمت في غير موضعها يتضح خلو الأوراق من أي فعل ضار بأمن مصر، وإن الأمر لا يتعدى أن هؤلاء المتهمين لهم نشاط سياسي في الجامعة ونقابة المحامين والحزب الناصري، فأراد الحزب الحاكم أن يحد من حركة الناصريين، خاصة بعد الانتخابات الأخيرة في أبريل ١٩٨٧، والتي ظهر فيها الناصريون بمظهر لم يحسب، فهذا المرشح علي عبد الحميد المتهم الثاني الذي اعتمد كغيره من المرشحين الناصريين، على صورة الزعيم الخالد جمال عبد الناصر التي أزعجت حكام اليوم، فكم كان لصورة الرجل بعد وفاته من أثر على الجماهير الفقيرة، التي انحاز إليها عبد الناصر ولو كره الإسرائيليون. وكان الناصريون كبارهم وصغارهم ينتقلون كل يوم مع أحد المرشحين، يساندونه «كأخلاق أولاد البلد»، وكان المتهمون الطلاب جميعا لهم دور بارز في هذا المضمار، فها هم في إمبابة يؤيدون المرشح الناصري علي عبد الحميد. وهاهم في شرق القاهرة يؤيدون المرشح الناصري بسام مخلوف. وها هم في جنوب الجيزة يؤيدون المرشح الناصري محمد الأشقر. وها هم في وسط القاهرة يؤيدون المرشح الناصري فتحي محمود. وها هم في جنوب القاهرة يؤيدون المرشح الناصري سيد شعبان.

لماذا انزعج الحزب الحاكم من هؤلاء الشبان؟

تحدثنا بإيجاز عن حركة هؤلاء المتهمين في الانتخابات، يساندون المرشح الناصري، لكن الذي أزعج الحزب الحاكم منها، أنهم استخدموا منهجا واحدا حملوه إلى الناس في كل مكان أمام المساجد، أمام المدارس، أمام المصانع، يحملون الكاسيتات التي تحمل أغاني الثورة بصوت عبد الحليم حافظ، فإذا بالعمال يخرجون من مصانع حلوان، جيلا من الشباب لم ير أيّ منهم عبد الناصر، يحملون صوره، ويرددون أغاني الثورة، فيردد الناس معهم هذه الأغاني، ولولا أنني أحمل شرف الدفاع عن المتهمين، لطلبت من المحكمة أن تستمع لأقوالي كشاهد على كثير من الوقائع، خاصة وأنني أحد المرشحين لانتخابات مجلس الشعب السابقة بجنوب القاهرة، وعايشت مشاركة هؤلاء الشباب المخلص وغيرهم للمرشحين الناصريين، فكان محمد الغمري ومحمد منيب وياسر عبد الجواد ومصطفى ياسين وباقي المتهمين يحملون صور الزعيم عبد الناصر طوال شهر مارس حتى تمت الانتخابات في شهر أبريل، ثم مشاركتهم في فرز الأصوات، وحضورهم الفرز يدافعون عن مرشحهم الناصري كما يفعل كل الناس، من ناحية أخرى فإن النشاط الشرعي الملحوظ لجماعة المحامين الناصريين في نقابة المحامين، أرادوا النيل منه، هم لا يريدون الناصريين ولا يريدون صور الزعيم عبد الناصر، لأنها تنزع الشرعية من أي حاكم.

إنهم أرادوا النيل من أشرف المحامين، أرادوا النيل من علي عبد الحميد، محمد منيب، محمد الغمري، ياسر عبد الجواد، محمد شعبان، وفي نفس الوقت باقي المتهمين أستاذ الجامعة صلاح دسوقي وأستاذ الجامعة أحمد الصاوي أما باقي المتهمين فهم زملاء مستقبل لهم في جامعة القاهرة، شرف النشاط السياسي، يعبرون في إطار الشرعية التي لا يعرف سواها الناصريون.

لذا ستجدون يا حضرات المستشارين أنه بعد الانتخابات مباشرة، بعدها بشهر واحد، صنعت هذه الدعوى.

ولا يفوتني أن أشير إلى مشاركة الزملاء المحامين، لزملائهم أعضاء المؤتمر السادس عشر للمحامين العرب بالكويت، وإن موقف الناصريين من كامب ديفيد هو السبب الأخير الذي دفع بالحزب الحاكم إلى الإتيان بهم.

لكن جاءت محكمتنا الدستورية لتنتصر لهم، بأن يعبروا عن آرائهم كما يشاؤون. وبأن يقولوا بأعلى الصوت، لا لكامب ديفيد ولو كره الإسرائيليون.

وسيظل الناصريون يدفعون ثمن انتزاع شرعية انتمائهم للدستور حتى ينتصر الشعب للدستور وينتصر القضاء لهم بمشيئة الله.. والله على نصرهم لقدير».

الحكم الثاني والأخير

مضى عام كامل، مرت أيامه دون طعم ولا لون ولا رائحة. جهزت هيئة الدفاع دفاعها أقوى من ذي قبل. وخرجت من المنزل في صحبة أبي وحماتي وغمري، دخلنا قاعة المحكمة، وجدناها كما المشهد الأول، مكتظة عن آخرها بالصحافة والإعلام المحلي والأجنبي. وسيارات الأمن تحيط بالمبنى من جوانبه الأربعة، وداخل المحكمة نظموا في صفوف، مهيئين تماما لإلقاء القبض على المتهمين فور صدور الحكم بإدانتهم، وارتجفت قلوبنا من المشهد وجلسنا لا تحملنا أقدامنا على الوقوف.

حتى دخل الحاجب، وقال قولته المعروفه.. وبصوته الجهوري:

- محكمة..

دخل القاضي وجلس على كرسيه يتوسط مستشاريه اليمين واليسار. وقف الحضور ثم جلسوا تحية لهم.

ثم نطق القاضي قائلا:

حكم محكمة أمن الدولة العليا طوارئ

في قضية التنظيم الناصري المسلح

باسم الشعب

محكمة أمن الدولة العليا «طوارئ»

المشكلة علنا برئاسة السيد الأستاذ المستشار محمد سعيد العشماوي

رئيس المحكمة

وعضوية السيدين الأستاذين وصفي ناشد بسطوروس، أحمد أمين عبد الحافظ المستشارين بمحكمة استئناف القاهرة

وأمانة سر/ ....

وكيل النيابة أ/ ....

«أصدرت الحكم الآتي»

في قضية النيابة العامة رقم ٢٨٣٠ لسنه ١٩٨٦ قسم عابدين والمقيدة برقم ١٩٨ سنه ١٩٨٦ كلي وسط.

«ضـــــــــــد»

المتهمون/ ١-............... ١٦-........

«تتحصل الواقعة - على ما صورتها سلطة الاتهام كذلك - في أن المتهمين الأول والثاني أنشآ وأسسا ونظما وأدارا على خلاف أحكام القانون تنظيما حزبيا غير مشروع ذا طابع شبه عسكري، بأن شكلا جماعة حزبية سرية الغرض منها الدعوة إلى مناهضة المبادئ الأساسية التي يقوم عليها نظام الحكم، والتحريض على مقاومة السلطات العامة وكان استعمال القوة والعنف ملحوظا في ذلك، بأن دربوا أفرادها على تصنيع واستخدام المفرقعات والأسلحة النارية، وأن المتهمين من الثالث حتى الرابع عشر ثم السادس عشر انضموا إلى التنظيم الحزبي غير المشروع ذي الطابع شبه العسكري - المنوه عنه - وانخرطوا في نشاطه مع علمهم بذلك، وأن المتهم الخامس عشر حاز وأحرز سلاحا ناريا مشخشن الماسورة «مسدسًا» دون أن يكون مرخصا له في ذلك وقد ركنت سلطة الاتهام - في الإثبات - إلى اعتراف المتهم الثالث في تحقيقات النيابة عند استجوابه وإلى شهادة الرائد.......... والعميد........... والعميد............. والمقدم.............. والرائد.......... والعقيد........... والملازم أول.......... والرقيب........ و............ و............ و........

فقد اعترف المتهم الثالث في تحقيقات النيابة خلال استجوابه بأنه انضم إلى تنظيم سرى غير مشروع منذ عام ١٩٨٣ إثر قيام المتهم الثاني بعرض فكر التنظيم عليه وعرض أهدافه ومبادئه فوافق على الانضمام إلى التنظيم، وكان ضمن مجموعة بقيادة المتهم الثاني المذكور وأن الاجتماعات التنظيمية للمجموعة كانت تعقد بصفة دورية كل خمسة عشر يوما لبحث أفكار وأهداف التنظيم المتمثلة في اعتناق الفكر الناصري

القائم على الاشتراكية والوحدة والحرية وهي تختلف في مضمونها عن ممارسات نظام الحكم القائم حاليًا وأضاف أن هذا التنظيم أخذ طابع السرية المطلقة والشديدة في كل تحركاته.

.... «وترى المحكمة في وضع عصابة على عين متهم مبصر ضربًا من التعذيب المهين الذي يحول البصير إلى شبه كفيف - على غير ما شاء الله - فيلقي في نفسه المذلة ويملأ كيانه بالذعر حيث لا يدرى تماما ما حوله، ويستشعر العدوان من أي حركة بجواره - هذا فضلا عن أن تقرير الطب الشرعي الأول (المؤرخ ١٢/ ٥/ ١٩٨٨) أثبت أن بالمتهم آثارًا أصابته لا يوجد ما ينفى إمكانية تخلفها من مثل التصوير الذي قرره المتهم وهو ما يؤيده قوله بوقوع التعذيب عليه وحتى بعد استجلاء الأمر من كبير الأطباء الشرعيين - مع وضوح التقرير السابق - فإنه قرر احتمال حدوث تعذيب لا يترك أثرًا، وهذا ما يتوافق مع ما قرره المتهم الذي لم يعرض على الطب الشرعي إلا بعد مرور عشرة شهور على الفترة التي قرر بوقوعه تحت التعذيب خلالها- ومتى صح وقوع تعذيب على المتهم على النحو الآنف بيانه فإنها تسقط أي اعترافات له تمت تحت التعذيب.

.... وحيث إنه متى أسقطت المحكمة اعترافات المتهم الثالث لأنها كانت وليدة تعذيب ونتيجة إكراه فإن الادعاء يصبح خاويا من دليل يقيمه والاتهام يصير فارغا من سند يدعمه، ومن ثم تعين الحكم ببراءة جميع المتهمين مما نسب إليهم إعمالا للمادة ٣٠٤/ إجراءات جنائية مع مصادرة المضبوطات عملا بالمادتين ٣٠ من قانون العقوبات و٣٠ من القانون رقم ٣٩٤ لسنه ١٩٥٤ وذلك عدا الشيكات السياحية والنقود المضبوطة في مكتب المتهم الثالث.

وحيث إنه بعد أن انتهت المحكمة من موضوع الدعوى فإنها لابد أن تتناول واقعاتها خاصة أن قاضي الدعوى لا يستطيع أن يشيح أو يفضي عن ملابسات الواقعات التي طرحت عليه وما يتصل فيها بالقانون أو يتعلق بحقوق الإنسان.

فقد ذكر كثير من المتهمين وقوع تعذيب عليهم من ضباط مباحث أمن الدولة وكان بعضه تعذيبا ماديا ترك من الآثار ما أمكن للكشف الطبي أن يستثنيه بعد فترة طويلة وما أمكن أن يتخلف عن احتياط في إخفاء آثار التعذيب وهذه الآثار ثابتة في بعض التقارير الطبية الشرعية كتلك الخاصة بالمتهم الأول والمتهم الثالث والمتهم الرابع والمؤرخة على التوالي ٢١/ ٥/ ١٩٨٧، ١٥/ ٦/ ١٩٨٧، ١٥/ ٦/ ١٩٨٧ بل إن هذا التعذيب المادي وصل إلى حد وضع قطع خشبية في دبر بعض المتهمين فذكر أحدهم ذلك ولعل الآخرين أمسكوا عن هذا القول بالذات صيانة لأعراضهم من الفضائح،

وهذا التعذيب المادي غير التعذيب النفسي والعقلي الذي تستشعر المحكمة من كل صفحات التحقيق أن المتهمين تعرضوا له، وهؤلاء المتهمون من متعلمي ومثقفي مصر الذين يمكن أن يعدم إرادتهم ويشل اختيارهم مجرد التهديد بتلفيق الاتهام للزوج أو الوالد (كما حدث مع المتهم الثالث) أو مجرد التلويح بالتعذيب أو وضعهم في ظروف سيئة وغير طبيعية وتحت احتمال الإيذاء.

إن أول حقوق المواطن وأظهر حقوق الإنسان أن يعيش كريما في بلد كريم فإذا ما وجه إليه اتهام عومل وفق القانون معاملة لا تنبو عن الإنسانية ولا تحيد عن الأصول، حتى يمثل أمام قاضيه الطبيعي فيحظى بمحاكمة عادلة إما أن تنتهي بإدانته إن كان مدانا أو تنتهي ببراءته ثم يصبح الحكم – بهذه الصورة الطبيعية والشرعية والقانونية – عنوانا على الحقيقة.. وإن يقين المحكمة ليفزع وضميرها يجزع وهى ترى أن أي متهم قد تعرض للتعذيب المادي أو النفسي أو العقلي، ويزداد الفزع ويتضاعف الجزع إن حدث التعذيب بصورة وحشية فظيعة كوضع قطع خشبية في دبر المتهمين وهو أمر وصفته محكمة النقض في الثلاثينيات من هذا القرن بأنه إجرام في إجرام... ولا تجد المحكمة في عصر حقوق الإنسان وزمن حرية الوطن والمواطنين وصفا ملائما تصفه به ولا تريد أن تتدنى لتصفه بوصفه البشع غير أنها ترى في التعذيب عموما – مهما كانت صورته – عدوانا على الشرعية من حماة الشرعية، واعتداء على حقوق الإنسان ممن واجبه الحفاظ على حقوق الإنسان، وهي من ثم تناشد المشرع وضع ضوابط جادة تكفل حماية أشد للمتهمين من أي تعذيب بدني أو نفسي أو عقلي يتعرضون له أو يهددون به وهم بين يدي السلطة وفى حماية رجالها وفى رعاية الدستور.

وحيث إن المحكمة لاحظت في هذه الدعوى أن المطاعن التي كانت توجه عادة إلى محاضر الضبط قد استطالت حتى وصلت إلى محاضر تحقيق النيابة العامة – مثل الاتهام بعدم الحيدة وعدم إثبات كل الأقوال والواقعات والتهديد بالإيذاء ومجاملة رجال الضبط وغير ذلك – وهو أمر لا بد أن يؤثر على العمل القضائي بأكمله إن استمر واستشرى – ولا يقضى عليه ويحول دونه إلا أن تقوم بالمحققين أنفسهم ضمانات أكثر تعصم محاضرهم وتقي أعمالهم من أن يجرحها تشكيك جدي– أو يوهنها مطعن سليم فلضمان في عضو النيابة العامة ورجل القضاء نفسه لا في أي نص يوضع أو أي تعليمات تنشر لأن القاضي العادل يرجح في إقامة العدالة أي نص لأي قانون.

وإن المحكمة وقد ساءها أن يصل التجريح إلى محاضر تحقيق النيابة العامة ويكون محمولا على أسباب لها في الأوراق دليل فإنها تدعو إلى تعديل التشريع بحيث يتولى قضاة التحقيق وحدهم تحقيق قضايا الرأي وأن يتيسر للمتهم في القضايا ذات الطابع

السياسي طلب ندب قاض للتحقيق بحيث يبطل أي إجراء في التحقيق إذا تم دون إجابة المتهم إلى طلبه أو إذا وضعت عراقيل تحول دون تولي التحقيق أحد القضاة ومثل هذا التعديل التشريعي هو وحده الذي يضمن حقوق المتهمين في قضايا الرأي والقضايا السياسية حيث يستشعر بعض رجال الأمن خصومة قبل هؤلاء فيحيدون عن الجادة ويترددون في التعذيب حيث إنه لا يفوت المحكمة أن تشير إلى أنها وقد برأت المتهمين فإنها تشجب أي عمل يخرج عن القانون أو يحيد عن النظام العام فإذا كان الدفاع عن مصالح مصر والذود عن كرامتها حقًا لكل مصري بل واجبًا عليه؛ فإن هذا مشروط بألا يقع بالمخالفة لأحكام القانون أو يتردى في المساس بأمن الوطن والمواطن أو ينقلب إلى تهديد لأسس الشرعية أو ينحدر إلى تعريض النظام الاجتماعي للخطر.

فلهذه الأسباب

وبعد الاطلاع على المواد سالفة البيان

حضوريا حكمت المحكمة برفض الدفوع المبداة من المتهمين وببراءة جميع المتهمين مما نسب إليهم ومصادرة المضبوطات.

تعويض عن التعذيب

بعد البراءة الثانية والأخيرة، رفع البعض قضايا تعويض عما لقوه من تعذيب، وحصل البعض منهم على تعويض، فماذا فعلوا به؟

- حصل محمد زارع على مبلغ تعويض وقدره عشرة آلاف جنيه، اشترى بها شقه في إمبابة، كانت بداية لمركز حقوق الإنسان.
- الدكتور صلاح الدسوقي حصل على مبلغ وقدره عشرة آلاف جنيه، وزعها في الخير.
- أربعة الآلاف جنيه تعويض ياسر عبد الجواد، استنزفتها سداد ديون متراكمة، ومصاريف الزواج.
- حافظ أبو سعدة حصل على مبلغ خمسة آلاف جنيه، مش فاكر عمل بيهم إيه!
- أما غمري فحصل على تعويض قدره اثنا عشر ألف جنيه، عملنا بيهم حكاية.

فيات١٢٧

عندما كنا نقطن في منزل أبي بالتبين، ورغم أنه كان منزلًا جميلًا للغاية تحيطه الخضرة والزرع من كل جانب، أصحو على رائحة زهر الليمون، ونأكل الفاكهة الطازجة كل موسم من برتقال وموز وعنب. وهو المنزل الوحيد الذي سمح لي فيه أن أربي كلبي «لاكي» رائع الجمال شديد الذكاء، تكاد عينه تنطق بكلمات البشر، عاش معي ورافقني ساعات حياتي الحزينة والسعيدة، ارتبط بي ارتباطا غريبا، أذكر له موقفا مضحكا.. خرجت من المنزل متوجهة إلى الجامعة، سرت حتى محطة الأتوبيس، وحين توقف الأتوبيس على المحطة وصعدت السلم، وجدت الكمسري يضحك، ويقول لي:

- ممنوع اصطحاب الكلاب.

لم أفهم قصده في البداية، حتى نظرت إلى ما يشير، فرأيت لاكي، كان يسير خلفي متخفيا متعمدا ألا أنتبه له، وصعد ورائي إلى الأتوبيس، وتوقف الأتوبيس مدة طويلة ينتظرني، وأنا أنهر لاكي لينزل، وهو يرفض الانصياع لكلامي، والركاب يضحكون علينا وما نزل لاكي من الأتوبيس إلا بعد أن هددته بعقاب بعد عودتي.

بعد سنوات، وفي حديقة منزل التبين، دفن لاكي بعد وفاته، ولأول مرة في حياتي أذوق مرارة الفراق، وأحزن لوفاة عزيز.

رغم كل ما سبق، إلا أن شيئًا وحيدًا أرقني من هذا المنزل، وهو أنه بعيد للغاية عن أي مكان نود الوصول إليه. كنت أتعذب في ذهابي إلى جامعة القاهرة، وأتعذب في الوصول إلى سجن المزرعة، وتتواصل رحلات العذاب في أي مكان أرغب في الوصول

إليه، لهذا كنت أحلم بأحد الأمرين، إما أن يأتي ونش كبير يجر هذا المنزل إلى مكان بوسط البلد، أو أن يرزقنا الله بسيارة من أي نوع، مجرد أن تكون بأربع عجلات، ولكن كيف يتحقق هذا الحلم؟

* * *

كان تقرير الطب الشرعي الذي أثبت التعذيب على غمري، سندا رئيسيا للمحكمة في تسبيب البراءة، وهو ما جاء في نص حكم البراءة السابق. لهذا وبعد حصولنا على نسخة من التقرير والحكم. رفع غمري دعوى تعويض عن التعذيب وكسب القضية، وحصلنا على تعويض قدره اثنا عشر ألف جنيه، قمنا برشة جريئة لا يعقبها أي ندم على الأهل ليشاركونا فرحتنا، وما تبقى من نقود التعويض، حققنا به حلمنا، الذي لم نكن نتخيل تحقيقه بتلك الطريقة! واشترينا سيارة فيات ١٢٧ بيضاء اللون صغيرة الحجم، كانت أروع سيارة في عيوننا، وأغلى سيارة في الوجود، حيث دفعنا ثمنها، صبرًا مُرًا على عذاب لا يُقدر بثمن.

قبل الخاتمة

في لحظة تأمل الحاضر، والعجز عن تصور المستقبل، نتلمس ذكرى أجمل ما في الماضي... كلمات همس بها غمري في أذني، أثناء احتفالية اليوبيل الفضي لتأسيس «جمعية الدراسات العربية».

فبعد مرور خمسة وعشرين عاما اتفقنا أن نلتقي، نجمع الشمل بعد الغياب، فكان اللقاء ملحمة حُب، في مطعم أنيق على ضفاف النيل، لقاء دمعت له العيون وارتعشت على شجنه الذكريات. وجوه تغيرت، رؤوس اصلعت أو غزاها الشيب، جفون غطتها النظارات الطبية، شخوص تعرف بعضها على بعض بصعوبة، بعد فراق دام سنوات وسنوات، التقى أحباء الأمس غرباء اليوم، يستنشقون عبير الماضي، وسط جو معبق بالحنين لأيام النضال.

مناضلو الأمس صاروا شخصيات مهمة، منهم: كبار المحامين، صحفيون، نجوم في سماء الفن، ممثلون، مخرجون، مطربون. سادة منظمات حقوق الإنسان، قضاة، كبار مسئولين في الدولة. رغم الاختلاف، إلا أنهم اجتمعوا على شعور واحد، وحب صاف، وافتخار بأيام ولت، كانت من أجمل أيام العمر.

نعم كانت أجمل أيام العمر. رغم كل ما قيل بعد القضية، سمعت مرات ومرات، أن شباب الجمعية الغض، قليل الخبرة بالحياة، تم التغرير به في السياسة، وانخرطوا في المعارض والمظاهرات، من أجل أهداف سرية، لأشخاص خفية تلاعبوا بهم. وقتها لم أرد عليهم، فلكل مقام مقال، وجاء الآن حين المقال.

حين انضممت لجمعية الدراسات العربية بكلية الحقوق، ومعي الكثيرون يشاركونني الرأي، لم يُرغمنا أحد على فعل أي شيء، بل كانت جل تصرفاتنا نابعة من داخلنا، لإيماننا بوطننا وعروبتنا، لم نكن نسعى وراء الصخب والمشاكل، بل كنا نقود المظاهرات من أجل الإعلان والصراخ في البقية النائمة، السائرة في الحياة بلا هدف، صرخنا كي يسمعوا ويعوا، أن مصر تستحق منا أكثر بكثير مما نعطيه، وهتفنا كي يشاركونا خوفنا على أمتنا العربية من التمزق وضياع الكرامة، لم يكن حديثنا كله صراخًا، بل ناقشناهم وحاورناهم، العقل بالعقل والحجة بالحجة.

لم يُغرر بنا أحد، ولم ينجح أحد في استغلالنا، وإن تهيأ لهم ذلك!

ويكفينا أن وصلت رسالتنا.. وعَلِمنا وعَلّمنا.. أن الجري وراء الفردية مدمر.. واللهاث من أجل الزعامة فانٍ!

ولهذا وبعد مرور خمسة وعشرين عاما على القضية وحصولنا على البراءة.

أُعلن فراري ممن.. هيئ لهم استغلال ثوريتنا، فهم في النهاية خاسرون.

وأُعلن فراري إلى.. نقائنا الثوري، وبما حققناه وسنحققه، بإذن الله منتصرين.

أعضاء جمعية الدراسات العربية

الآن..

١- محمود عبد الحميد - مدير جمعية أصدقاء أحمد بهاء الدين

٢- محمد الغمري - محامٍ وخبير حقوق إنسان وقانون دولي

٣- ياسر عبد الجواد - محامٍ ومدرب حقوقي

٤- ياسر حسن - محامٍ وأمين الحزب الناصري ببورسعيد

٥- أحمد رجب - مدير مؤسسة النيل للوسائط الإعلامية

٦- هناء زكي - صحفية وكاتبة

٧- ناصر أمين - مدير مركز استقلال القضاء

٨- أحمد عبد المعطي - مهاجر إلى أمريكا

٩- حافظ أبو سعدة - أمين عام المنظمة المصرية لحقوق الإنسان

١٠- عمرو رضا - محامٍ ومدير شئون قانونية بإحدى الشركات

١١- طارق كامل - مستشار

١٢- عصام حنفي - محامٍ بالهيئة العامة للآثار

١٣- عبد الله كامل - محامٍ

١٤- عزة سليمان - مدير عام مؤسسة قضايا المرأة المصرية

١٥- محمد زارع - مدير عام مؤسسة الإصلاح الجنائي

١٦- هالة عبد القادر - مدير عام مؤسسة الأسرة المصرية

١٧- أمنية فتحي - ربة منزل

١٨- أحمد السيد - محامٍ

١٩- حسن يوسف - مدير عام مركز شعاع للمعاقين

٢٠- هدى عبد الوهاب - مدير تنفيذي بمركز استقلال القضاء

٢١- نيفال محمد - مدرسة

٢٢- عزة صلاح - محامية

٢٣- إيهاب رفعت - خطوط الطيران السعودي

٢٤- حمدي كامل - محامٍ

٢٥- طارق عبد العزيز - ممثل

٢٦- زياد بهاء الدين - محامٍ ورئيس الهيئة العامة للاستثمار سابقًا.

٢٧- خالد طلعت - ممثل محامٍ

٢٨- خالد يوسف - مخرج

٢٩- مصطفى ياسين - محامٍ

٣٠- غادة مجدي - مدرسة

٣١- منتصر يسري - مستشار

٣٢- محمد يسري - مستشار

٣٣- عثمان - موظف بأحد البنوك

٣٤- ماجد عثمان - محامٍ

٣٥- سيد عبد الحافظ - محامٍ

٣٦- مصطفى فاروق - مدير علاقات عامة

٣٧- محمود قنديل - محامٍ ومدرب حقوقي

٣٨- ممدوح مداح - فنان ومطرب

٣٩- إيمان صلاح - ملحنة

٤٠- حشمت عبد الحميد - مدير مكتب زنكوغراف

٤١- عبد السميع السيد - محامٍ

٤٢- رامي عبد القادر - مدير مكتب صحفي

٤٣- سامح عبد العزيز - صيدلي

٤٤- أميرة النمر - صحفية

٤٥- عزت ربيع - مدير تسويق أدوية

٤٦- إيناس

٤٧- نبيل عبد الرازق - محامٍ

٤٨-منى مرقص

٤٩- منى

٥٠-كريمة

٥١- علا عبد الرحمن - محامية

٥٢- خالد حسن - محامٍ

٥٣- لؤي - صيدلي

٥٤- رأفت أبو المجد

٥٥- ماهر عبيد - مطرب

٥٦- أحمد محجوب - صحفي - رحمة الله عليه

٥٧- زيزي الدسوقي - مدرسة

٥٨- محمد فخري

خاتمة

أحببتك.. يا من لم يمُن الزمان على غيري بمثلِه. أحببتك.. ملء زفراتي وحسراتي وخروج أنفاسي.

كنت أراك.. في ورق الشجر. في لمسة نسمة البحر. في خواء الصحراء. لحظة سقوط عبرات حنين إليك. في السواعد الملطخة بالطين. في حبات عرق صانع الخبز. في ذاكرة الغُربة. حين ينفعل الغضبُ ثائرًا لكرامتك.

وأُحبُك.. تنهشني الحسرة. تعصرني الغيرةُ عليك. وقد من الزمان على غيري بِمثلِك.

ولم أعد أراك بعد أن.. اجتثوا أشجارك.. جفت نسمات بحرك. تراخت سواعِدهم عن طينك وخُبزك. مُحيَ طيفُك عن ذاكرتهم. وخَمد غضبُ الكرامة. فأمسيت وأصبحت الحاضر الغائب.

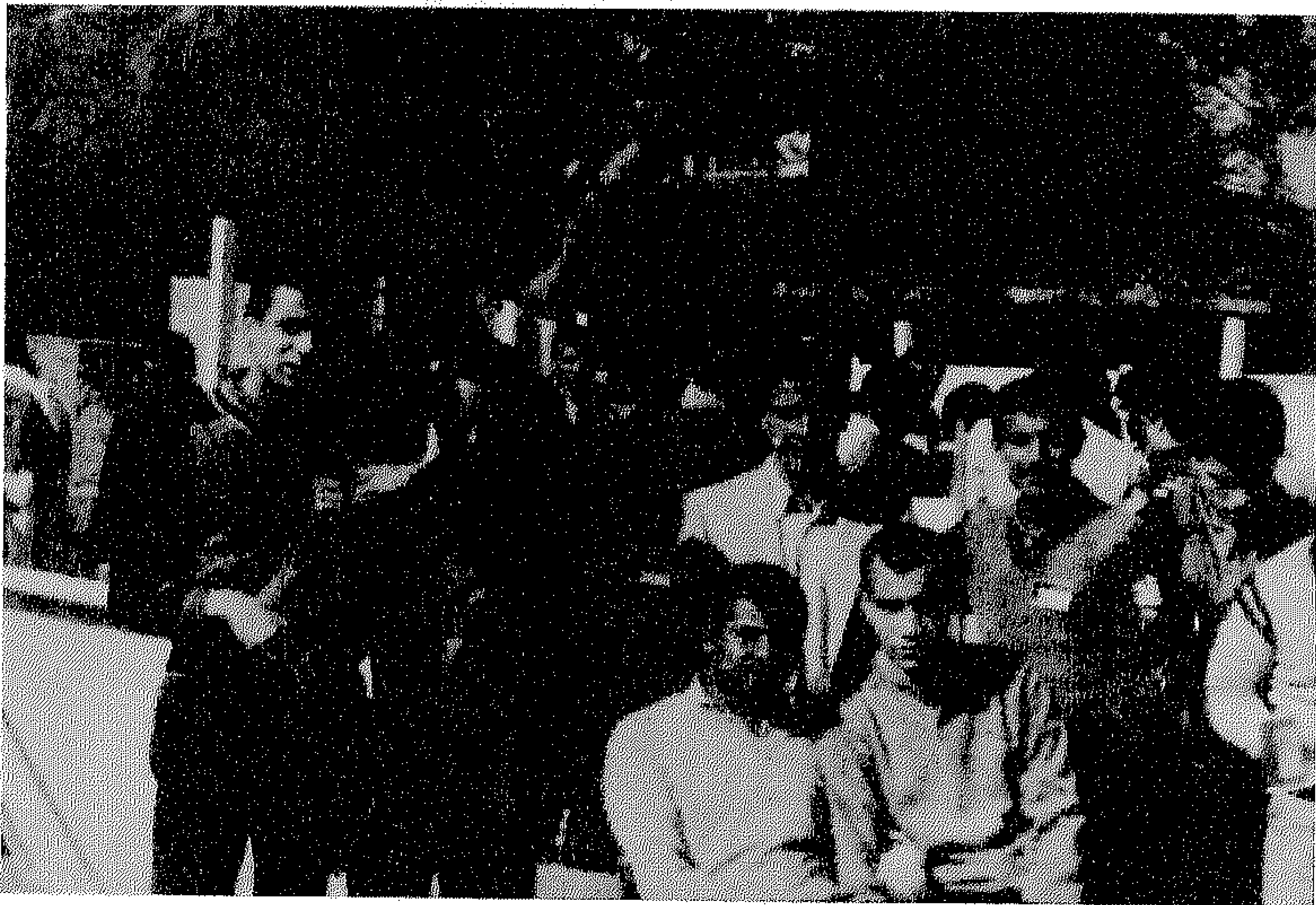
أحببتك.. وأحبك.. وسأحبك.. أمس واليوم وغدا.. يا وطني.

هناء زكي

ملحق الصور



أسرة الرأي والحوار والجمعية



ضياء علي يتوسط أعضاء الجمعية

في ذكرى ٢١ فبراير :

مظاهرات في جامعات القاهرة والمنصورة و
تطالب بالغاء الحرس الجامعي واللائحة

كان يوم ٢١ فبراير الثلاثاء الماضي يوما حافلا بالنضال والوطنية داخل الجامعات المصرية . [illegible] بدايات روح الحركة الطلابية تبزغ من جديد واضحة تصب أهدافها محددا واضحا يتمثل في الغاء اللائحة الطلابية والتي فرضها الحزب الحاكم

بالواء قومي دون الرجوع للتجميع انقلابي نفسه .

فقد تمت المسيرات في جامعتي القاهرة والمنصورة .. والتي تحولت بعد سلبية ادارة الجامعة الى مظاهرات ملتهبة علت فيها حناجر الطلاب مطالبة بعودة موسم [illegible] السنوي .

ففي جامعة القاهرة خرج الطلاب من كلية الآداب في مسيرة حاشدة ووضعت اكاليلا من الزهور على النصب التذكاري لشهداء الجامعة في ١٩ نوفمبر ١٩٣٥ ثم عادت المسيرة الى الحرم الجامعي وانضمت اليها بقية طلاب الجامعة وبالذات كلية الحقوق .

وحضر الطلاب الندوة الطلابية التي دعت اليها أسرة الدراسات العربية واسرة الرأي والحوار بكلية الحقوق ، وعندما حضر عميد كلية الحقوق بدأ المحاولات التقليدية ثم انسحب من الندوة بحجة وجود طلاب من بقية كليات الجامعة ، وكان العدد قد تجاوز ثلاثة الاف طالب بينما خرج الطلبة في مظاهرة تهتف بسقوط اللائحة الطلابية وبسقوط الحرس الجامعي .

وحاول وفد من الطلبة مقابلة رئيس الجامعة الدكتور — حسن حمدي الذي [illegible] في بداية الامر الاستماع اليهم [illegible] انه لا يملك شيئا في هذه المطالب .

ثم وعدهم بأنه سوف يبحث هذه المطالب في اجتماع المجلس الاعلى للجامعات .

وفي كلية الاقتصاد والعلوم السياسية اقيمت ندوة اشترك فيها د. ابراهيم سعد و د. جودة عبد الخالق و د. خيري عيسى و د. مصطفى كامل السيد ، و د. عبد المنعم المشاط وحضر الندوة مايقرب من ٣٠٠ طالب والتي الحاضرون من الاساتذة والطلاب على المطالبة بالغاء لائحة ١٩٧٩ والعودة مؤقتا الى لائحة ١٩٧٦ حتى يجتمع المؤتمر العام للطلاب مصر لوضع لائحة جديدة وعلى المطالبة بالغاء الحرس الجامعي واستبداله ببوليس لتنظيم الدخول وحراسة المباني والاجهزة الجامعية .

وكانت معظم كليات الجامعة في هذا اليوم قد علت جدرانها بمجلات الحائط التي طالبت بالغاء

هذه اللائحة ووقف الحرس الجامعي بوقف التدخل ورسائل مطوية بمثابة دون تدخل .

وفي جامعة المنصورة

تحركت المسيرة من كلية الطب حتى كلية الهندسة ثم الحرم الجامعي لجامعة المنصورة شملت كل طلاب الجامعة .

وقد حاول هذا الحشد الذي ابدى اكثر من خمسة الاف طالب وطالبة عقد مؤتمرهم في احد المدرجات لتمنع الكهرباء عن المدرج بفعل فاعل .. حدث ذلك في كلية الحقوق ثم توجهوا الى احد مدرجات كلية التجارة حيث الاستاذ بالقاء المحاضرة وأعلن عن احتجاجها الشديد .

كان الحرس الجامعي في هذا الوقت قد القى القبض على طالبين وكان هناك تحقيق يجرى معهما بواسطة عميد كلية العلوم .. انتهت المظاهرة واعتصمت امام مكتب عميد كلية العلوم حيث اضطر الى اخراجهما بعد أن أخذ منهما توقيعا على انهما كانا يقودان الطلبة فيما يحدث في هذا اليوم .

عقد الطلبة مؤتمرهم في الهواء الطلق داخل الحرم الجامعي .

وتحدث الطالب — علاء سلطان عن اللائحة الطلابية الحالية وعلاقتها بالمشاكل الطلابية .

ثم تحدث الطالب — عبد الحكيم سليمان عن الاسباب السياسية التي ادت الى فرض اللائحة الطلابية في سنة ١٩٧٩

ثم تحدث الطالب — ابراهيم عيسى عن ذكرى ٢١ فبراير التاريخية ثم ألقي بيان ختامي المؤتمر الذي اكد على استمرار النضال ضد اللائحة الحالية والحرس الجامعي ليتسنى لطلاب مصر أن يأخذوا دورهم القيادي الى جانب كل القوى الوطنية في تطوير المجتمع المصري .

جامعة عين شمس

وفي كلية الهندسة عين شمس امتلأت جميع الجدران بالكلية بمجلات الحائط التي تعبر عن سخط الطلاب من الحرس الجامعي واللائحة الطلابية .. هذا وقد دعا اتحاد طلاب كلية الهندسة المؤتمر يومي ٢٨ ، ٢٩ فبراير تحضره جميع الأسر [illegible]

عمل مشترك بين الجمعية وأسرة الإنسان



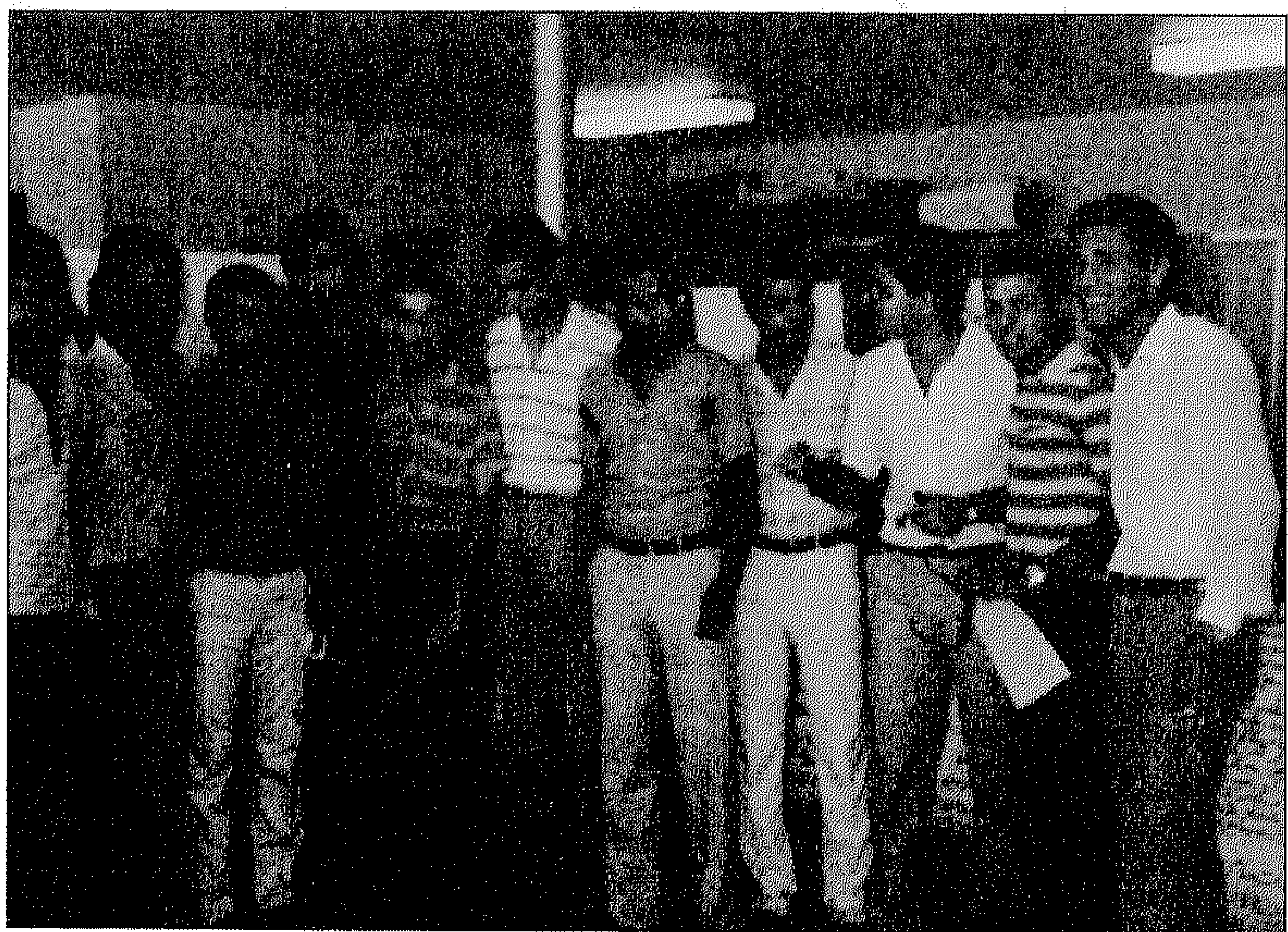
معرض عن القضية الفلسطينية


وحوار ساخن بين أحمد رجب وغمري وطالب

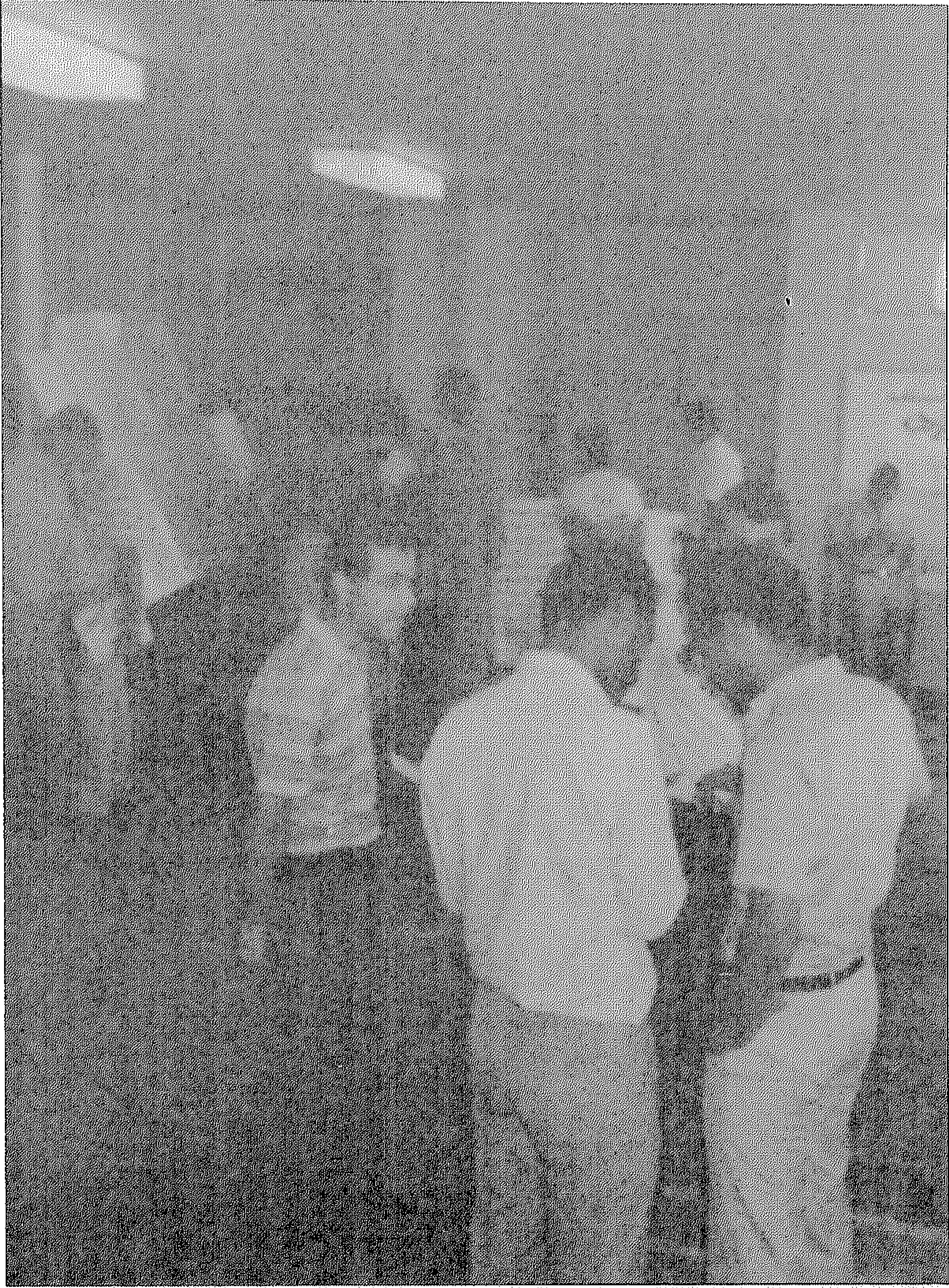

المعرض خارج المبنى



من اليمين: سيد الصعيدي، مصطفى ياسين، عمرو «الرهيب»، ياسر عبد الجواد، مصطفى، ياسر حسن، محمد، أحمد «سيجورات»، طارق كامل، وحمدي.



معرض داخل المبنى الزجاجي



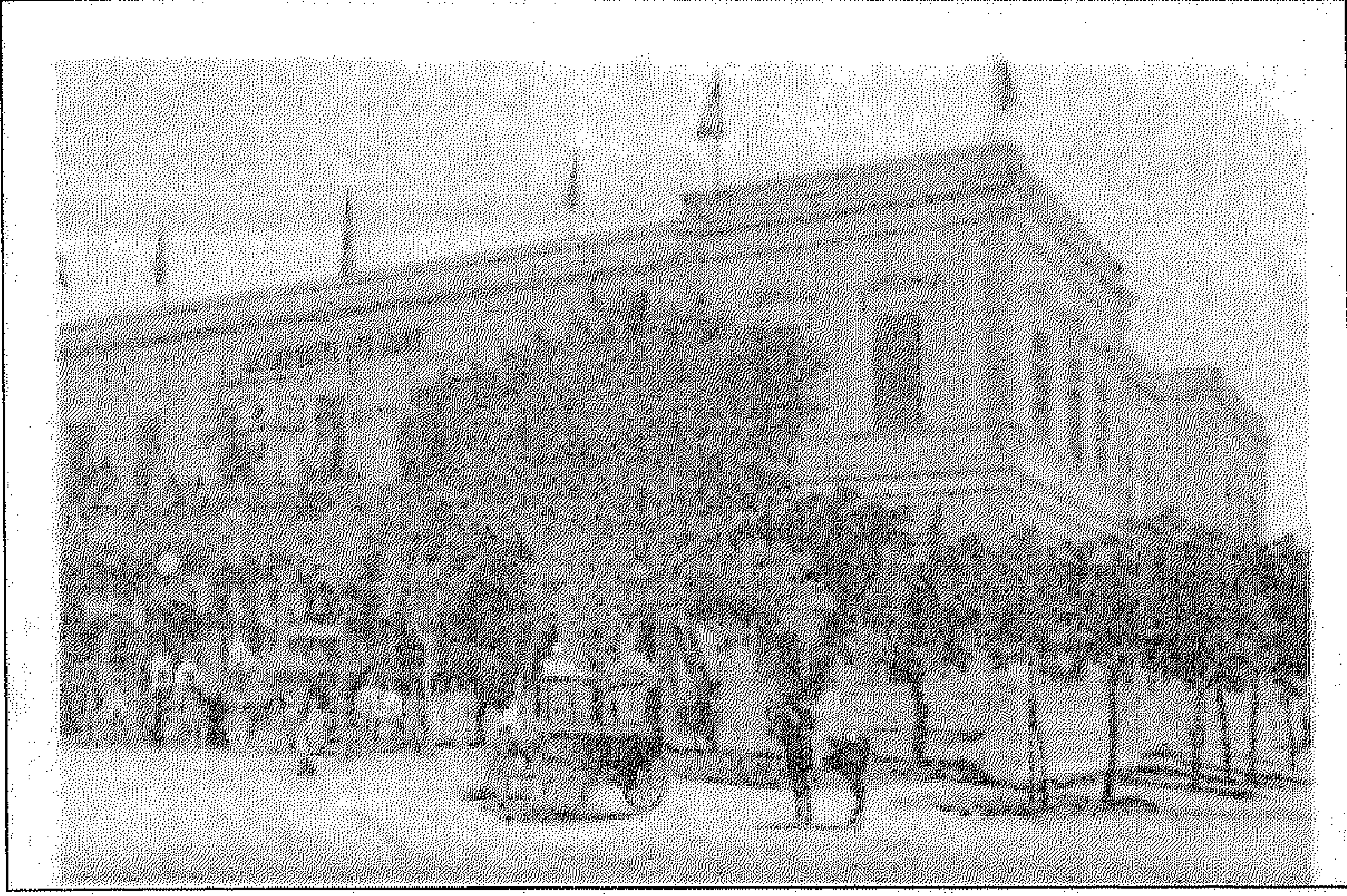
حضور ضعيف داخل المبنى



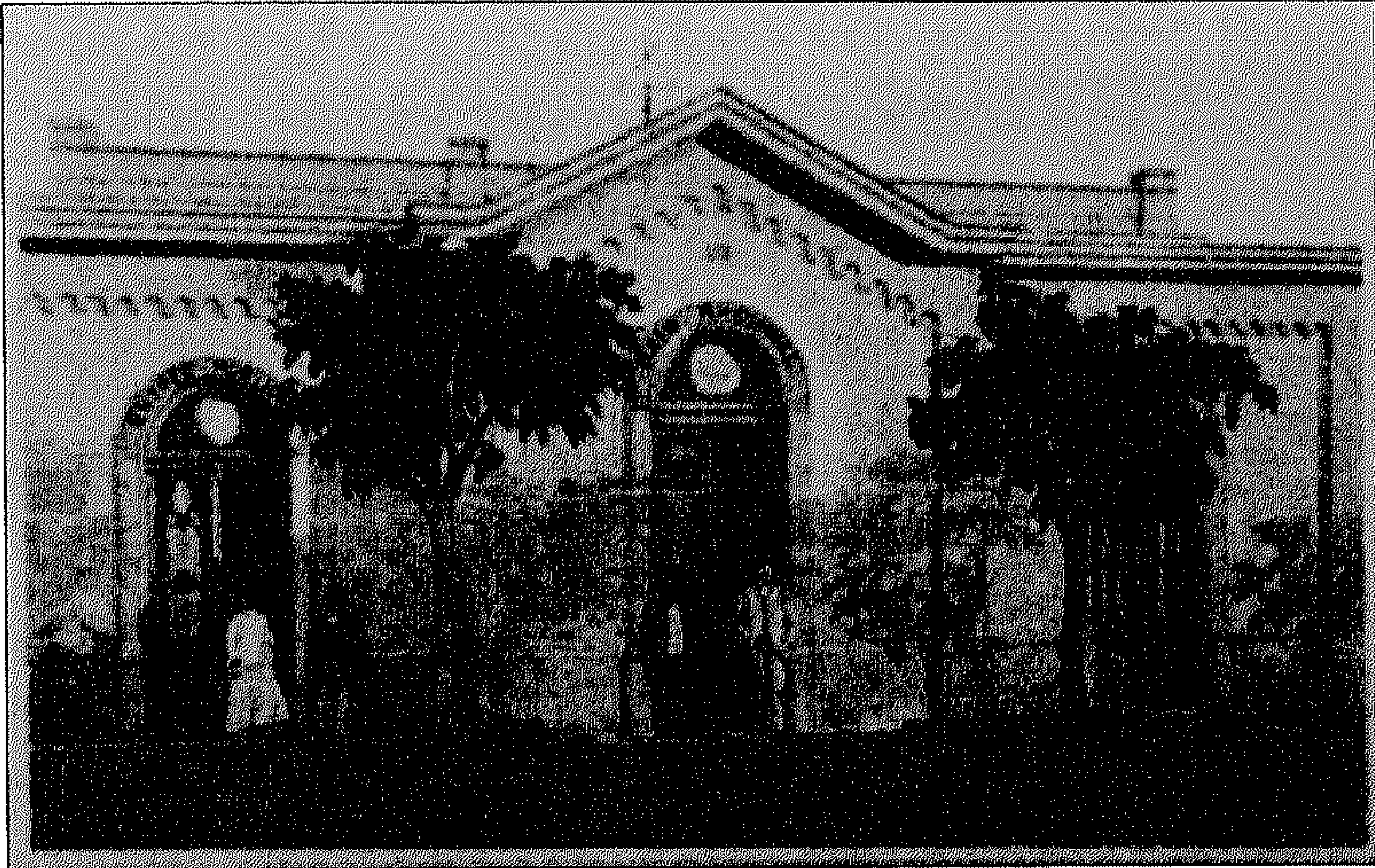
وبدأ الطلبة يتوافدون



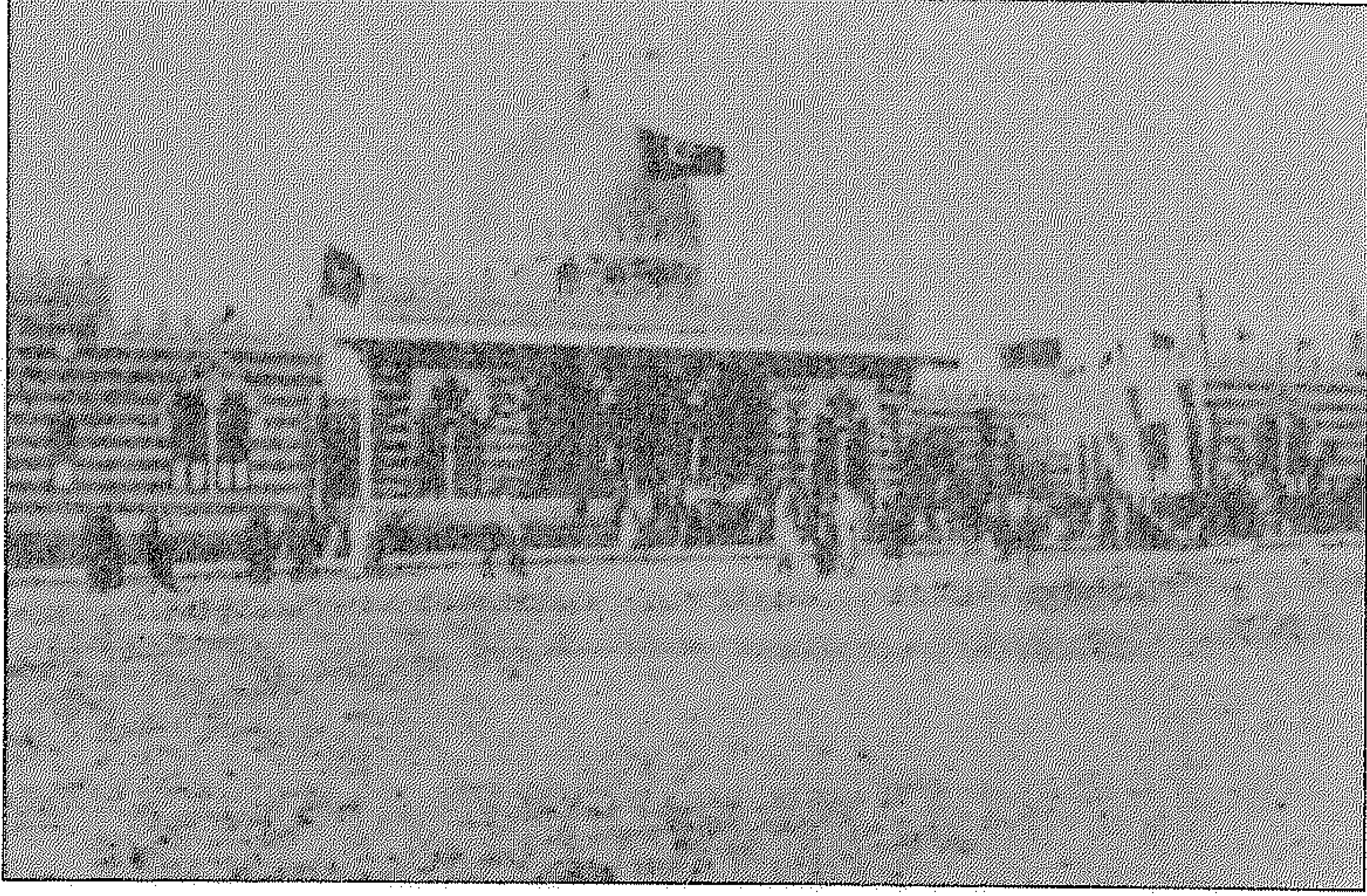
منظر ساحة كلية الحقوق



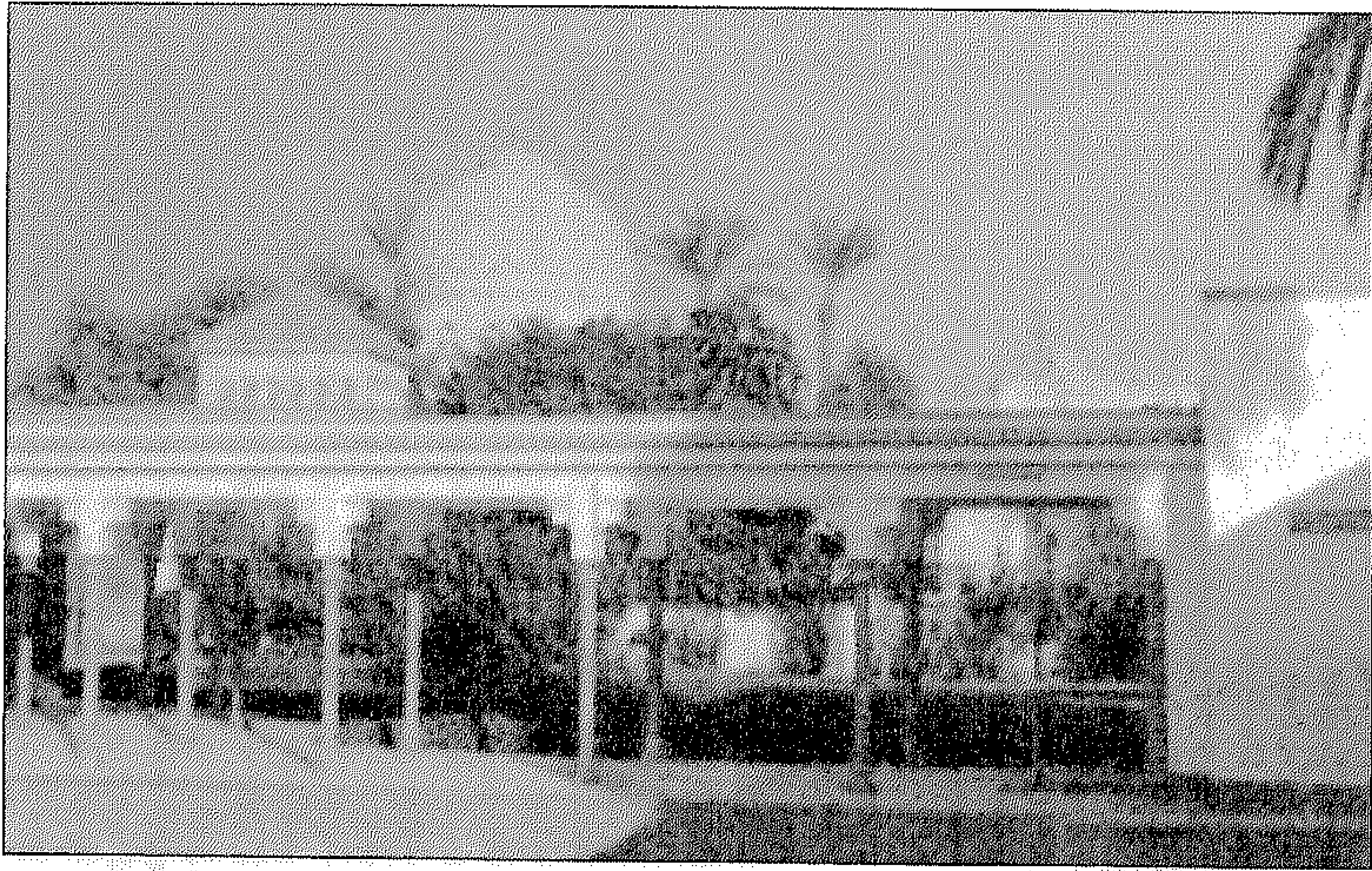
حلوان: ١٨٨٨، جراند أوتيل الحمامات (المدرسة الثانوية للبنات)



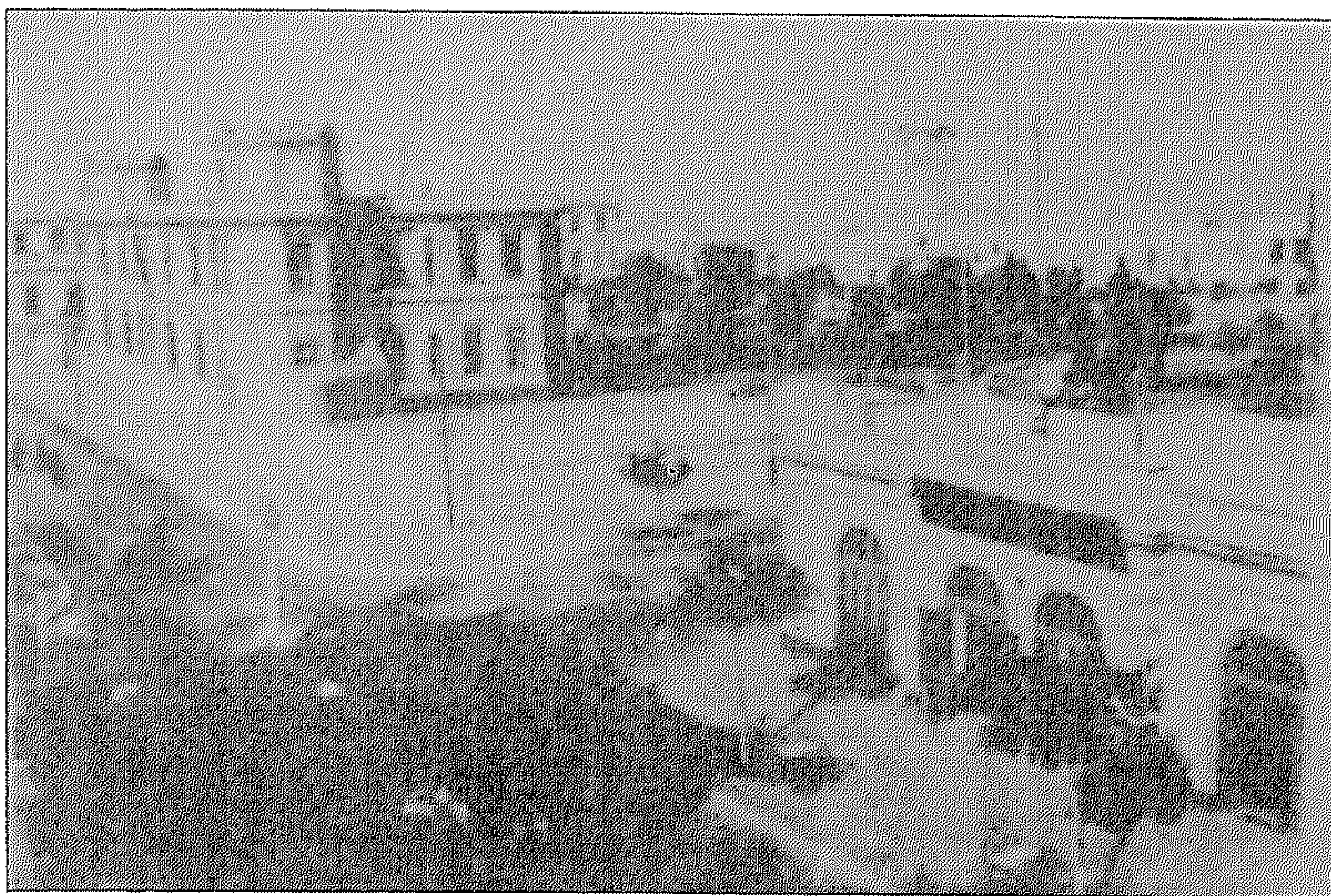
حلوان: ١٨٨٨، أول حمامات المياه الكبريتية



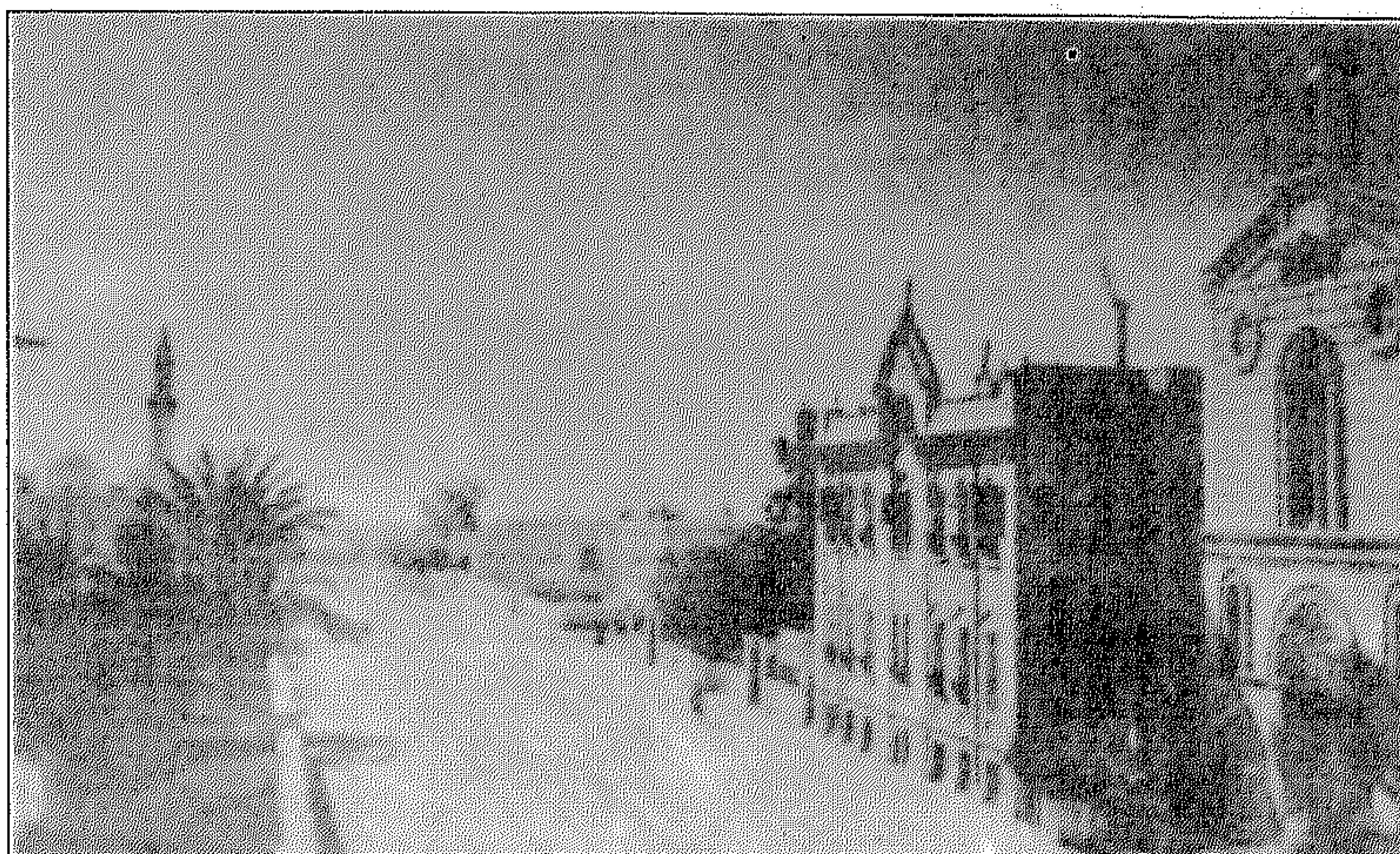
حلوان: ١٨٨٨، أول حمامات المياه الكبريتية



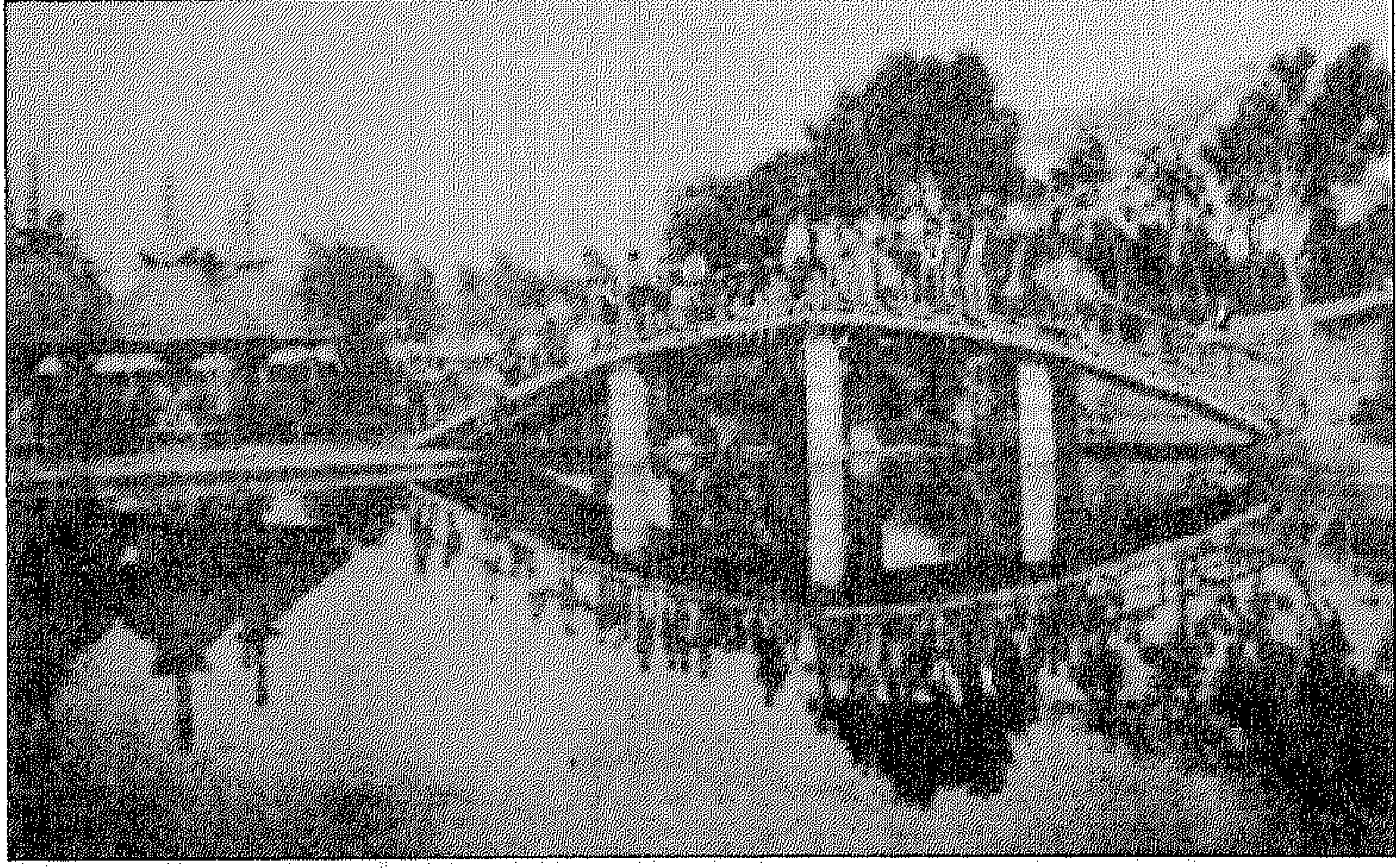
حلوان: ١٨٩٩، حمامات حلوان الكبريتية



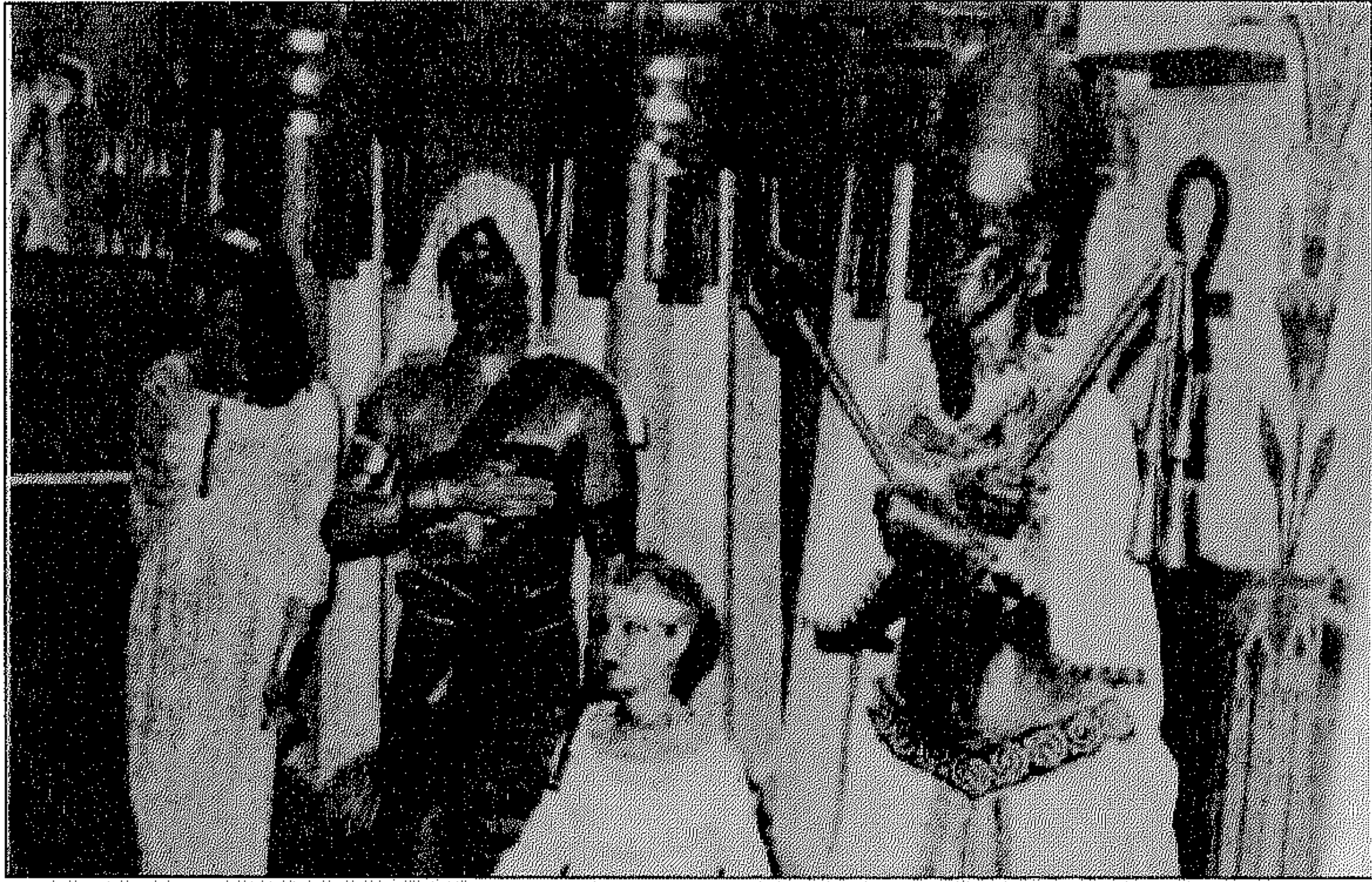
حلوان: ١٩٠٠، كازينو وبرج حلوان



حلوان: ١٩١٠، شارع نوبار باشا ـ أحمد أنسي حاليًا



حلوان: ١٩١٧ ـ ١٩٢٠، الحديقة اليابانية



عين حلوان: ١٩٣٤، متحف الشمع



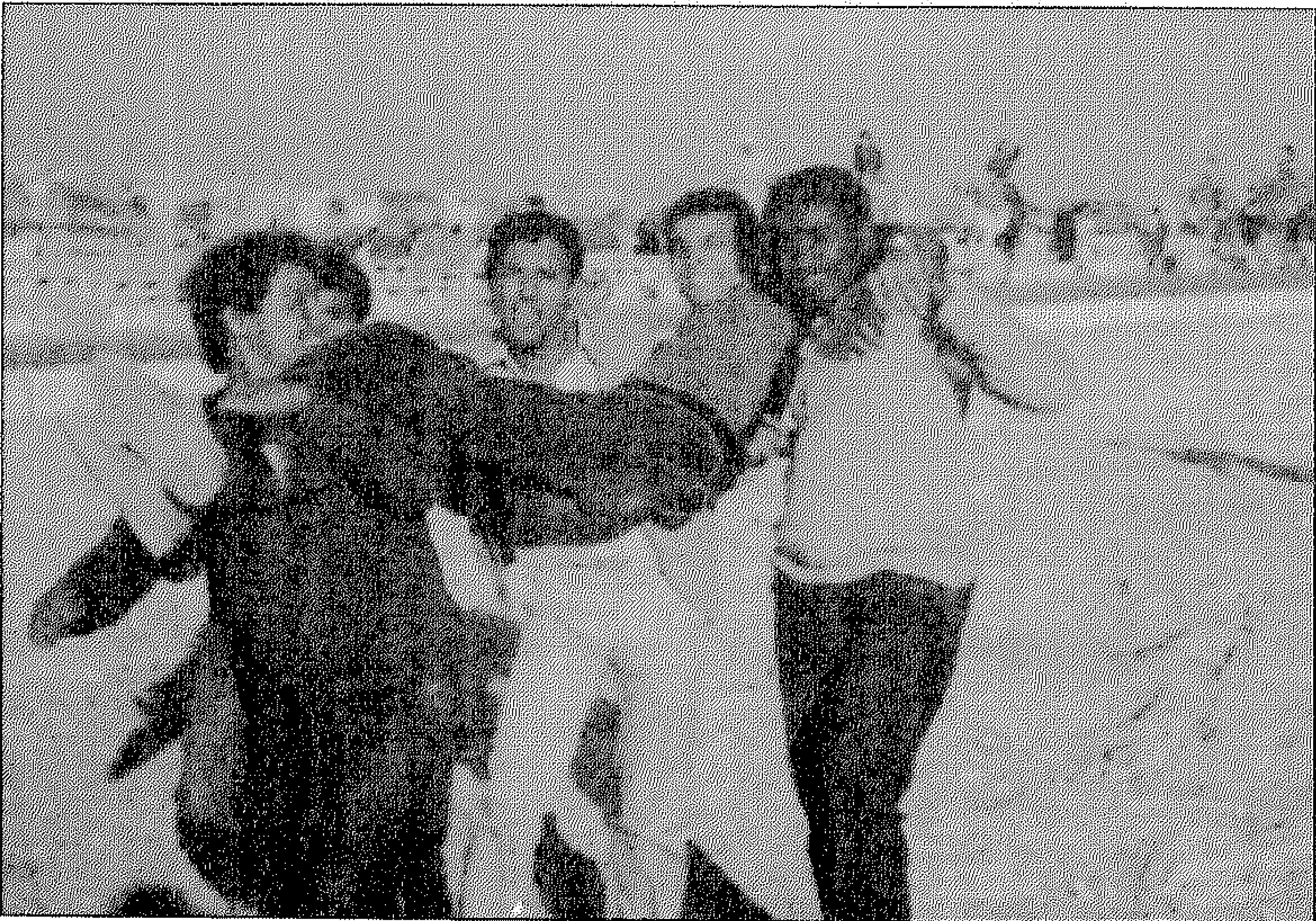
أيمن نور وأعضاء أسرة الإنسان مع أعضاء الجمعية



رحلة الهرم



في الهرم



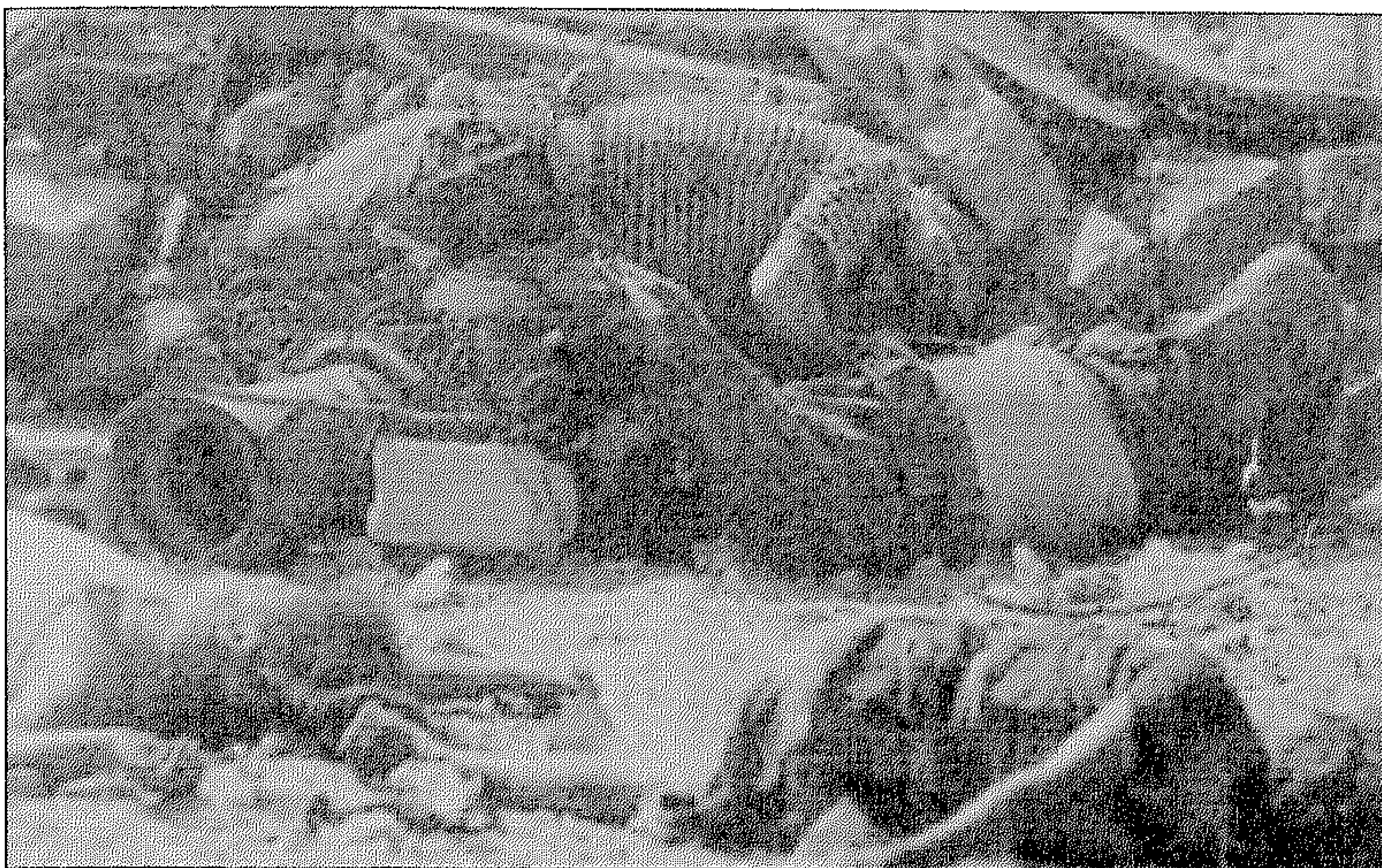
لعبة ومسابقة في الرحلة



في عين حلوان



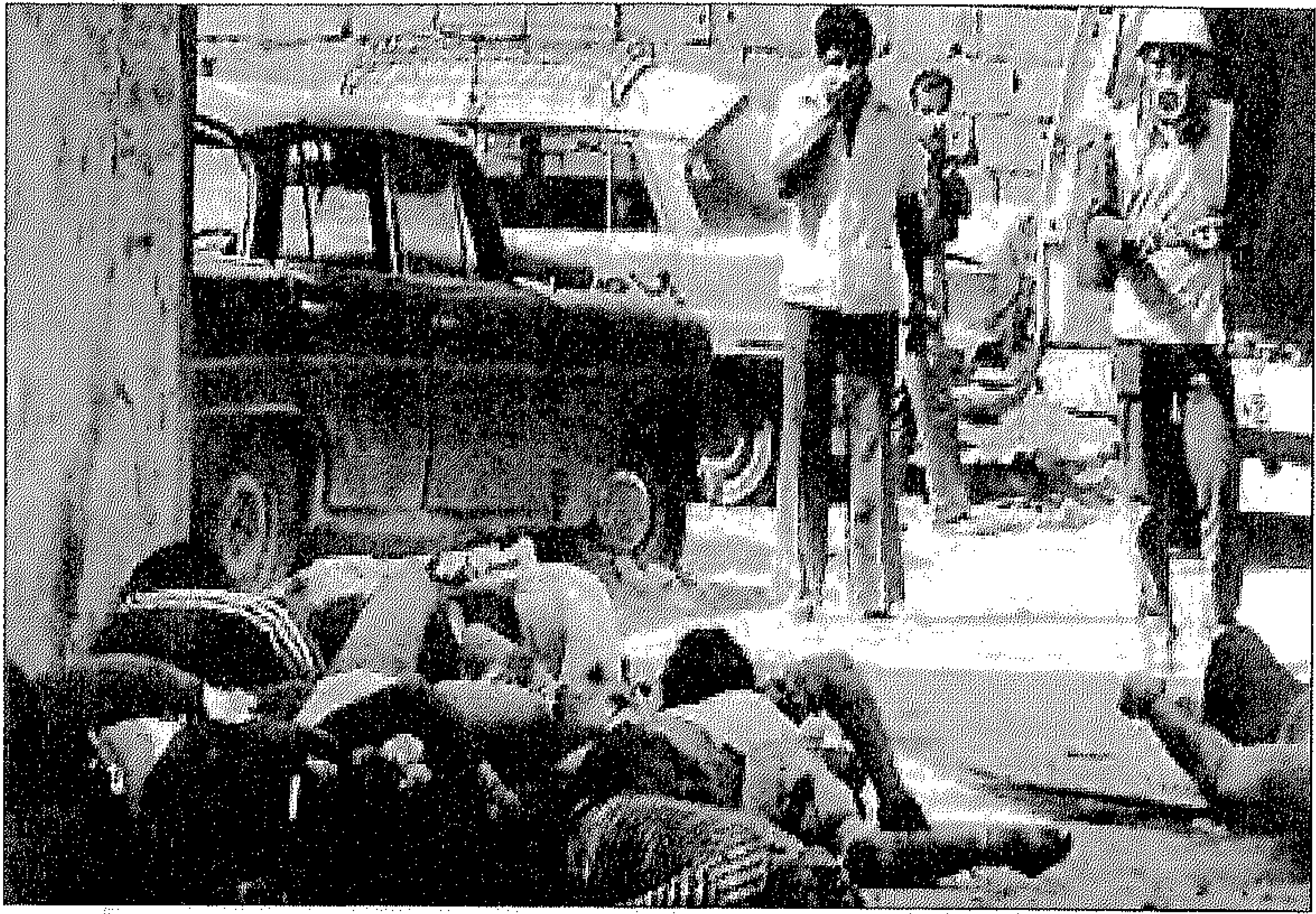
رحلة الجمعية في الحديقة اليابانية



٣٥٠٠ قتيل في مذبحة صبرا وشاتيلا



مذبحة صبرا



مذبحة صبرا



زياد مع غمري



د. المحجوب مستمعًا لكلمة د. عامر وزارع يقف منظمًا للندوة



سيارة المحجوب بعد الاغتيال

ملصق فيلم (Hanna k)

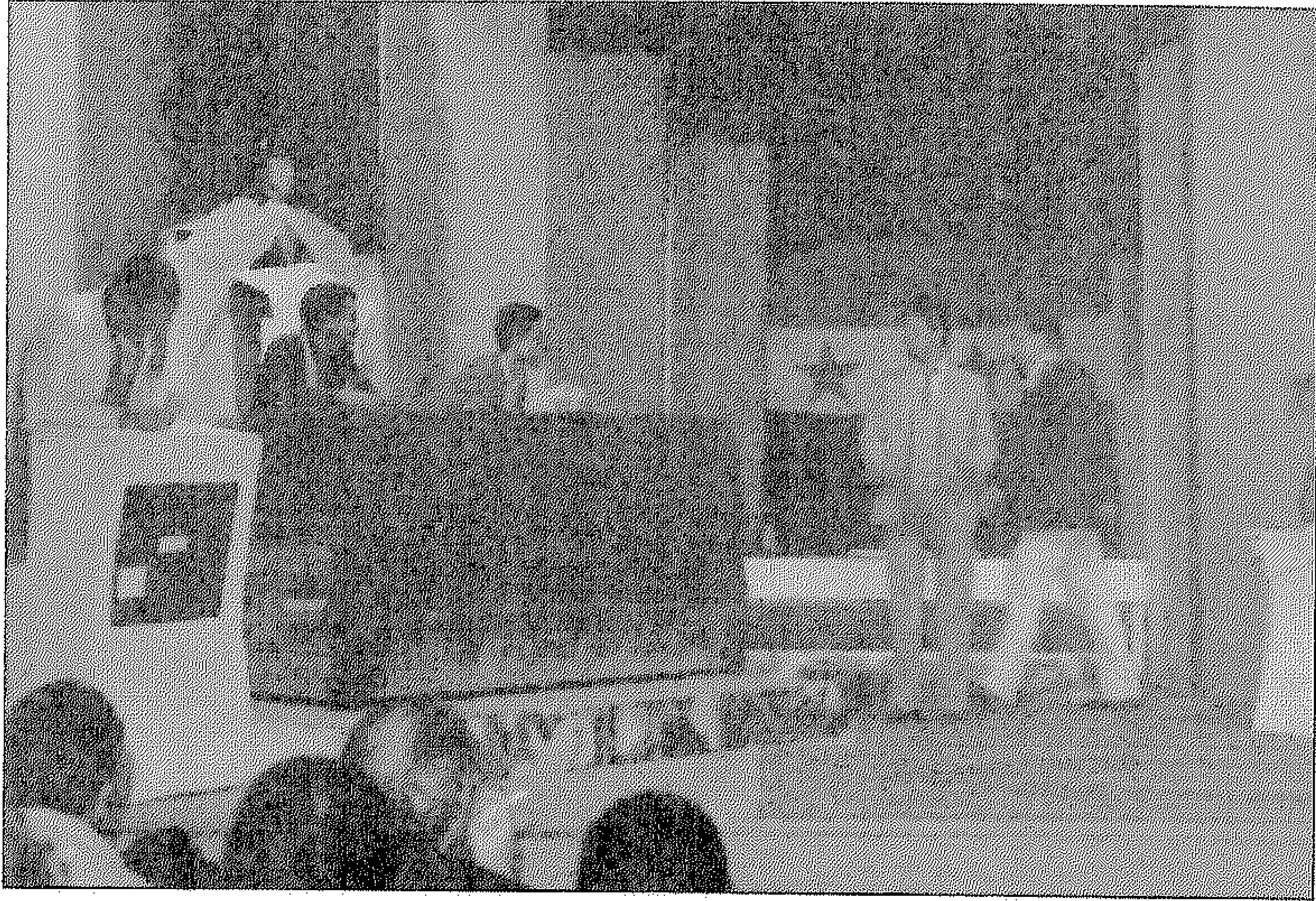




دريد لحام والماغوط وخالد في ندوة للجمعية



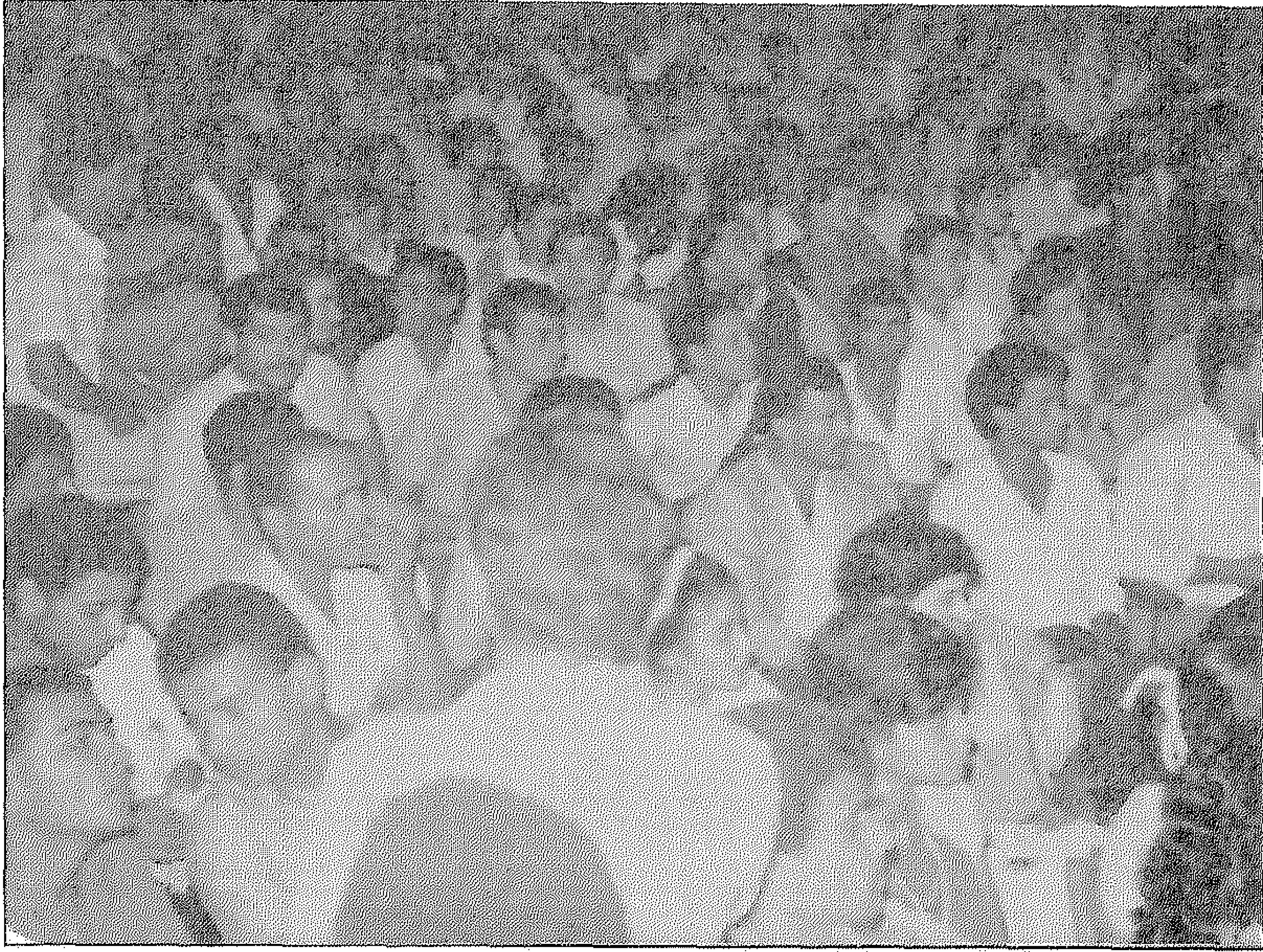
خالد طلعت وغمري



مسرح حقوق في القمة- هنيدي ومداح وخالد صالح



اشتعل المسرح نشاطًا



حضور الطلبة لمسرحيات الجمعية بأعداد لامثيل لها



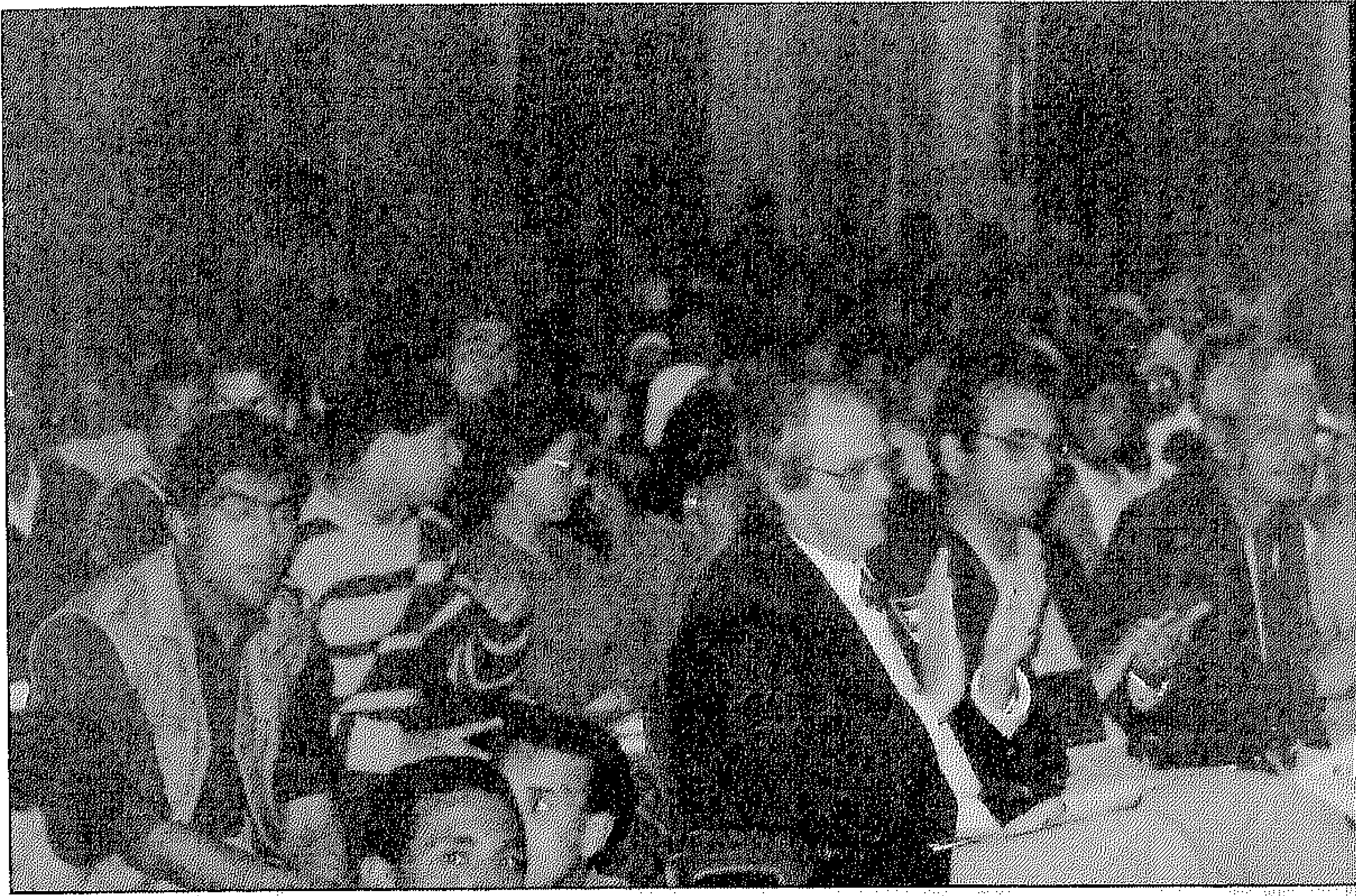
خالد طلعت وممدوح مداح



خالد الصاوي



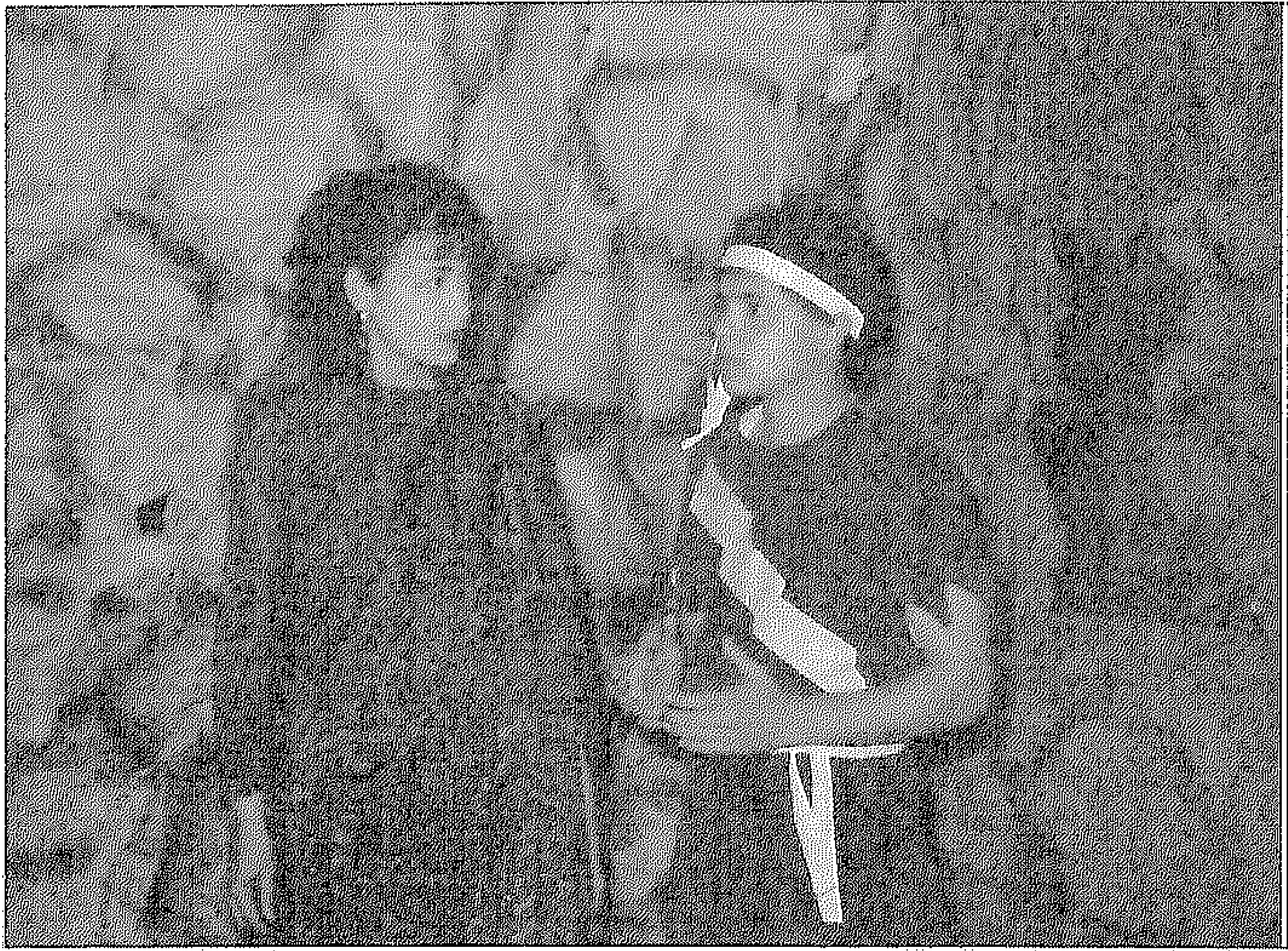
خالد صالح



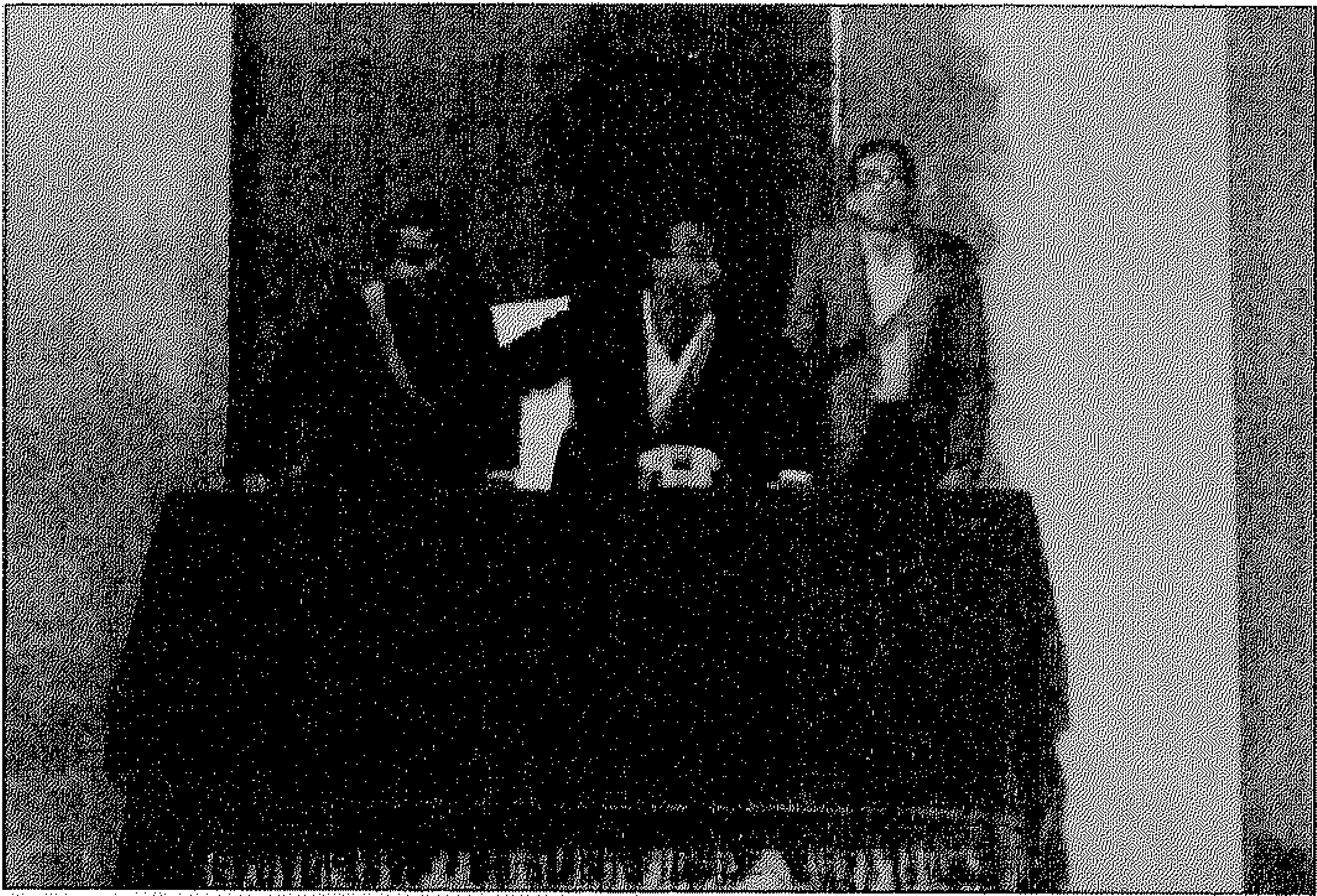
سعد أردش يحضر عروض مسرح حقوق



ماهر عبيد في حفل فني للجمعية



محمد هنيدي



هنيدي وخالد صالح



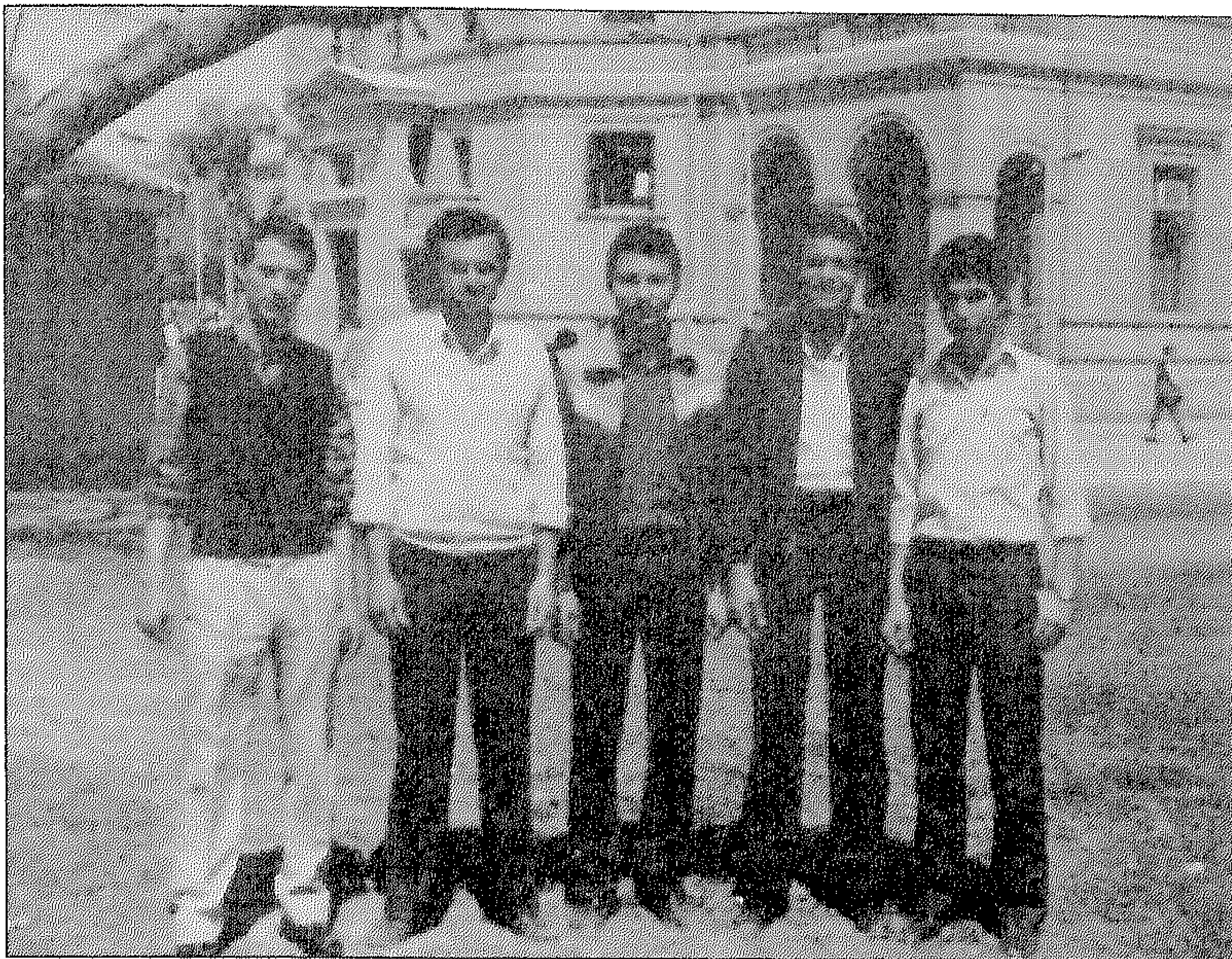
الجمعية على خشبة المسرح



محمد سعد وهشام منصور



مشاركة الجمعية في مسرحية الكاتب والشحات



عمرو الشوبكي ممثلًا لنادي الفكر الناصري وأعضاء الجمعية



ندوة للجمعية

الحقيقة .. بين طلاب الجامعة والحكومة

رفض عميد الحقوق ورئيس الجامعة الحوار فبدأت المسيرة

طلاب الجامعة : حركتنا طلابية .. وليس لنا علاقة بأي حزب

حزب التجمع : لا علاقة لنا بما يجري في الجامعة .. ومطالب الطلاب مشروعة

الجرائد تتهم العميد بإثارة الطلبة للتظاهر

بسم الله الرحمن الرحيم

قامت جمعية الدراسات العربية بكلية الحقوق جامعة القاهرة بعمل عملية الانتخابات الداخلية للجمعية في يوم الثلاثاء ٣٠/١٠/١٩٨٤، وجدير بالذكر أن جمعية الدراسات العربية هي التي قادت الحركة الطلابية في ٩ فبراير ١٩٤٦ / يوم الطالب العالمي حيث دعت لأكبر مؤتمر طلابي عقد في جامعة القاهرة منذ السبعينات وخرجت منه المظاهرات الجامعية

افتتح المؤتمر العام الأول لهذا العام

وقد [illegible] الثلاثاء ٣٠/١٠/٨٤، وأجريت عملية الانتخابات في صورة تامة لم تشهدها انتخابات مجلس الجمعية السابقة، فقد أقر المؤتمر العام تكوين مكاتب جديدة وهي المكتب السياسي والثقافي، مكتب الدعاية والإعلام، مكتب لشئون الاتصال والتنسيق، وذلك بدلاً من اللجان التي تفرضها لائحة ٧٩ غير المرغوب فيها... وبالنسبة للهيكل القيادي للجمعية فأصبحت القيادة جماعية بدلاً من الفرد الواحد..
فالمكتب التنفيذي للجمعية عضويته من ٣ أفراد، وكل من المكاتب المكونة لأنشطة الجمعية من ٣ أفراد
وفي حضور لجنة الانتخابات المكونة من رئيس الجمعية السابق [illegible] محمود عبد الحميد وسكرتيرها السابق أيضاً [illegible] تمت عملية الانتخاب بالاقتراع السري، وأقر المؤتمر رئيس الجمعية وسكرتيرها السابقين [illegible] إلى أن تكون الجمعية ساحة [illegible] الديمقراطية في الجامعة، ولتعميق الانتماء القومي العربي بين جماهير الطلاب، وأسفرت الانتخابات عن:

أولاً المكتب التنفيذي وهو مكون من ثلاثة أعضاء وهم
رئيس الجمعية ياسر عبد الجواد
نائب رئيس الجمعية ياسر حسن
عضو المكتب لشئون الاتصال والتنسيق: أحمد رجب
ثانياً مجلس الإدارة
المكتب الثقافي والسياسي: أحمد عبد المعطي
مكتب الدراسات والبحوث: مصطفى يا [illegible]
المكتب الاجتماعي والرحلات: سيد عبد الحافظ
المكتب الفني: نبيل عبد الرازق
المكتب الرياضي: محمد يسري
مكتب الدعاية والإعلام: حافظ السيد

انتخابات الجمعية

هذا وسيقام مهرجان بعد النشاط ، وتنصيب مجلس الإدارة
في الأيام الـ ١٥ الأولى من نوفمبر القادم .
الجدير بالذكر أيضاً أن الجمعية تعتبر أكبر الجمعيات والأسر
عدداً في جامعة القاهرة ، وتاريخها يعود إلى العام ١٩٦٠
ورائدها المفكر القومي أ.د / يحيى الجمل .

تابع انتخابات الجمعية

اللجنة الوطنية لطلاب جامعة القاهرة
المشكلة في ١١ فبراير ١٩٨٤

إيماناً منا بأن الحركة الطلابية لا تنفصل عن الحياة السياسية والاجتماعية للوطن ... [illegible] الأصوات [illegible] الاجتماعية ... ممارسة الحريات الديمقراطية داخل الجامعة وإسقاط كافة اللوائح والقرارات المقيدة لهذه الحريات وعلى رأسها لائحة ١٩٧٩ باعتبارها أبشع وأخطر اللوائح التي عرفتها الحركة الطلابية في تاريخ مصر وقد قامت على أساس: -

١ - هدم كيان الاتحادات الطلابية الحقيقي وضرب وحدة الحركة الطلابية وتقييد حريتها.

٢ - تحويل اتحادات الطلاب إلى أجهزة غير طلابية تابعة للإدارة. (مجلس الاتحاد يتكون من ٥ طلاب + ١٥ أساتذة + عميد الكلية + مدير رعاية الشباب بالكلية أي لا فعالية)

٣ - [illegible] في كافة الأنشطة الطلابية الجامعية.

٤ - منع عقد الندوات الفكرية والسياسية والمؤتمرات الطلابية.

وقد كان الهدف واضحاً وهو منع وجود تنظيم طلابي مستقل داخل الجامعة وضرب حرية الحركة الطلابية ولتحقيق ذلك فإننا نطالب بـ: -

١ - إسقاط لائحة ١٩٧٩ المعمول بها حالياً والعودة مؤقتاً للائحة ٧٦ - التي تتيح قدراً من الحرية للطلاب - لحين عقد مؤتمر طلابي.

٢ - إطلاق حرية التعبير والرأي، وحق الطلاب في إصدار الصحف والمجلات والبيانات وعقد المؤتمرات والندوات دون شرط أو قيد.

٣ - إلغاء الحرس الجامعي وكافة أجهزة الأمن داخل الكليات.

٤ - إلغاء مجالس التأديب لأسباب سياسية وحرية الترشيح لكل الطلاب دون قيد أو شرط.

وإننا نؤمن بأن الحرية حق لا يُمنح ولا يُستجدى ولكنه يُنتزع فلنعمل معاً مع جماهير الطلاب على تحقيق مطالبنا، ونهيب بكل الأساتذة الوطنيين الشرفاء بأن يكونوا أول نصير لنا للعمل [illegible] مطالبنا

عاشت مصر حرة — عاش كفاح الحركة الطلابية

تشكيل اللجنة الطلابية على مستوى الجامعات



د. يحيى الجمل في ندوة للجمعية

لهذه الاسباب افترقت السبل

لاننا في زمن اصبحت [illegible] وانعدام الرؤية السياسية . ولاننا

في زمن انتعشت فيه تجارة [illegible] والقلب المسمم بالدجاج الفاسد . ولاننا في عصر صارت

فيه الوطنية [illegible] صحوة الوطن وازالة العوائق [illegible] .

ولاننا [illegible] في عالم [illegible]

[illegible] تجارة القلب [illegible] .

لذا لم يهبط الوحي علينا [illegible] الى الحزب الوطني الديمقراطي

فالتاريخ قد علمنا نحن ابناء هذه الارض [illegible] ان الوطنية ليست مجرد شعار

ولكنها ثأر وحركة [illegible] لا تنتهي الا بموت الانسان وعندها ايضا [illegible] يكتب بحروف [illegible]

في سجلات التاريخ او يلقى في مزبلته .

ولاننا نعلم ان المناضل مشروع جبان حتى يموت فاننا لم نحزن عندما انضوى استاذنا

الجليل تحت رايات الحزب الوطني .

ولكن السؤال الآن .. لماذا انضم من هو "كاتب [illegible]" الى حزب [illegible] ؟

استاذنا الجليل نحن ابناء جمعية الدراسات العربية [illegible]

[illegible]

والاستعمار والتبعية ساعين الى تحقيق [illegible] الوحدة [illegible]

والوحدة . ولانك مفكرا قوميا ناضل وتابع من اجل هذه القضية .

[illegible] استاذنا الجليل [illegible]

ولكن [illegible] ان الردة عن المبادئ [illegible] ؟

انك باختيارك صفوف الحزب الوطني [illegible]

اعداء الشعب . لذا [illegible]

والناصرية الذين يريدون الانضمام للحزب الوطني الديمقراطي .

الى جماهير الطلاب الوطنيين

حرصا منا على ثقافتنا الوطنية واستمرارا في [illegible] من اجل الحرية والاشتراكية

والوحدة واستمرارا بمبادئنا التي [illegible] نحن ابناء جمعية الدراسات

العربية ان يفترق طريقنا عن [illegible]

[illegible] هذا الامر [illegible]

[illegible]

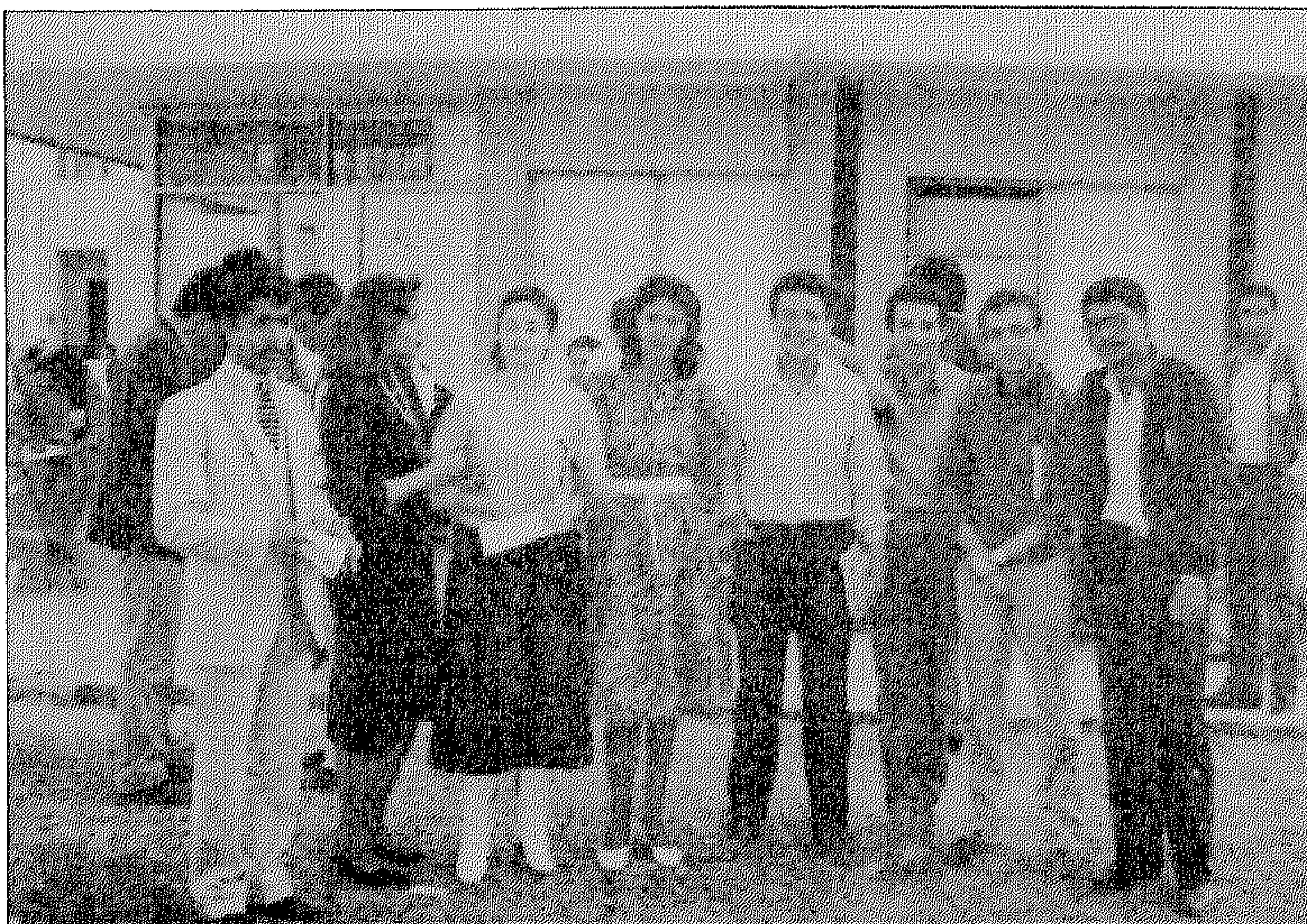
بالحزب [illegible] رائد [illegible] .

وعاش كفاح الطلاب [illegible] من اجل

الحرية والاشتراكية والوحدة .

جمعية الدراسات العربية

بيان لرائد الجمعية



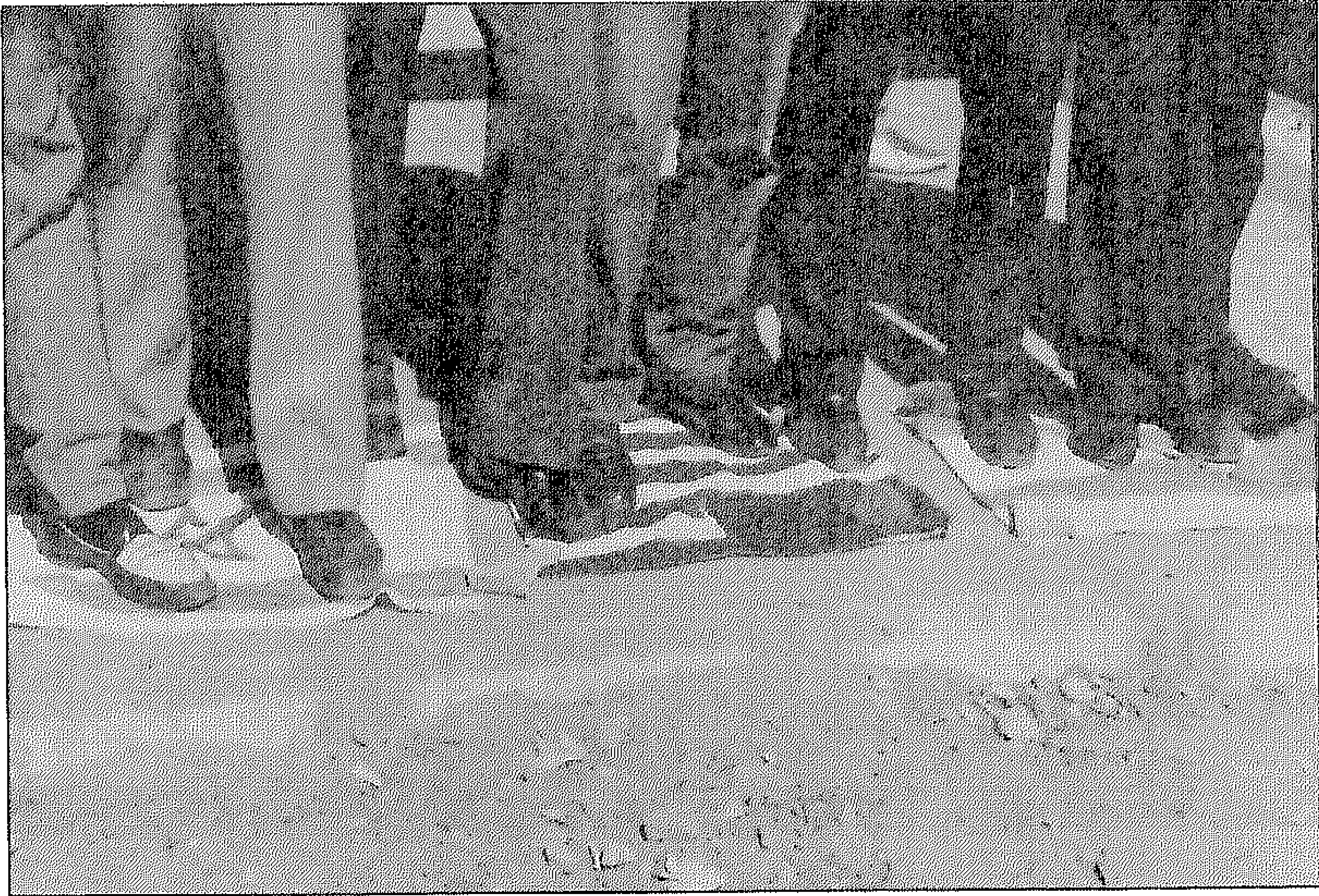
بدلة وكرافتة محمود



في جميع المناسبات بالبدلة كاملة



وأيضا هنا بالبدلة



علم إسرائيل في المعرض قبل حرقه

ثورة مصر [بقية]

الاسرائيليين من قبل » . وأشار البيان ، إلى آخر العمليات التي كانت المنظمة قد نسبتها لنفسها ، وهي محاولة قتل المسئولين عن تأمين الجناح الاسرائيلي في معرض القاهرة الصناعي في العام الماضي ، وقال إن المنظمة قد جمدت نشاطها لفترة لتسمح

الرئيس مبارك فرصة لمراجعة حساباته ، وأضاف ، أن الرئيس قد حاول مقاومة الضغوط الأمريكية والاسرائيلية ، ولكن ذلك لم يستمر .. وأذاع البيان ماقال أنه لايعتبر اسرارا عسكرية . مثل أن طائرات أجنبية تنتهك المجال الجوي المصري ، رغم أن مصر قد دفعت ٣٠ مليون دولار ثمنا لجهاز رادار أمريكي من طراز

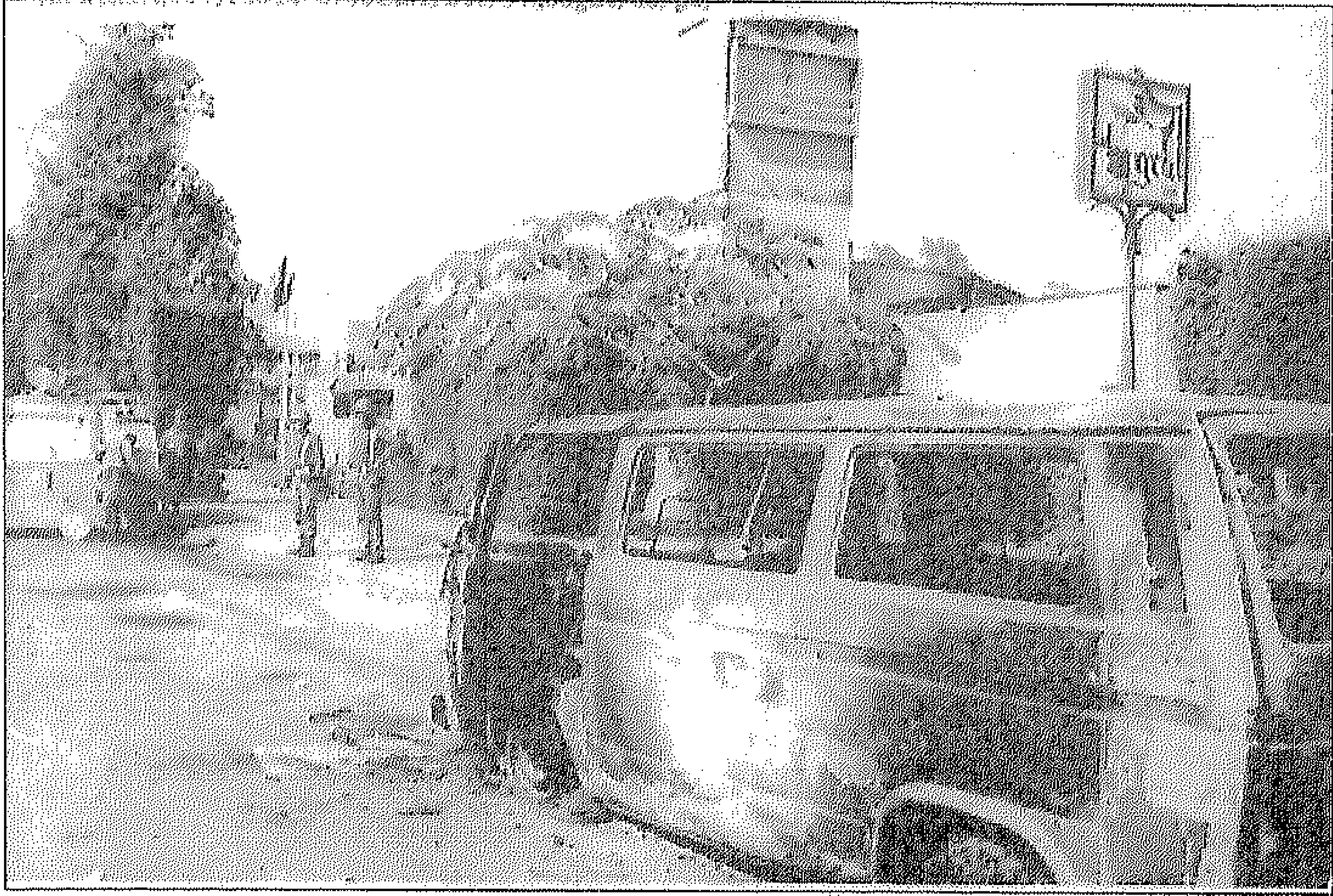
٥٦ » يقيم الأمريكيون بعمليات ، وقال أن المخابرات الأمريكية تزرع عملاء الاسرائيليين في مصر ، وتستخدم سيارات تحمل أرقام السفارة .

أعلن البيان تأييده للتسريبات المنسوبة للمشير أبو غزالة ، والتي تقول أن الشرق في الجبهة الشرقية وليس في الجبهة الغربية ، وحذر بعض المنظمات الفلسطينية من استخدام اسم « ثورة مصر » عليها مساندة عملياتها المنظورة » ، وقال البيان « إن ثورة مصر تسعى من أجل ثورة شعبية ، تحميها وتؤيدها المنظمة من داخل القوات المسلحة ، حتى لاتتهم بأننا قمنا بانقلاب عسكري خلاف رغبة الشعب » .

بيان ثورة مصر ـ جريدة الأهالي ٣/ ٦/ ١٩٨٧



إيهاب وعبد اللطيف وياسر ونبيل وقنديل وعصام وغمري ومنتصر



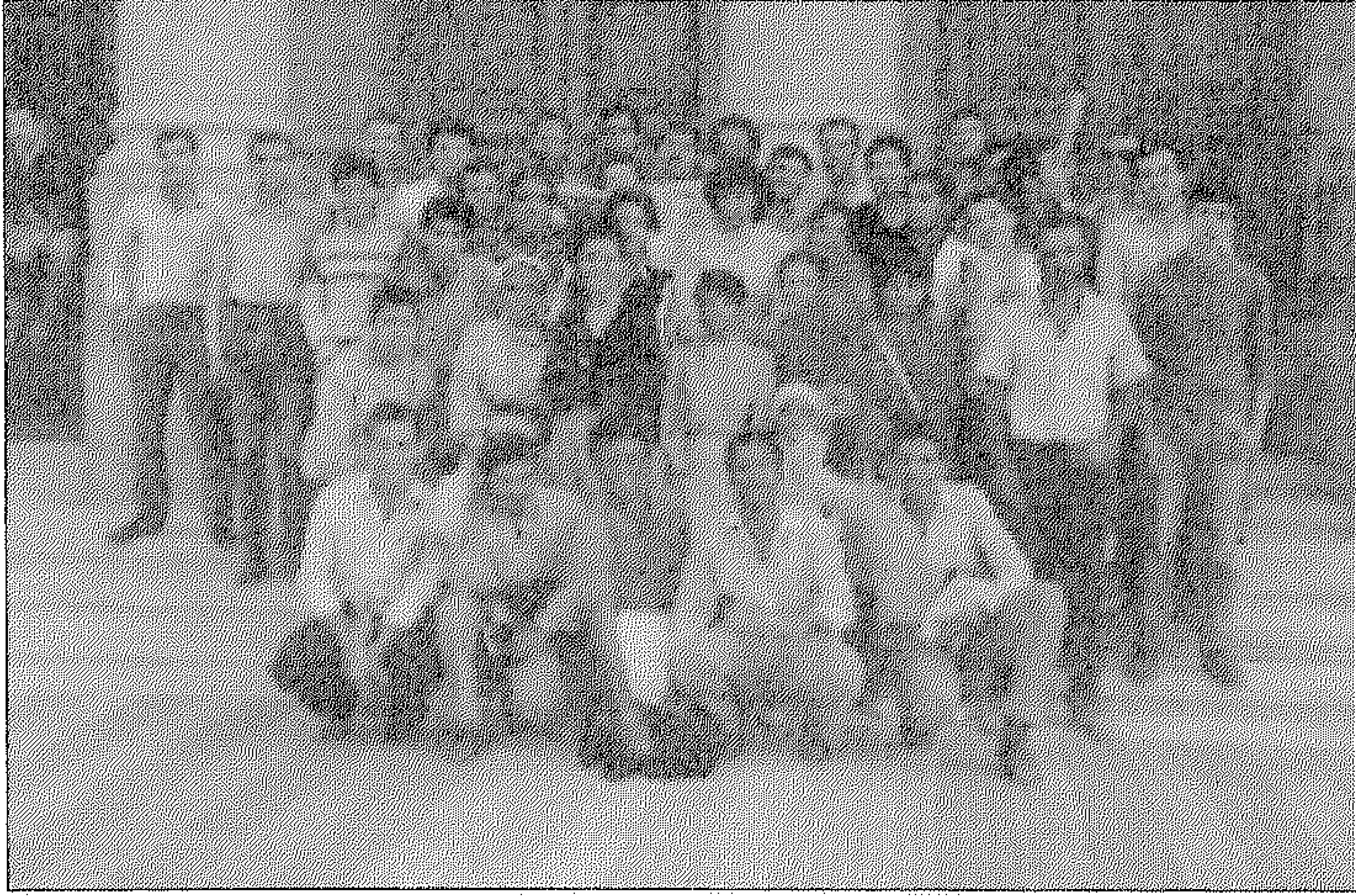
انتفاضة الأمن المركزي



الدبابات تسير في الشوارع



حرائق الأمن المركزي



صورة لأعضاء الجمعية على سلم كلية الحقوق ١٩٨٥



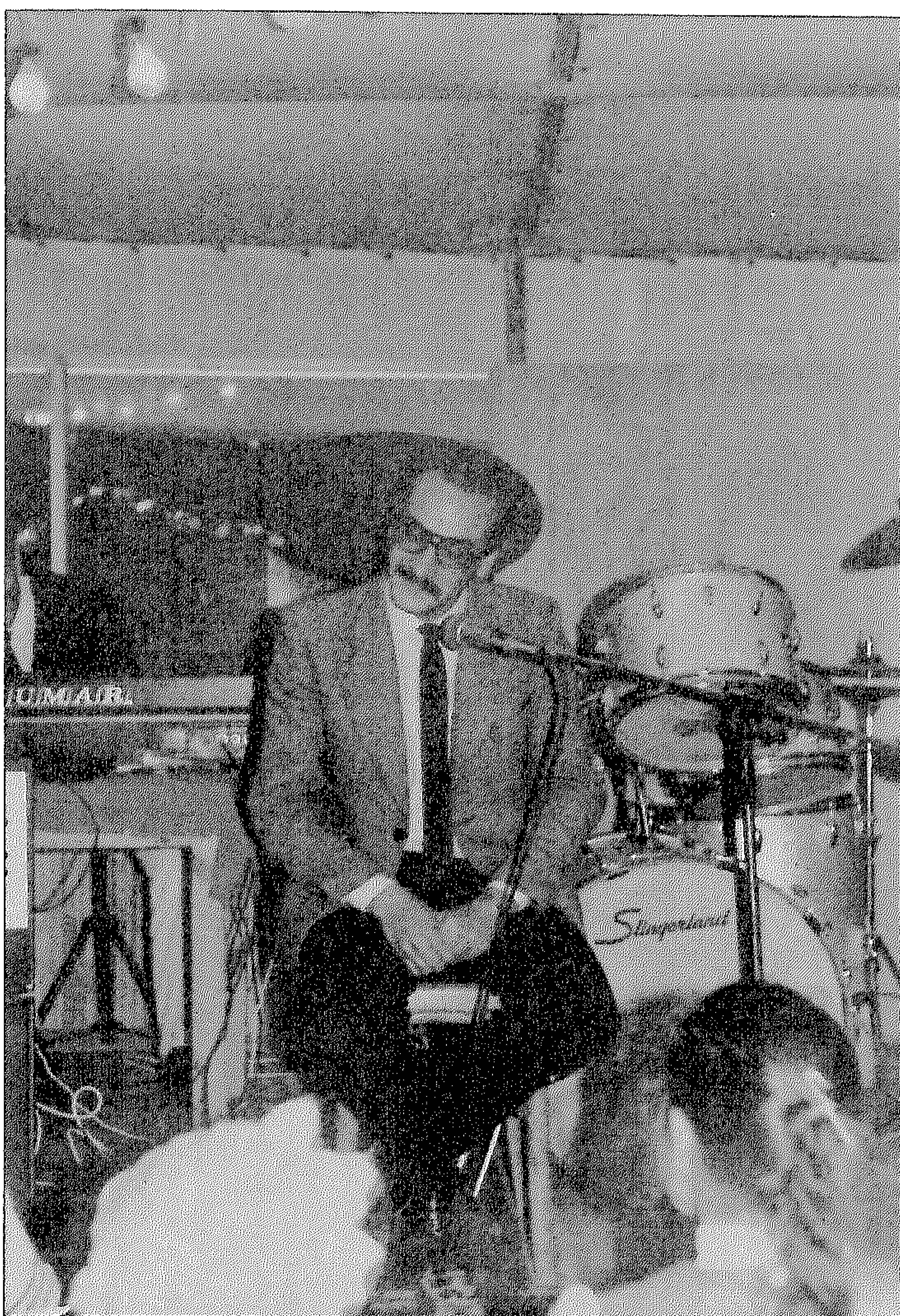
بنات الجمعية مع معطي وناصر وسيد وحافظ



عزة وهالة وأمنية وزيزي وعزة وهدى



أعضاء الجمعية وناصر يخفي البيبسي



خالد يقلد العريس



القاعة محتشدة عن آخرها



ماهر عبيد وممدوح يغنيان



ندى تحاول دخول الكادر



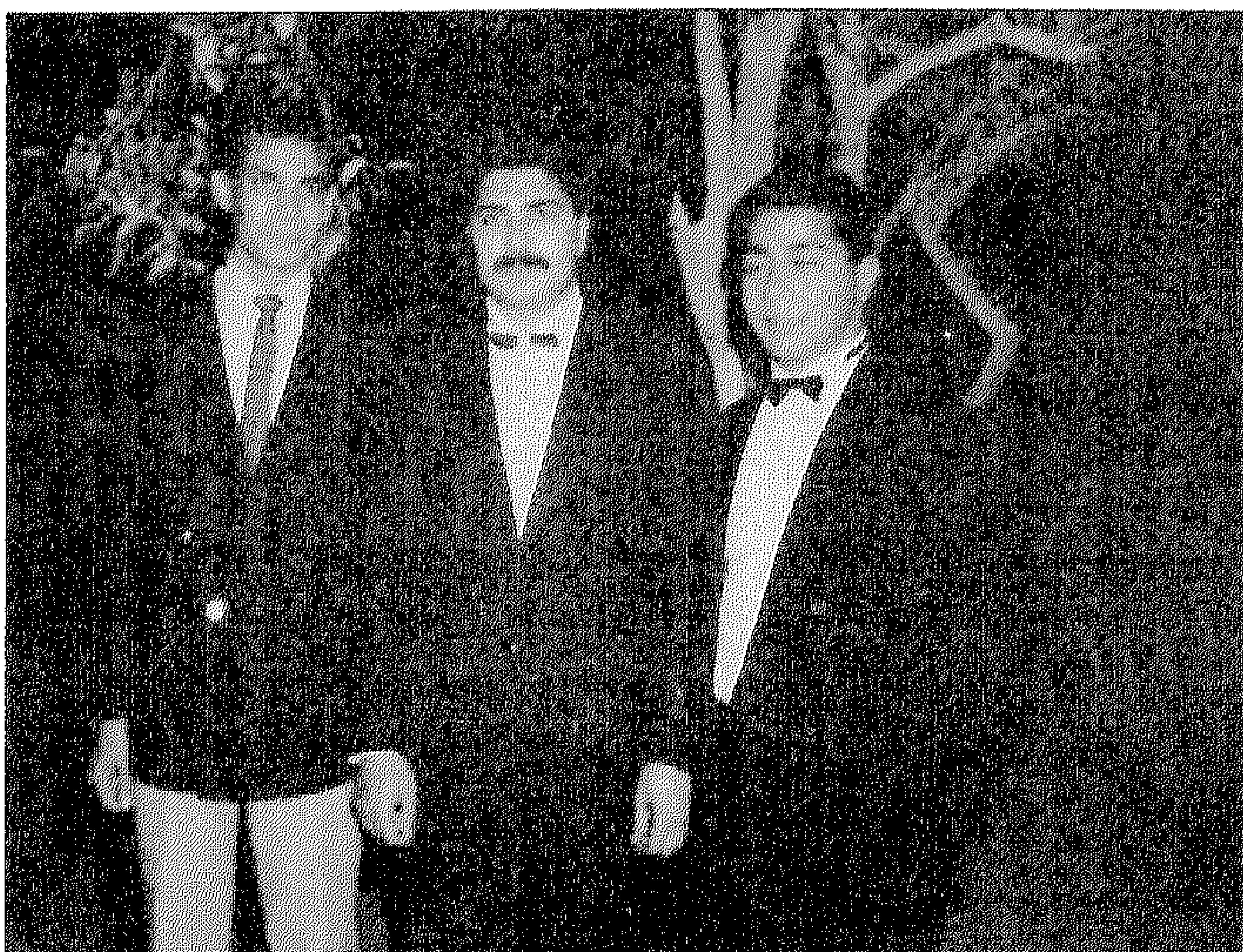
سيد رجب في الزفة



أعضاء الجمعية وفرحة كبيرة



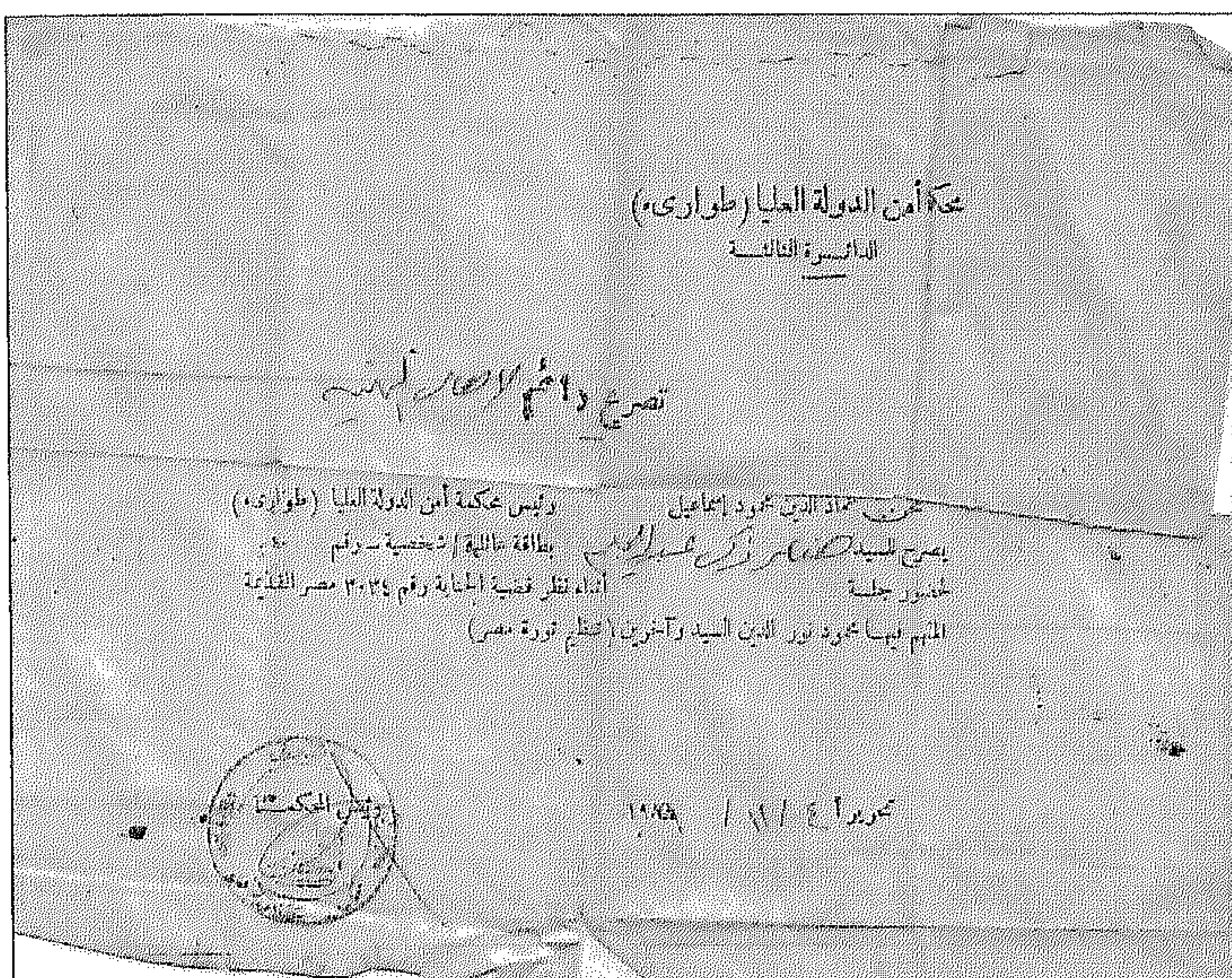
حسن يوسف وموال



محمود وياسر يتوسطهم العريس غمري في حديقة منزل التبين



على باب منزل التبين



محكمة أمن الدولة العليا (طوارئ)
الدائـــرة الثالثـــة

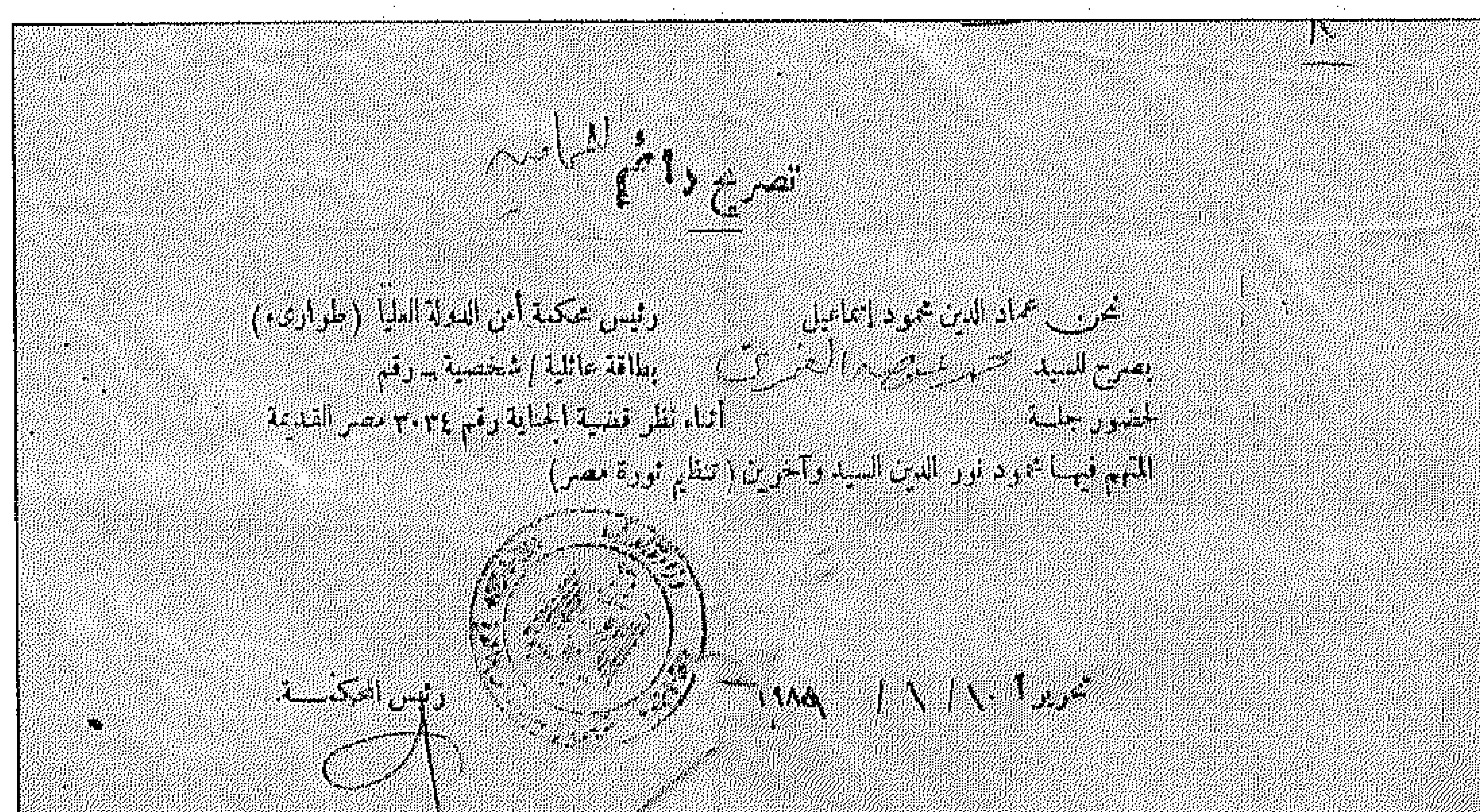
تصريح دائم

نحن عماد الدين محمود إسماعيل رئيس محكمة أمن الدولة العليا (طوارئ)
يصرح للسيد بطاقة عائلية / شخصية رقم
لحضور جلسة أثناء نظر قضية الجناية رقم ٣٠٣٤ مصر القديمة
المتهم فيها محمود نور الدين السيد وآخرين (تنظيم ثورة مصر)

تحريراً ٤ / ١٢ / ١٩٨٨

رئيس المحكمة

تصريح زيارة



تصريح دائم

نحن عماد الدين محمود إسماعيل رئيس محكمة أمن الدولة العليا (طوارئ)
يصرح للسيد بطاقة عائلية / شخصية رقم
لحضور جلسة أثناء نظر قضية الجناية رقم ٣٠٣٤ مصر القديمة
المتهم فيها محمود نور الدين السيد وآخرين (تنظيم ثورة مصر)

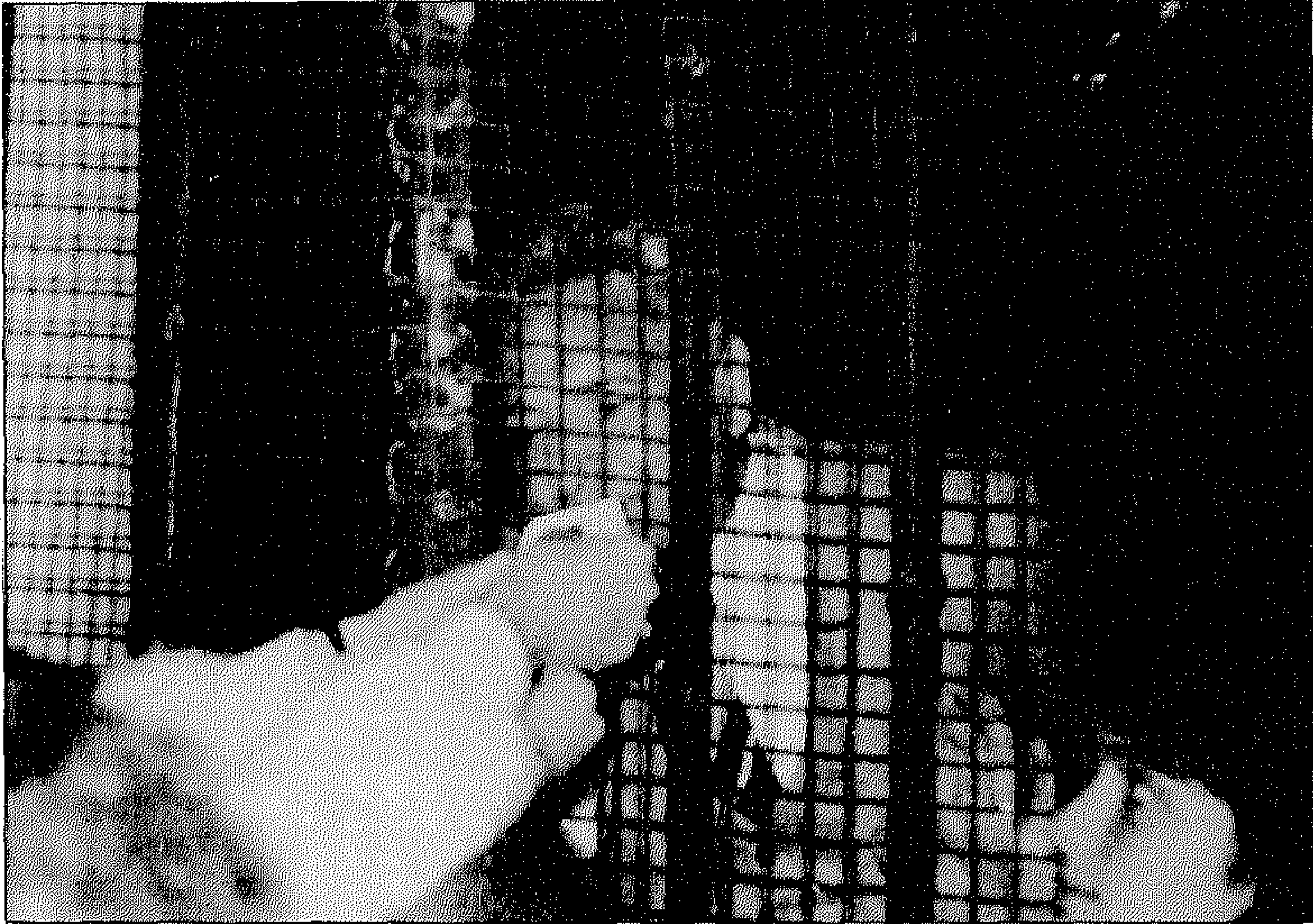
تحريراً ١٠ / ١ / ١٩٨٩

رئيس المحكمة

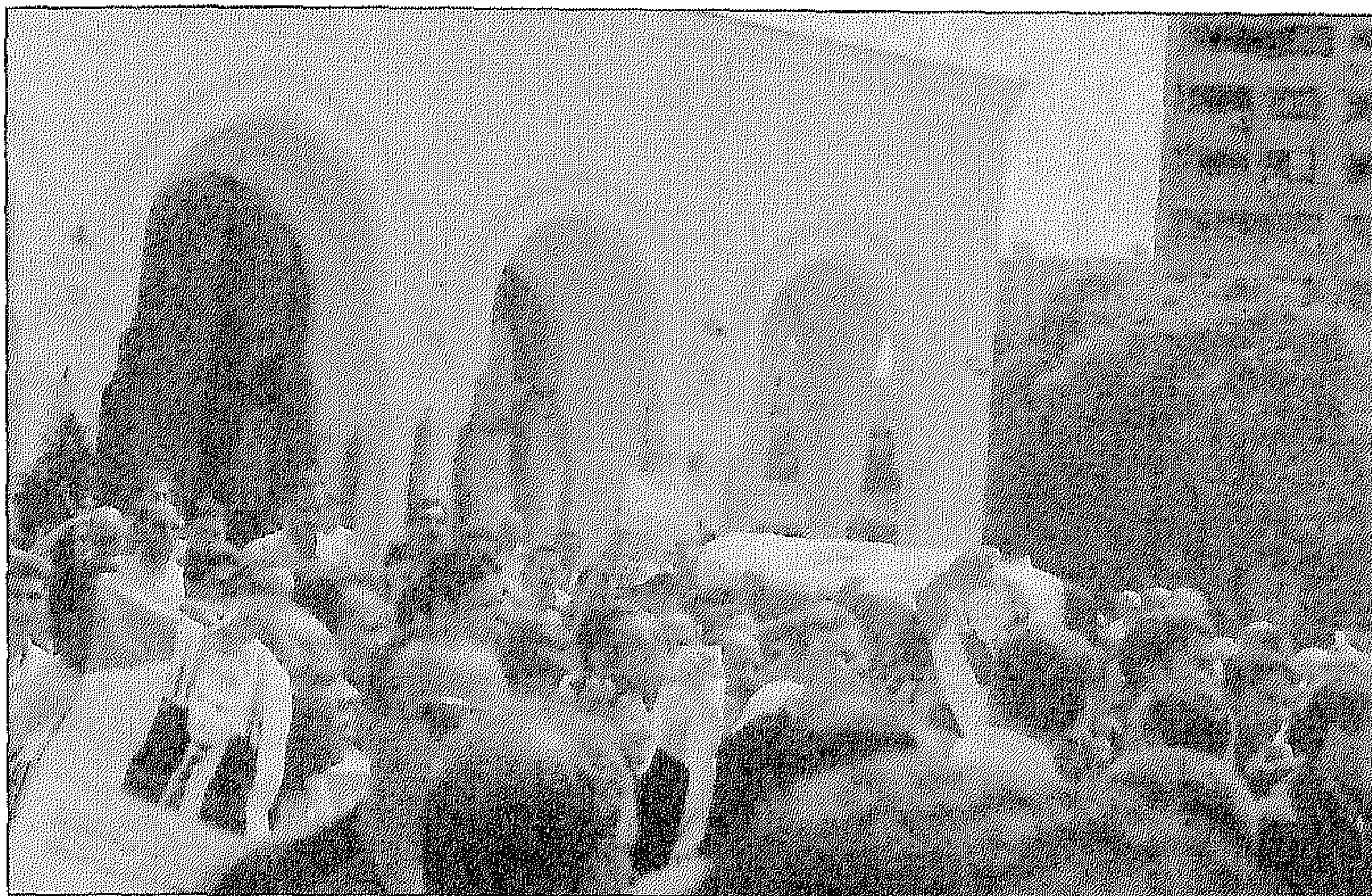
تصريح زيارة ٢



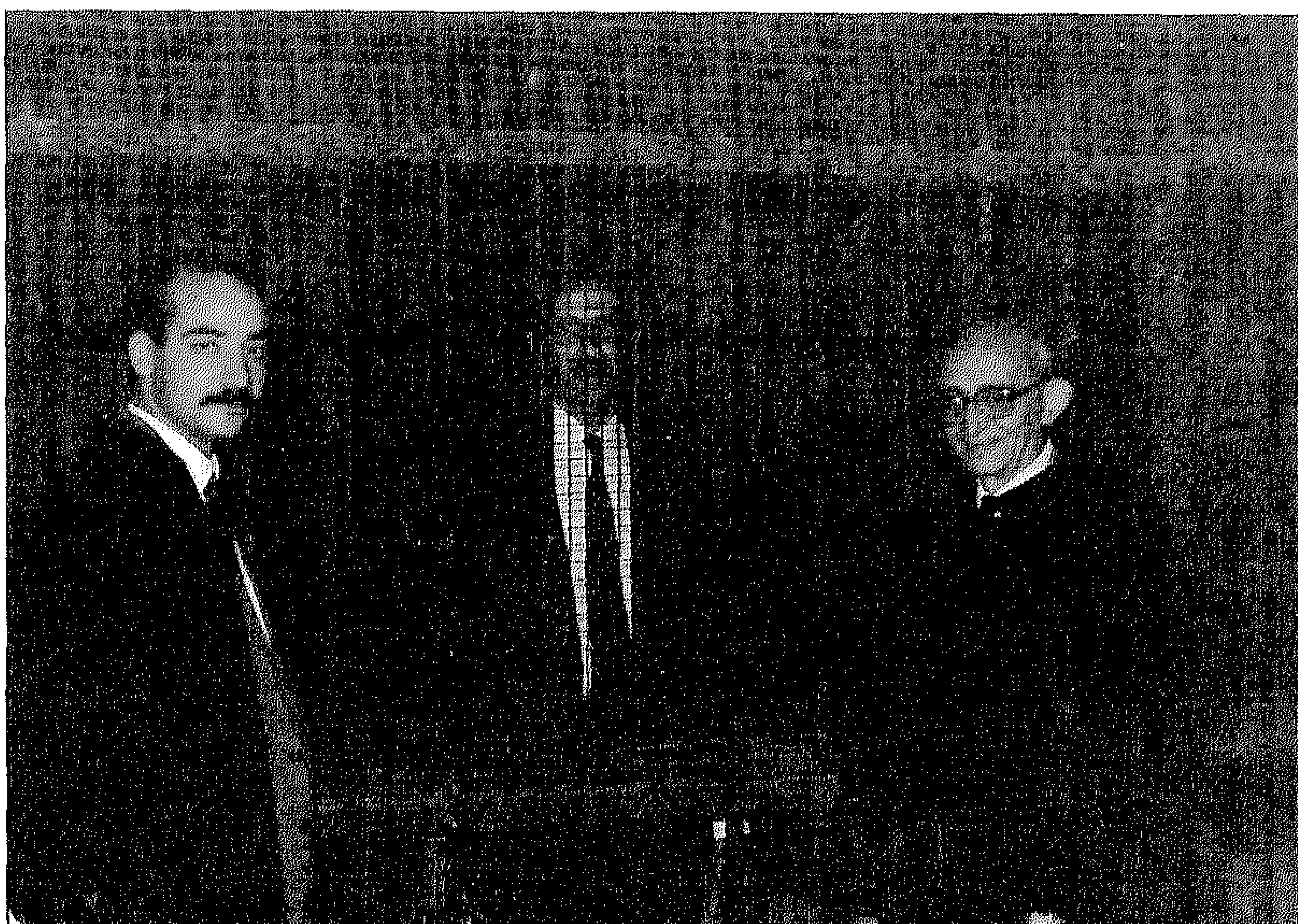
محمود نور الدين يترافع عن نفسه



نور الدين خلف القضبان يشرب عصيرًا من يد ابنته



جنازة مهيبة لنور الدين



نبيل الهلالي مع خالد عبد الناصر وخالد طلعت



خالد عبد الناصر كان متهمًا في القضية



تورتة احتفالية لقاء الجمعية بعد ربع قرن



شباب الجمعية على باب المطعم بداية بحشمت ونهاية بمحمود عبد الحميد



زارع وحشمت وعبد الجواد وياسر



قنديل مع عمرو الشبكي



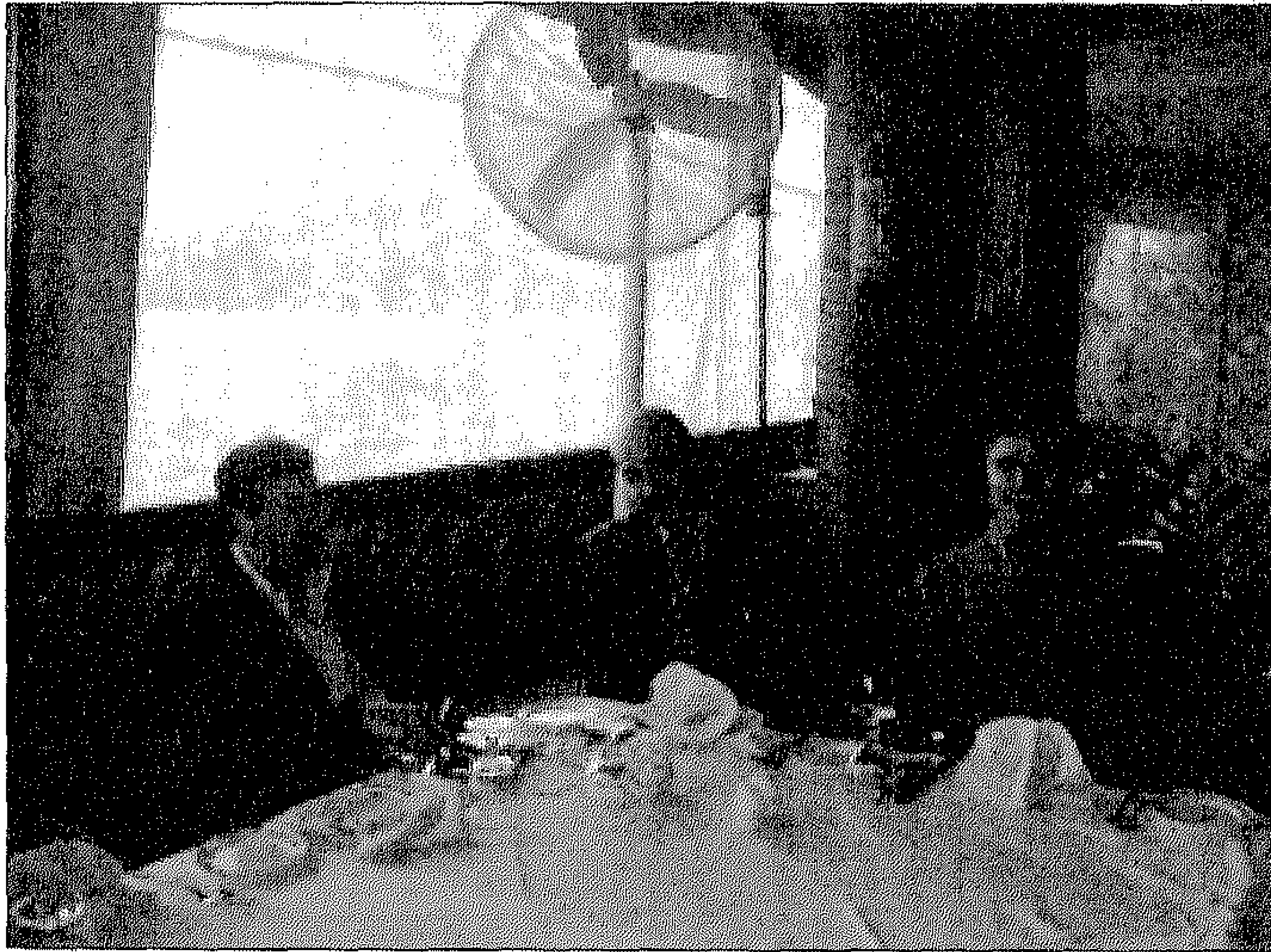
عزة موسى وسيد عبد الحافظ وعزة سليمان وقنديل



قنديل والشوبكي والنجار سيادة المستشار



أعضاء الجمعية مع أبنائهم في احتفالية ربع قرن على تأسيس الجمعية



قنديل وخالد طلعت وخالد يوسف



غمري وكلمة عن الذكريات الجميلة



صورة جماعية قبل الأكل



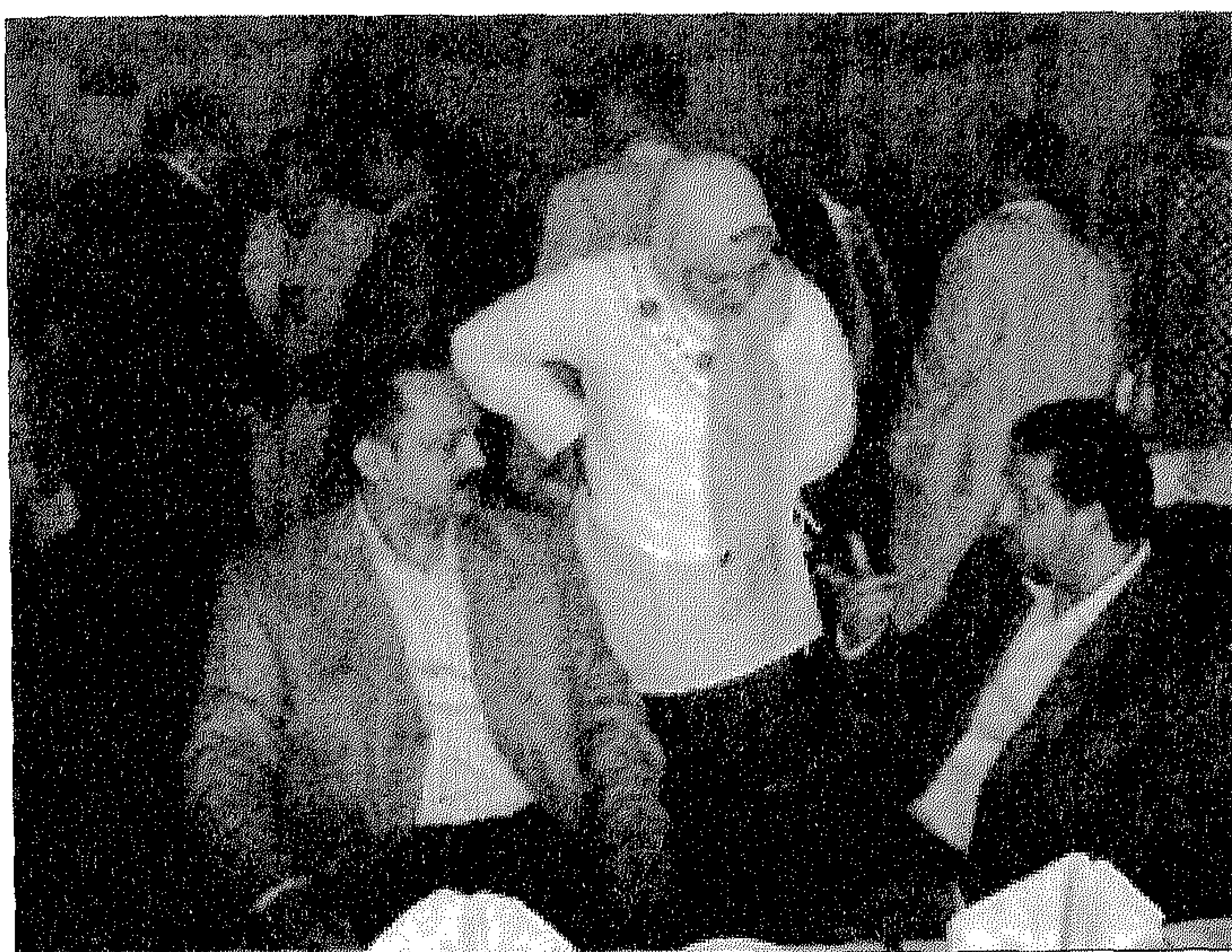
حديث فنانين وطارق بيلمع أكر!



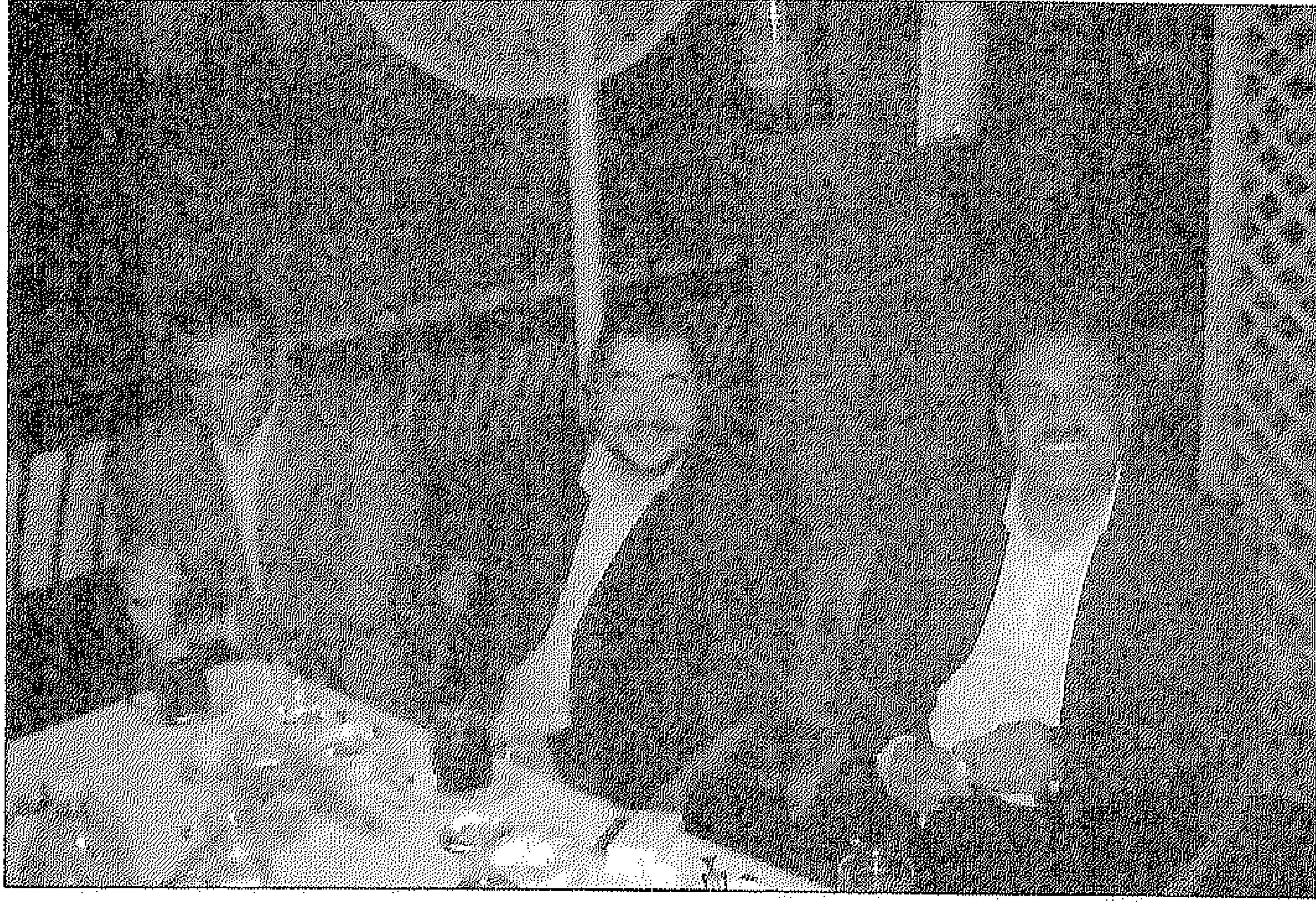
عزة موسى وهالة عبد القادر وضحكة من القلب



حديث قانوني جدًا بين غمري والمستشار أحمد صابر



حديث الذكريات مع سامح ومصطفى



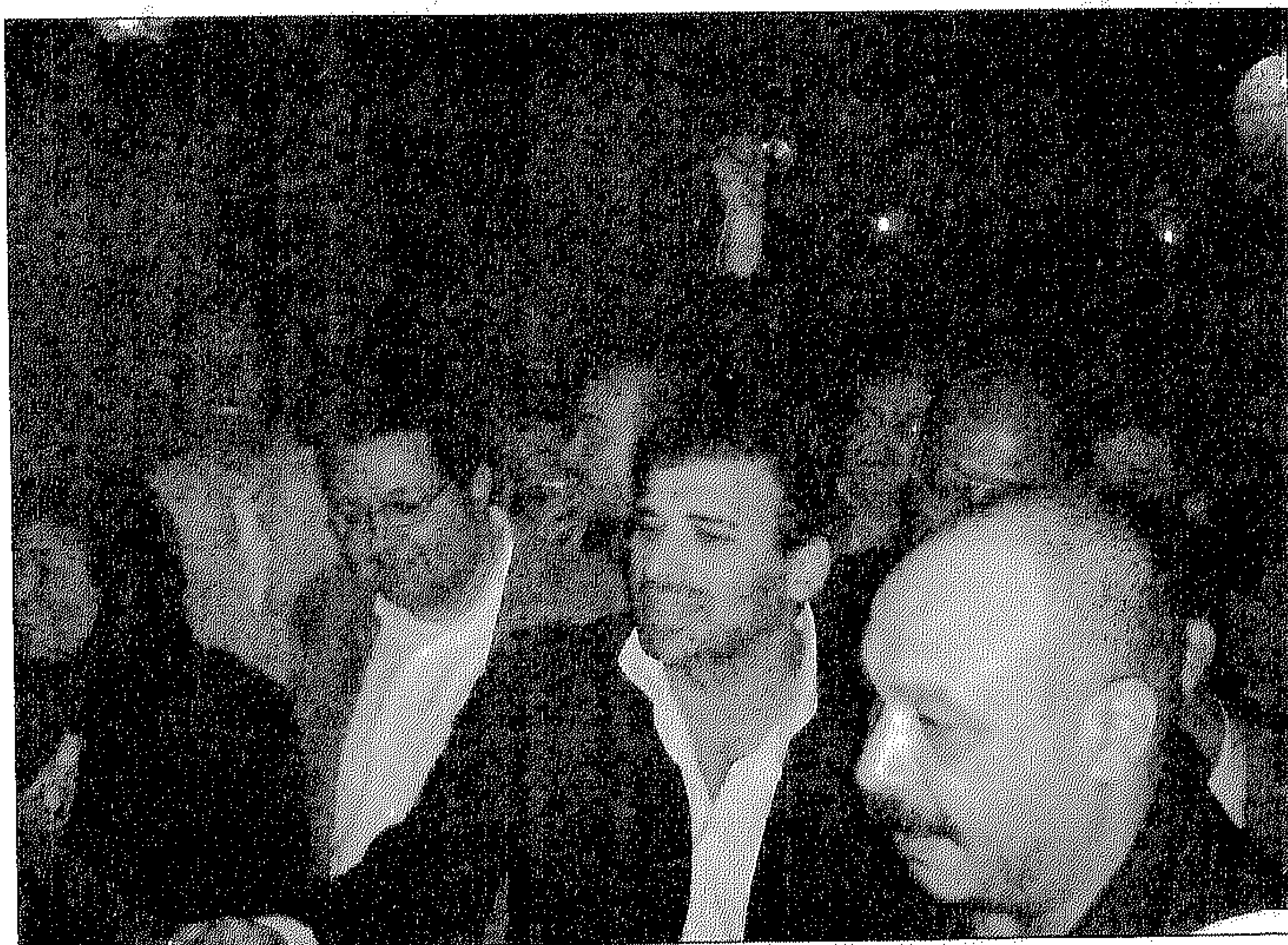
ده مش السادات – لكنه الصعيدي سيد عبد الحافظ مع الفنان طارق عبد العزيز والمحامي عصام سلطان



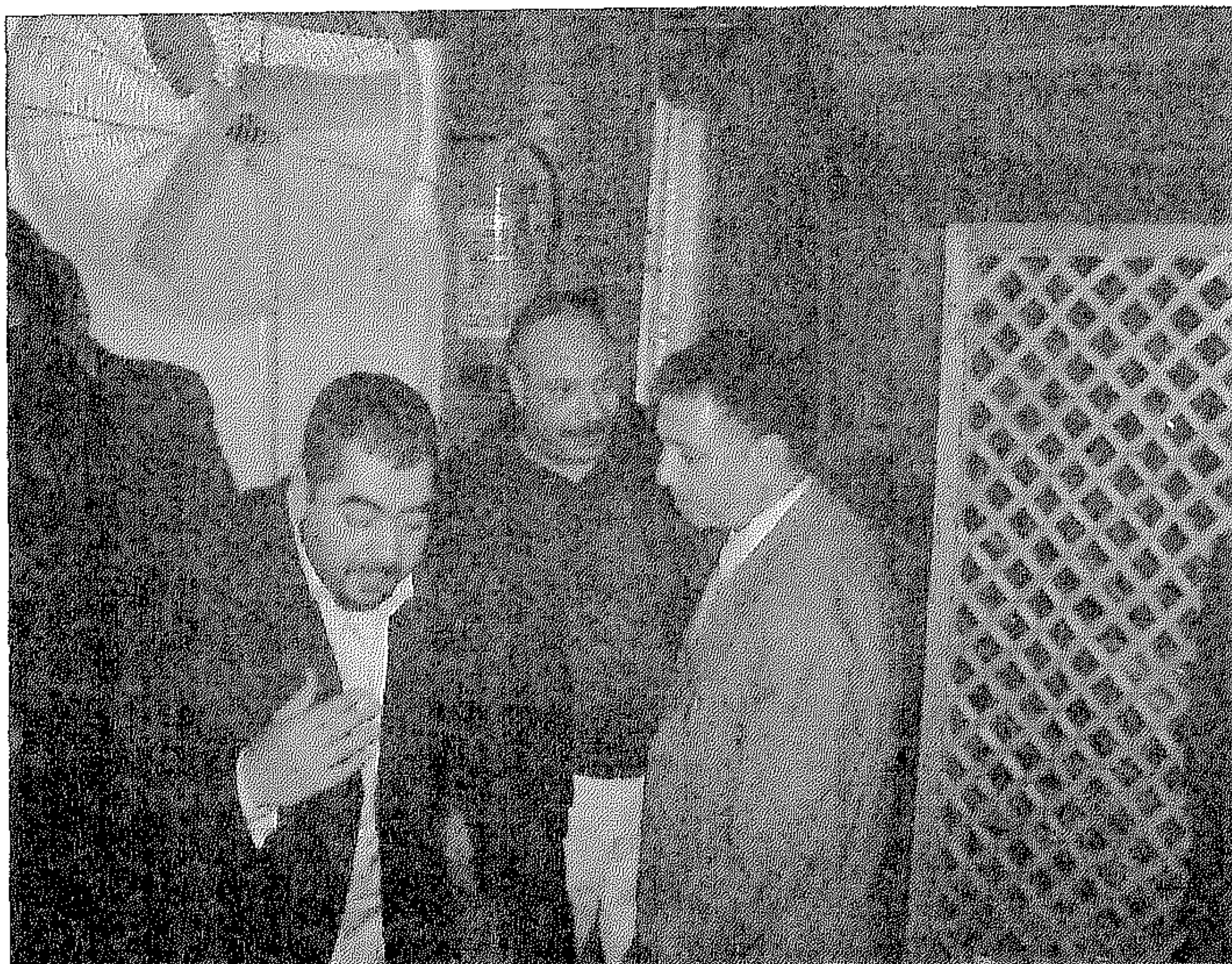
أعضاء الجمعية وشباب المسرح وعودة للزمن الجميل



أعضاء الجمعية مع سامح عاشور



خالد صالح وخالد يوسف وزياد وميرفت وأطول واحد هو عبد السميع السيد



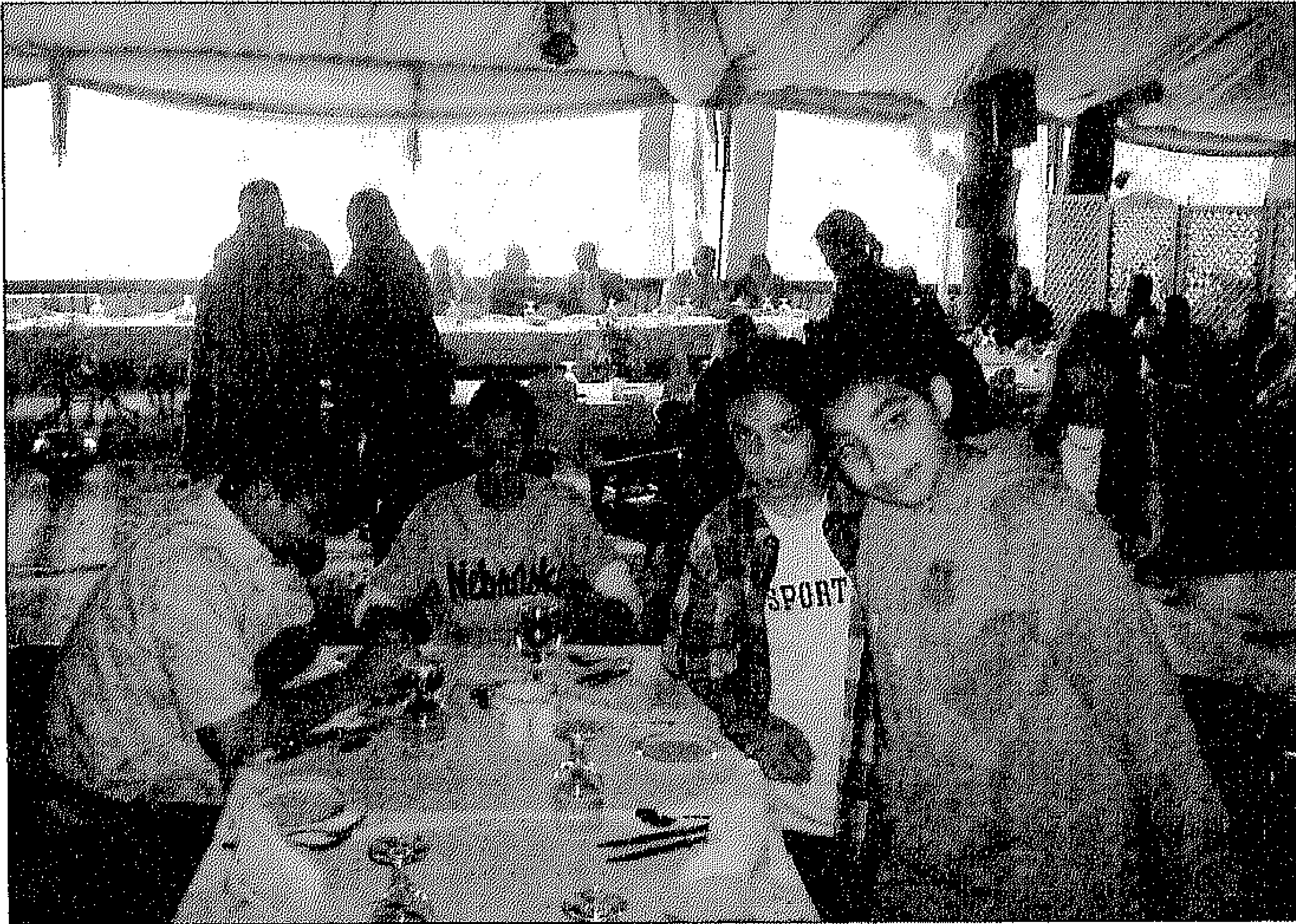
كتيبة مسرح حقوق – لسه فاكر؟



جلسة حرق سجاير بعدها حافظ عمل عملية قلب مفتوح!



الكل يتسابق لتقطيع التورتة



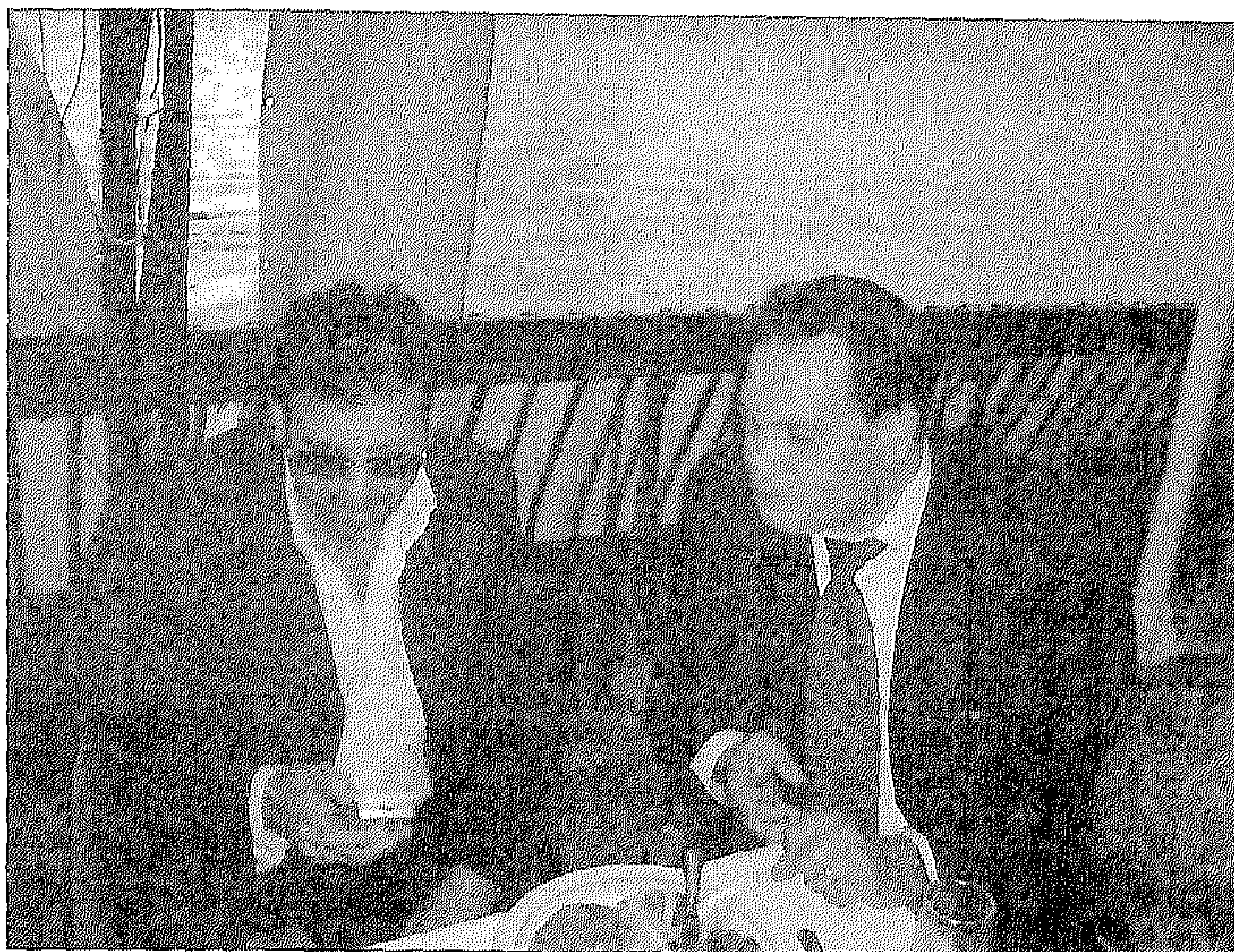
أبناء أعضاء الجمعية بقوا شباب



بنات الجمعية ـ هالة عبد القادر وغادة مجدي وامنية بعد ربع قرن ـ يا ترى فيه فرق؟



بنات الجمعية مع أطفالهم



حافظ وخالد ورنات موبيل



يا ترى بيتوشوشوا على إيه؟



خالد صالح وموافي وهالة وميرفت وفي الخلفية ماجدة أباظة



ممدوح مداح وماهر عبيد وزوجته ومعز الديباوي



هناء وعزة ولم الفلوس لحساب المطعم



ماجدة أباظة وحديث عن أسرة الوطن وجمعية الدراسات



على مائدة واحدة بعد ربع قرن



كلنا في الكادر



صورة جماعية



الكل بيغني صور يا زمان

الثورجية

ليست قصص هذا الكتاب من الخيال ولكنها أحداث واقعية عاشها أبطال لا زال أغلبهم على قيد الحياة حتى اليوم، منهم الفنان والمخرج، المهندس والفلاح، ربة البيت والمُدرسة، القاضي والمحامي، الدكتور وسواق الميكروباص.

شباب وشيوخ، نساء وأطفال، جمعهم ذات يوم شيء واحد هو حب مصر وحلم الأمة العربية الواحدة من المحيط إلى الخليج. وفجأة وجدوا أنفسهم أبطالًا لقصص مثيرة حافلة بالمآسي والآلام؛ هروب وتعذيب واعتقال!

جاهد بعضهم وتحملوا قهر لحظات الانكسار من بعد قوة، واليأس من بعد آمال. ولم يتحمل آخرون. وهم شيوخ طاعنون في السن وشباب في عمر الزهور توقفت نبضات قلوبهم مؤثرين تحقيق ما حلموا به عند ربهم.

بعد مضي ربع قرن تقريبًا على أحداث قصص «الثورجية»، هممتُ بأن أخرجها من مكنون الصدور، وذكريات الجلسات الخاصة. في صورة هذا الكتاب الذي بين أيديكم، لتكون كل عين تقرأه شاهدًا يعيش كل لحظة من لحظات الحكاية التي يرويها، والتي سَطر أبطالها حروفها من أجل عشق الوطن.




6 221102 026338

دار الشروق
www.shorouk.com